تاريخ ليس للبيع

رجـب البنــا

تاريخ ليس للبيع

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٨
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

تاريخ ليس للبيع

رجب البنا

الغلاف

الإشراف الفني:

محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

إهـــداء

إلى أمى.. وأختى

كانتا اثنتين، لكنهما كانتا نبعا واحدا للحب والتسامح.

ظل يتدفق بغير حساب حتى إرتويت منه بما يكفينى العمر كله..

وبعد عشرات السنين من رحيلهما.. مازلت أعيش معهما.. كأنى عائد لتوى من لقائهما، أو ذاهب لتوى للقائهما..

إليهما معا.. وهما روح واحدة استقرت فى دار الحق وأنا مازلت فى دار الباطل.. أهدى هذا الكتاب..

مقدمـــــه

من تناقضات حياتنا العقلية المحيرة ما نلمسه من قوة وعمق اعتزاز الشعب المصرى بتاريخه، إلى حد الوصول إلى مرحلة يمكن تسميتها «عبادة الماضى»

وفى نفس الوقت يتسع نطاق الإساءة إلى التاريخ المصرى، على أيدى مصريين، ويلقى ذلك إستجابة لا بأس بها لدى عامة الناس وخاصتهم.

ليس الأمر أن الشخصية المصرية ـ بطبيعتها ـ قابلة للجمع بين المتناقضات فى كيان واحد، ولكنه من تأثير حملات منظمة، أو شبه منظمة، تعزف فيها جوقة متكاملة من الكتاب والمتحدثين ألحانا فيها تنويعات شديدة البراعة لغرس الكراهية فى نفوس المصريين لكل مرحلة من مراحل تاريخهم، دون استثناء. . وهذه ظاهرة قديمة، منذ العصر الفرعونى، حيث نرى فى آثاره ما كان يبذله أصحاب

المصالح فى كل مرحلة ونظام، للإساءة إلى المرحلة والنظام السابقين، وتشويه ما كان معتبرا من مفاخره وأمجاده، والسعى ـ بفنون عديدة وبراعة نادرة ـ لتحويل صورة أبطال كل عصر فى الذهن العام إلى مجموعة من الخونة والمرتشين والمتآمرين، فلا يبقى فى الوجود إلا العصر القائم وحده وكل ما قبله خراب، ولا يعلو ذكر أحد إلا قادة الحاضر. وتتحول ذكرى من كانوا أبطالا فى الماضى إلى شواهد أشبه بالشاهد الذى نطلق عليه «ابليس»، عند العقبة الكبرى، والذى يمثل رمى الحجارة عليه ركنا من أركان فريضة الحج. كذلك أصبح ركنا من أركان الإخلاص لكل نظام حالى أن تلعن كل نظام سابق، وركنا من أركان الولاء للزعيم الحى أن تشوه الزعيم الراحل، ولا أظن أن الأمر يمكن تفسيره باستشراء النفاق فقط، بل لابد أن نتعمق أكثر فى تفسير هذه الظاهرة.

* * *

ربما يكون ضمن عوامل نشوء هذه الظاهرة ما كان يحرص عليه ملوك الفراعنة من أن يكون كل منهم هو الوحيد الذى سجل للتاريخ المصرى انتصارات أقرب إلى المعجزات، وكان رمسيس الثانى أكبر مثال لذلك، إذ لم يكن يتعب نفسه فى كتابة واختراع أمجاد وانتصارات لنفسه، بل كان يمحو أسماء الملوك ويضع إسمه مكان اسم كل من حقق انتصارا أو إنجازا قبله حتى بدا ـ وفق ما هو مسجل على جدران المعابد وفى النقوش، صانع الإنتصارات فى كل العصور..!

وقد يضاف إلى ذلك أن الطبيعة البشرية تهئ لكل حاكم مجموعتين جاهزتين دائما تحت الطلب، الأولى مجموعة الباحثين عن سلطة أو منصب أو ثروة ويتعاملون مع كل عصر وكل حاكم بمنطق: «أنت تدفع ونحن نزور» أو «بقدر ما تعطينا نعطيك» وعلى أيدى أمثال هؤلاء أصبح تزوير التاريخ علما وفنا، بل تحول مع الزمن إلى صناعة رائجة من أقدم الصناعات المصرية، وصار له ـ مع الزمن ـ خبراء ، وأساتذة، وجهابذة . .

أما المجموعة الثانية الجاهزة لكل عصر وكل حاكم لتقديم خدمات التزييف والتزوير فى ثوب متقن، فهم الذين أضيروا من العهد السابق، وعاشوا فيه صامتين على مضض، أو مؤيدين خضوعا للأمر الواقع ومن وراء القلب. . كانت لهم عزة وعزوة ثم انكشف عنهم الغطاء، فلما زال العهد تصوروا أن الأمر يمكن أن يعود لصالحهم إذا طبقوا قاعدة «عدو عدوى هو صديقى» فانطلقوا للثأر لأنفسهم من العهد الذى أضيروا فيه، وللتقدم بشهادة تثبت حسن السير والسلوك تعطيهم فرصة الإندماج، والإستفادة، وإستعادة المكانة فى العهد الجديد.

* * *

الأمثلة كثيرة على ما فعله ويفعله ممثلو الجماعتين. وأقرب مثال عايشناه ونعرف نجومه واحدا واحدا من بقايا مرحلة ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢. ظلوا طوال حكم عبد الناصر صامتين، وبعضهم أرسل برقيات تأييد للزعيم الملهم منقذ البلاد من فساد الحكم

الملكي. . وبعضهم إنخرط فى الحياة السياسية والإجتماعية داعية للثورة وقائدها، وما كاد عبد الناصر يتوارى حتى خلعوا الأقنعة، وتكلم الصامتون منهم. وكشف المناورون حقيقة مشاعرهم، وبدأوا فى الهجوم على ثورة يوليو هجوما ضاريا استخدموا فيه الأسلحة المحرمة أخلاقيا، ودينيا، وسياسيا، ليجردوا هذه الثورة من كل إنجاز. .

يقال لهم أن الثوة حققت جلاء الإحتلال البريطانى عن مصر ـ فيقولون إن ذلك كان خطأ. . لأن الإحتلال كان سيرحل من تلقاء نفسه فلم تفعل الثورة إلا بددت ثروة وطاقة الأمة فى معركة سياسية لا لزوم لها. . !

ويقال لهم أن الثورة أعطت السودان حق تقرير المصير فأكدت أنها تقود دولة متحضرة تحترم إرادة الشعوب، ولا تفرض الوحدة قسرا، مع أنها ناضلت من أجل الوحدة، لكن الوحدة عندها لا تفرض فرضا على شعب، ولابد أن تأتى نتيجة حتمية لطبيعة الجغرافيا، ووحدة التاريخ، وضرورات الإستراتيجية، بل وضرورات الوجود ذاته، وهذا منطق يتفق مع العقل والمنطق. . فيقولون إن الثورة إرتكبت جريمة لا تغتفر حين «تنازلت» و «ضيعت» السودان!

ويقال لهم أن الثورة سعت سعيا جادا إلى تحقيق العدالة الإجتماعية وأفسحت للفقراء الطريق ليتعلموا مجانا، فظهر فيهم نبوغ جعل منهم علماء وأطباء ومهندسين وقادة سياسيين، فيقولون إن هذا كان الخطأ الأكبر لأنها بددت الأموال لتشجيع «السفلة» و «الغوغاء» على التطاول على «الأسياد» وقلبت الهرم الإجتماعى فجعلت ابن

البواب عالما وطبيبا ومهندسا، وكان يجب أن يظل الطريق الوحيد أمام ابن البواب أن يكون بوابا، وامام ابن الفلاح أن يكون فلاحا، وهكذا. .

ويقال لهم أن الثورة أقامت السد العالى الذى حمى مصر من الجفاف والعطش ثمانى سنوات متصلة ـ ومازال يحميها ـ ولولا ما أضافه إلى رصيدها من المياه ما كان من الممكن استصلاح أراض جديدة، فيقولون أن السد العالى كارثة لأنه منع الطمى وأدى إلى إختفاء «السردين». . !

ويقال لهم أن الثورة أقامت عشرات المصانع وبدأت تحقيق حلم «مصر الصناعية» وأقامت أول مفاعل نووى فى المنطقة، وأنشأت مراكز للبحث العلمى أعدت جيلا من العلماء يعرفهم العالم، فيقولون إن ذلك كان خطأ لا يغتفر. . !

ويقال لهم أن الثورة لها فضل إحياء الفكرة القومية وقضية الوحدة العربية، وأن الأيام تثبت أن العرب إذا لم يتوحدوا يمكن أن يتحولوا إلى شظايا، ويمكن أن تتداعى عليهم الأمم «كما يتداعى الأكله على قصعتها» كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. . فيقولون إن «مصر الصغرى» هى الأقوى، بدلا من أن تبدد الثورة ثروة مصر على أشقائها العرب!

كل شئ خطأ!

حرب على ثورة يوليو بأسلحة مشتركة.·. فرق من الخارج وفرق من الداخل، مع أن مرحلة «الشرعية الثورية» قد انتهت، وغادر قادة

هذه المرحلة مقاعدهم وابتعدوا عن التأثير فى الأحداث، ولم يتبق منهم إلا الذكرى، وتصفية الحسابات معهم، ومع الثورة كلها، أمر مفهوم، أما الإساءة إلى تاريخ شعب بأكمله لإرضاء شهوة الإنتقام فهذا ما نخشى عواقبه.

ولم ينجو أنور السادات من هذه الحرب الشاملة، فهناك من كرسوا جهدهم لإظهار عهده على أنه ليس إلا سلسلة أخطاء متصلة، وكأنه لم يتحقق شئ يمكن أن يذكر بالخير لعهده، مع أن حرب أكتوبر وحدها، يمكن أن تغفر الذنوب جميعا!

حرب أكتوبر - فى التاريخ الحديث - نقطة تحول بالغة الأهمية ليس على المستوى العسكرى فقط، مع أن ما تحقق فى ميدان القتال فيه الكثير من الإبداع المصرى الذى سجله التاريخ، وتشهد على ذلك دراسات مراكز البحوث الإستراتيجية الكبرى، ومع ذلك لم تسلم هى الأخرى من حرب التشويه والإساءة، مرة بإنكار الإنتصار المصرى كلية وهذه درجة من «الوقاحة التاريخية» لا تستحق الرد، وإما بتقديمها بأقل كثيرا من حجمها الحقيقى، وكأن هناك فئة تتوارى وراء مبررات وإدعاءات واهية، هدفها الحقيقى سلب الشعب المصرى حقه فى الإعتزاز بالنصر الذى حققه فى هذه الحرب. وقدم ثمنا له أرواح شهداء لهم فى الوجدان المصرى مكان كبير.

ما كل هذه الحروب على المعالم الأساسية للتاريخ المصرى الحديث.. أهى حرب على أشخاص القادة..؟ أم هى حرب على كل ما تمثله ثورة ٢٣ يوليو وكل ما - ومن - جاء بعدها..؟ أم هى

حرب على الشعب المصرى، لكى يفقد الثقة بالنفس، ويمضى فى الحياة مسلوب الإحساس بالكرامة ومجردا من الإعتزاز القومى؟

يعزز الإحتمال الأخير أن الحرب لم تقتصر على التاريخ السياسى. ولكنها امتدت الي التاريخ الإجتماعى والحضارى والثقافى للشعب المصرى، ولأن اليقظة فى هذه الميادين سابقة على ٢٣ يوليو فإن الحرب شملت زعماء الإصلاح منذ بدايته، فلم يسلم من حملات التشويه الإمام محمد عبده، ولا الشيخان مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق، ولا قاسم أمين.. ولا أمثالهم.. كما لم يسلم الزعماء أحمد عرابى، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس وأمثالهم..

* * *

أليس هذا أمر يلفت النظر، ويستحق اليقظة؟

أليس غريبا أن نجد من يدعونا إلى التنصل من جزء من ماضينا، ويدس فينا الإحساس بالخجل من الإنتساب إلى مراحل هى فى المقياس الصحيح موضع إعتزاز وفخر.

وهل هناك أمة يمكن أن تعيش بلا تاريخ؟ أو أن ينمو شباب بلا قدوة ومثل عليا من رجال الماضى والحاضر..؟ وأنظروا إلى العالم لتروا كم يمجدون رجالهم..

أنظروا إلى حجم التمجيد الذى تمتلئ به الكتب المدرسية والأدبية والأعمال الفنية فى أمريكا عن قادة من أمثال جورج واشنطن، أو إبراهام لنكولن، أو ويلسون، أو روزفلت وغيرهم كثير.. وأنظروا

كيف يدرس الفرنسيون باحترام شديد أعمال وسيرة حياة رجال الثورة الفرنسية مع فظاعة ما ارتكبته هذه الثورة، ثم انظروا كيف يدرس البريطانيون زعماءهم حتى الذين فشلوا منهم مثل كروموبل، الزعيم الذى مات مشنوقا بإعتباره متمردا وخارجا على سلطة الملك، وإنهزم فى النهاية، لكنهم يقدرون أن ثورته ـ الفاشلة ـ هذه كانت نبيلة فى مقصدها من أجل الديمقراطية والحد من سلطة الملك المطلقة، وإن كانت قد فشلت إلا أنها فتحت الطريق. . وبدأت صفحة مشرفة للديمقراطية وحكم الشعب فى التاريخ البريطانى.

طبعا هناك من يحلل أعمال كل هؤلاء الزعماء ويوجه إليهم النقد، ويكشف العيوب، ويذكر السلبيات، ولكن ذلك يحدث فى إطار تقدير للدور والمكانة، وليس فى إطار إهدار الكرامة الشخصية للزعماء كما يحدث من بعض الأقلام عندنا، وليس بالكذب على التاريخ بإدعاء إن كل زعيم لم يكن إلا خائنا، أو متآمرا، أو مفرطا فى حق الوطن، وهى إتهامات كبرى لا ينبغى أن تكال جزافا وبالبساطة التى تتم بها، بغير أدلة، ولا وثائق، بمجرد إطلاق العنان للأقلام بإستخدام كل ما فى قواميس الشتائم والإتهامات بالباطل دون أدنى شعور بوخز الضمير.

ما أخشاه أن تكون نتيجة ذلك كله أن يجد الشباب المصرى نفسه فى موقف نفسى صعب، موقف «اللا يقين»، وفقدان الثقة، وما يستتبعه ذلك من القلق الذى يدفع إلى الجنون، أو الجريمة، أو الإنسحاب. . واقرأوا قصه نجيب محفوظ «الطريق» لتروا كيف يشعر

الإنسان بالضياع حين لا يجد له أبا ينتمى إليه، والأب هنا رمز يشير إلى «الأصل» و «الجذر» الممتد فى الزمن، وإلى الماضى الذى يحتاج الإنسان إحتياجا نفسيا لأن ينتسب إليه.. إن نجيب محفوظ يصور ببراعة معجزة كيف قضى هذا الإنسان حياته كلها بحثا عن أبيه، عن أصله، عن جذوره، عن المصدر الذى يستمد منه القيمة، ويعطى لحياته معنى، ويملأه بالكرامة.. وحين لم يستطع العثور عليه، بعد رحلة معذبة ومضنية، إنتهى به الأمر إلى التمزق، ثم الضياع، ثم إمتلأت نفسه بالعدوان، وإنتهى به الأمر إلى تدمير الذات، وتدمير الآخرين.

هذه الرواية العظيمة تصور حقيقة من أعمق حقائق الحياة الإنسانية. هى احتياج الإنسان إلى اليقين، والثقة فى المصدر الذى ينتسب إليه.. هذه الطبيعة هى التى نلمسها فى مدى إعتزاز كل إنسان بأمه وأبيه، ولا يمكن أن تكون شخصيته سوية ما لم يكن كذلك، فإذا وجد حوله من يكررون وبإلحاح أدلة مصطنعة، وإدعاءات باطلة، تشكك فى سلوك الأم لتدفعه إلى عدم إحترامها، أو تصور له أبيه هذا الذى يجله بأنه لم يكن إلا آفاقا مزورا لا تجوز عليه إلا اللعنة.. فكيف يعيش مثل هذا الرجل مع نفسه أولا، ومع الناس ثانيا، وفى داخله كل هذا التمزق، والخزى، والإنفصال عن المنابع والجذور.؟ من أين تأتيه الكرامة، ومن أين تأتيه الثقة ليخوض معارك كبرى أو يناضل من أجل معان نبيلة..؟

* * *

ما أخشاه أن ذلك تحقق بشكل ما، وأعتقد أن هناك أسباب عديدة للقلق الإجتماعى، والتوتر السياسى الذى يظهر فى عمليات وجماعات الإرهاب هذه الأيام، بعض هذه الأسباب سياسى، وبعضها إقتصادى، وبعضها إجتماعى، وبعضها ثقافى، ولكن بالإضافة إلى هذه الأسباب كلها، هناك سبب آخر، عميق جدا، وغائر فى النفوس، ويعمل بقوة غير مرئية فى اللاوعى الفردى والجماعى، نتيجة هذه العملية الهائلة لتشويه التاريخ المصرى ورجاله التى تجرى بهمة وقوة فى الساحة السياسية والثقافية، وكان من نتيجتها تشكيك الشباب فى جدوى وقيمة كل ما تحقق من أعمال، وفى كل فكر وشخص.. وها نحن نرى أمامنا علامات إختلال الشخصية، وإهتزاز الثقة، فى شباب لم يعايش شيئا من الأحداث التى يشوهونها، وليس لديه القدرة على التمييز بين ما هو صحيح وما هو فاسد من الأحكام التى تطلق ببساطة، وقد تحول بعض الكتاب إلى قضاة، ووكلاء نيابة، وجلادين، دون أن تكون لديهم أدوات البحث العلمى الصحيح، أو النزاهة الواجبة، وكان من نتيجة ذلك ظهور ثلاث تيارات بين الشباب مدمرة:

التيار الأول: يبدأ برفض كل شئ ويلجأ إلى حيلة نفسية دفاعية هى «النكوص» أى الرجوع إلى الماضى، والحياة فيه كأنه هو الحاضر الحى، ما دام الحاضر فاسدا كما يصوره أصحاب الأقلام المسمومة، فإن الشباب ينتقل من الرفض إلى التمرد على الحاضر والماضى القريب، بحثا عن بديل فى الماضى البعيد، فى «يوتوبيا».. أما الحاضر فلا يجد فيه ما يستحق البقاء وبالتالى فالقتل والتدمير هى وسيلة الخلاص، وهكذا تندلع شرارة الإرهاب.

والتيار الثانى: هو السلبية، وعدم الإنتماء، والإغتراب السياسى والإجتماعى والثقافى، والإبتعاد عن الحياة العامة، وعدم الإنشغال بأمور الوطن، يحدث فيه ما يحدث فلا يجد لدى هؤلاء إهتماما. بعدما زرعوا فى نفسه أن كل من عملوا من أجل الوطن كانوا «نصابين». . !

أما التيار الثالث: فهو ما نراه من لجوء قطاعات من الشباب إلى البحث عن القدوة، والمثل الأعلى، والنموذج، من خارج المجتمع المصرى بكل عصوره، مادام الجميع مزيفون، ومادام الشك قد وصل إلى مرحلة الإنكار لكل «حقيقة تاريخية». . وهؤلاء هم الذين نراهم يعرفون أبطال الغناء والرقص والسينما والسياسة فى أوربا وأمريكا ويقلدونهم، ولا يعرفون نظائرهم فى مصر، ولا يريدون أن يعرفوهم. .

هذا «الكفر» بالماضى والحاضر لمصلحة من؟

قد يقول قائل: أتريد أن يتحول التاريخ إلى تمجيد لكل عصر وكل زعيم على حساب «الحقيقة التاريخية»؟ وأسارع إلى الإجابة بأن هذا ليس مقصدى، ولا أتحدث هنا عن حق المؤرخين فى أن يتناولوا العصور والشخصيات التاريخية بالنقد، بحرية عقليه وعلمية لا تقيدها إلا قيود الموضوعية والأمانة العلمية، والوثائق، والمنهج العلمى. . إلخ. . لا أجادل فى ذلك، ولكنى أتحدث عن شئ آخر، أتحدث عن الذين يتناولون الأحداث والشخصيات التاريخية ويتوافر لديهم ما يسميه رجال القانون، «القصد الجنائى» أى نية إرتكاب جريمة إغتيال التاريخ والإعتداء على الحقيقة التاريخية. .

هؤلاء أمامنا.. نعرفهم.. ونقرأ لهم.. وقد جعلوا أقلامهم معاول هدم تضرب فى الأساس الذى يقوم عليه البناء، بناء العقل والوجدان، والعقل، والضمير، أو أصبحوا مناجل تقطع جذور الشجرة جذرا بعد الآخر، يريدون لها أن تسقط وتتهاوى، وسقوط شعب، أو سقوط وطن، جريمة ليس بعدها جريمة، وأرجو أن يكون مفهوما ما أقصد إليه، وهو أننى أحترم كل جهد مخلص ونزيه يسعى إلى «الفهم التاريخى» ولا أستطيع أن أحترم جهودا لا هم لها إلا هدم تاريخنا وأبطالنا وبيعهم «أنقاضا» لمن يدفع الثمن، وأحيانا بغير ثمن..!

فرق بين «الحقيقة التاريخية» وبين «الخديعة التاريخية».

لا نطالب المؤرخين والكتاب بمبالغات تجعل كل ما حدث فى الماضى مضيئا، وتمجيده بالحق وبالباطل، ولكن نريد إنصاف ما حققه الشعب المصرى من إنتصارات دون إغفال الإنكسارات والهزائم والأخطاء، نريد التوازن فى ذكر الإيجابيات والسلبيات، فليس هناك عصر كان ظلاما تاما، ولا زعيما كان مخطئا بنسبة مائة فى المائة.. فإن الإنصاف واجب أخلاقى وقومى، وضرورة لإعادة «إلتئام الشخصية المصرية» التى تمزقت أو على وشك التمزق. فإن كل عبث فى حلقة من حلقات الماضى لابد أن تفسد الحاضر والمستقبل، وقد رأينا فى الزلزال الذى ضرب مصر فى أكتوبر ١٩٩٢ أن كل بناء لم يكن قائما على أساس سليم تصدع وإنهاز، ولم يصمد فى لحظة الخطر، وكثرت ضحاياه، ولم يبق بعد الزلزال إلا البناء الثابت، الراسخ، المستقر على أساس متين.

ونحن نذكر جيدا ما يقوله العلماء من أن الإنسان حيوان له تاريخ. . فكيف يكون هذا الإنسان إذا جردناه من التاريخ؟

ثم أن علماء النفس يقولون أنه ليس هناك مجرم مائة فى المائة مهما إرتكب من جنايات، فالمجرم مهما كانت شخصيته مليئة بالشر، لابد أن يكون فيه جانب طيب يسكنه الخير، كما أن القضاة المشهورون بالعدل يقولون أن ميزان العدل له كفتان واحدة للحسنات والثانية للسيئات، والله سبحانه وتعالى يحاسب خلقه بما فعلوه من خير وشر، فما بالنا بالزعماء والقادة. كيف نقبل مواقف الإدانة الكاملة والمطلقة لكل أعمالهم وتصرفاتهم دون إستثناء؟ أليس ذلك ظلم لا يرضاه الله والضمير. . ويسئ إلى الوطن وأبنائه؟

هذه هى الدوافع التى حفزتنى لكتابة هذه المقالات ونشرت فى «الاهرام» فى أوقات متفرقة خلال السنوات الماضية، دفاعا عن جذور الشخصية المصرية ـ العربية ـ الإسلامية. . ولست أطمع فى أن يتفق القارئ الكريم معى فى كل ما أقول، ولكنى ـ للحق ـ أطمع فى أن أدفعه إلى التفكير فى الخطر الذى أنبه إليه. ولم أجد داعيا إلى الإشارة إلى تاريخ نشر كل مقال لأنى رأيت أن ذلك لن يفيد القارئ فى شئ، كما لم التزم بالترتيب الزمنى لنشر المقالات، وفضلت ترتيبها بحسب سياق الموضوعات، وقسمتها إلى محاور رئيسية وفقا لطبيعة القضايا التى تطرحها. وان بدا التكرار فى بعض الأفكار فهو من شدة الحرص على أن تكون هذه الأفكار واضحة وأن تصل إلى الأذهان وتتفاعل معها.

ولست فى حاجة إلى القول بأننى لست مؤرخا، ولا أنازع المؤرخين مكانتهم، إنما أنا صاحب كلمة، أردت أن أقولها، وأمضى، عسى أن تنفع.. والله وحده هو العليم بالنوايا والمقاصد، وهو وحده القادر على تحقق القصد، وحماية مصر من بعض أبنائها، كما حماها دائما من أعدائها، وهو سبحانه الموفق والمعين.

القاهرة فى ديسمبر ١٩٩٣

رجب البنا

القسم الأول

ثورة فى مواجهة أعدائها

الخطافــون...!

لا أقصد بالخطافين هنا مجموعات الإرهابيين الذين يخطفون الطائرات ويروعون الأمنين أو يقتلون الناس غيلة، ولكنى أقصد من لا يقل عنهم أرهابا وخطرا ولكن خطرهم يتجه إلى عقولنا أساسا وهم الذين يخطفون الفكرة خطفا ويسارعون إلى معارضتها أو نقدها قبل أن يفهموها فهما جيدا أو يدركوا مرامى صاحبها أو يستجلوا أبعادها الحقيقية. هؤلاء يخطفون كلمة من هنا أو فكرة من هناك فيتعجلون إبداء الرأى فيها وفى قائلها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الفهم والتقصى والتحقق.

وفى الخمسينات كتب الدكتور طه حسين ينبه إلى هذه الظاهرة الخطيرة لكنه كان يقصد الخطافين فى مجال الأدب والنقد الذين يقرأون الأعمال الأدبية خطفا ويتصدون لنقدها ومناقشتها خطفا،

وكان يرى أن هذه الظاهرة تهدد حياتنا العقلية والثقافية وتهدد بناء العقل المصرى ذاته، لكن صيحة طه حسين ذهبت أدراج الرياح وإزدادت الظاهرة، إلى حد أن أصبح الخطافون الآن فى كل مكان وفى كل مجال تقريبا ولم تعد الحياة الثقافية والأدبية وحدها هى المهددة ولكن أصبحت حياتنا السياسية والإجتماعية مهددة أيضا بنفس الآفة إذا لم نتداركها فى الوقت المناسب.

والأمثلة كثيرة على هذه الظاهرة منها مثلا ما سمعته من أن عميد كلية التجارة في جامعة عين شمس وهو يلقى محاضراته على الطلبة تعرض لتحليل علمى عن صعوبة حل المشاكل الإقتصادية لمصر دون أن يصحب ذلك تعاون الأفراد ورغبتهم الصادقة فى العمل الجاد المنتج وقال أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال هذا فى سياق شرح أستاذ لطلبته عن أهداف المجتمع الإقتصادية وصعوبة تحقيقها دون تضحيات حتى فى أكثر الدول تقدما، ولكى يدلل العميد على أن كل إصلاح يحتاج إلى وقت ولكى يوصل الفكرة قال لهم: إن الله خلق الدنيا فى ستة أيام ولم يخلقها فى لحظة واحدة.

مثل هذه الفكرة واضحة بذاتها أو هكذا تصور العميد ويتصور كل من يتأنى ولو لحظة لتفهمها، لكن أحد الخطافين من الطلبة ذهب يجرى إلى صحيفة ليروى القصة بصورة مثيرة وغريبة، كتب أن العميد آثار مشاعر الطلبة وأنه قال أن الله لا يستطيع تغيير شئ فى الأمور الإقتصادية وفى هذا إعتداء على العقيدة..! وقال أيضا أن هناك من يطالبون العميد بأن يعلن توبته بصورة علنية حيث أوجد

هذا الأمر شعورا بالنفور والعداء بين الطلاب. . وأن العميد تعدى على الله وقدرته أن يقول للشئ كن فيكون.

هل بعد ذلك إرهاب؟

وهذا مجرد مثال واحد حدث فى إطار الجامعة والمفروض فيها أنها حرم الفكر الحر والمناقشة العلمية والتدريب على الفهم والتفاهم. ولكن حتى فى هذا الإطار وجد الأستاذ ـ ومن بين تلاميذه ـ من يمسك له هراوة ويحاول أن يخيفه ويرهبه ويصل به إلى تهمة الكفر ويطالبه بإعلان التوبة!

هكذا الخطافون فى حياتنا هذه الأيام إذا اقتحمت قواتنا طائرة محكوما على جميع ركابها بالقتل بيد إرهابيين قتلة محترفين سارع الخطافون بإبداء أوجه النقد دون حتى أن يرتبوا لأنفسهم الوقائع والأحداث كما وقعت .ودون أن يحاولوا استخلاص النتائج من المقدمات أو يتحملوا مشقة التحليل المنطقى للأحداث. وإذا إرتفع شعار «الصحوة» رمزا ليقظة الشعب فى مرحلة يحتاج فيها إلى حشد كل قواه ـ المادية والروحية ـ لكى يحل مشاكله ويعوض سنوات التخلف. سارع الخطافون إلى مناقشة القضية مناقشة مبتسرة تذهب بجوهرها ولا تبقى منها إلا مجرد لفظ أو مجموعة ألفاظ يمكن أن تتعرض بسهولة بعد ذلك للتشويه، وإذا نشرت الصحف مجموعة أحداث قتل شاذة سارعوا إلى خطف الأمور خطفا وتعميم الظاهرة إلى حد القول بأن المجتمع المصرى أصبح مجتمعا مفككا، ولم تعد فيه القيم الدينية والأخلاقية والأسرية فى مكانها التقليدى ولا

يكلفون أنفسهم عناء التفرقة بين الظاهرة الفردية والظاهرة الإجتماعية أو يتعمقوا في دراسة الحجم الحقيقى لظواهر الشذوذ فى المجتمع. ويحللوا الأسباب الخاصة لكل حالة التى أدت بها إلى الإنحراف، وإذا رأوا من يطالب بإرساء القواعد للتطبيق لكى تقام على أسس شاملة وراسخة اتهموا صاحب هذا الرأى بمعاداة الشريعة والكفر.

وهذا أيضا ما يحدث مع ثورة ٢٣ يوليو وغيرها من الأحداث الكبرى.. هناك من يخطف حدثا ويجرده من سياقه وظروفه لكى ينهال على الثورة ويحكم عليها حكما مطلقا بالفشل..

حقيقة أننا نعيش في عصر السرعة حيث تنهال على الإنسان الأحداث والأنباء كثيرة ومشوشة، ولا يملك كل فرد القدرة على أن يقوم بنفسه بإعادة ترتيب الأحداث وإعادة بناء الوقائع بشكل منطقى لكى يميز بين الصواب والخطأ.. هذا صحيح بالنسبة للمواطن العادى، فهل يمكن أن يكون مقبولا من المثقفين أيضا والمفترض أن لديهم القدرة على التمييز والتحليل أو لديهم على الأقل القدرة على الفهم الصحيح لما يقال وما يجرى أمام عيونهم.

يبدو أننا نحتاج إلى تحذير الدكتور طه حسين هذه الأيام أكثر مما كان يحتاجه مثقفو الخمسينيات.. لأن الخطافين فى زماننا أكثر ولأنهم فوق ذلك يسمحون لأنفسهم بمنهجهم المريض - أن يتناولوا خطفا كافة شئون المجتمع وقضاياه - إبتداء من السياسة وإنتهاء بالعقيدة والشريعة.

ليست هذه حملة على أحد، ولكنها تحذير من منهج مريض فى الفكر والحياة، ودعوة صريحة لكل فرد إلى أن يحسن فهم ما يريد أن يناقشه قبل أن يبدأ المناقشة وألا يتعجل إصدار الأحكام. فإصدار الأحكام سهل لا يحتاج إلا إلى لحظة من زمان، وقدرة على خداع النفس إلى حد أن يتصور المرء أنه فاهم لكل شئ ومدرك لكل الظروف وقادر على إصدار الأحكام فى كل موضوع وفى لحظة مثل التصوير «بالفوتوماتون». . وهذه سمة من سمات الشخصية غير الناضجة على أى حال. وبداية «الصحوة» ـ فى رأيى ـ أن نبعد عن آفة التسرع فى الفهم والتسرع فى إصدار الأحكام وهى مسألة تحتاج إلى جهد ولذلك لن يرضى عنها الكسالى، وتحتاج إلى تواضع ولذلك يرفضها أصحاب الغرور، وتحتاج إلى إنفتاح عقلى وسماحة عقلية ولذلك يرفضها أصحاب العقول المنغلقة.

وليت مؤسسات التعليم والتكوين الثقافى والسياسى والتربوى تنبه إلى هذه الظاهرة وتفعل شيئا لعلاجها قبل أن تتفاقم أكثر.

إختلال الوعى بالتاريخ!

تبدو على سطح حياتنا ـ الفكرية والإجتماعية ـ ظواهر مخالفة للمنطق، وللسياق الطبيعى للعقل السوى، منها ـ على سبيل المثال ـ إختلال الوعى بالتاريخ. فالتاريخ ـ فى العقل السوى ـ ثلاث حلقات: الماضى، والحاضر، والمستقبل.. ليس بينها إنفصال، ولكن لكل حلقة أو مرحلة كيان، وخصائص، ومقومات، تجعلها متميزة عن غيرها، مع ما بينها من إتصال.. وتأثير..

وسر الإختلال عندنا أن الماضى ليس فى خانة «الماضى»، ولكنه فى خانة «الحاضر»، يزاحمه، ويسبقه أحيانا، إلى حد أن يختلط الأمر فى الوعى العام بين ما ينتمى إلى الزمن الماضى، وما هو قائم فى الحاضر، وبالتالى تبدو إحتمالات التقدم نحو المستقبل غاية فى الصعوبة.

وللدكتور ممدوح البلتاجي ملاحظات في منتهى الذكاء تصلح بداية لنظرية في فهم ما نحن فيه، وتفسير أسرار التخلف والجمود في حياتنا بشكل عام، تبدأ بملاحظات عن أشياء صغيرة في سلوكنا اليومي، وتمتد إلى الإدارة والسياسة والحياة العامة. فنحن نعيش مع الماضي والحاضر معا في وقت واحد، وكلاهما في وعينا وفي حياتنا متساويان في الأهمية، والفاعلية، والتأثير.. ومثال ذلك أن تجد في مكان واحد أحدث وسائل تنظيم المستندات بالميكروفيلم والكمبيوتر، وبجانبها أكداس الأضابير محفوظة بنفس النظام القديم المتوارث منذ إلعصور الوسطى. وفي حياتنا الوجدانية ستجد مطربي وفناني الثلاثينات والأربعينات بأفلامهم وأغانيهم تراهم كل يوم في بيتك، كأنهم لم يفارقوا الحياة لأنهم جزء من صميم خريطة الإذاعات والتليفزيون، وليسوا ضمن برامج عن الذكريات أو مناسبات تكريمهم في ذكراهم، ولك أن تتخيل الأثر النفسي في تكوين جيل جديد نشأ على نفس الأفكار والأفلام والأغاني والكتب التي نشأ عليها الجيل السابق.. ما الفرق بين الجيلين؟. وإذا توحد جيلان في الذوق والفكر والإتجاه فأين التجدد في الحياة وأين التقدم، وأين الإبداع، وأين إختلاف الحاضر عن الماضي..؟ ولو ألقيت نظرة على أسطح، وشرفات، بل وداخل البيوت المصرية يصدمك إكتظاظها بمخلفات قديمة لم تعد صالحة للإستعمال، و«كرواكيب» لم يعد الإحتفاظ بها يمثل فائدة، ومع ذلك فهي موجودة تزحم البيوت وتزاحم غيرها مما يفيد.. هل هو الحرص على الإحتفاظ بكل شئ وعدم القدرة على الإستغناء حتى عما أصبح الإحتفاظ به عبئا إبتداء من أحذية الأبناء

منذ كانوا أطفالا إلى أن أصبحوا رجالا، وإنتهاء بكتب تافهة من حيث قيمتها العلميةولا تصمد للنقد، مليئة بالخرافات والأفكار السقيمة المعادية للعلم والعقل، والمتعارضة مع التطور الذى حققته الإنسانية فى القرن العشرين. . هل هى نزعة لتقدير كل ما هو ماض وقديم إلى حد التقديس وإعتبار مراجعته، وغربلته، وإلقاء ما لا يصلح منه للحاضر، إساءة للآباء وللتراث. .؟ هل هى «الروح الفرعونية» التى كانت قائمة على «التحنيط» بما فيه من رغبة فى الإبقاء على الموتى ليبقوا، ويغالبوا الزمن، ويحضروا ـ بأجسادهم الميتة المحنطة ـ فى زمن غير زمانهم. . هل هى نزعة طبيعية لتقديس الماضى مهما تكن قيمته. . أم هى فقدان الوعى بشكل عام وعدم تعمق الروح العلمية بشكل خاص؟

ولماذا نختص نحن ـ دون سائر الشعوب ـ بهذه الخاصية، بينما ترى الأمر فى العالم المتقدم مختلفا، فعندهم فرق واضح بين «الأمس» و «اليوم» و «الغد» ولذلك تجد من تعبيراتهم الشائعة «غدا يوم آخر» وتجد عندنا معنى مستقرا بأن الغد هو اليوم وهو الأمس، ونحن نعيش محملين بكل ما فى الماضى من أفكار لم تعد صالحة، ونظريات ثبت بطلانها وخطؤها، هناك يقومون بعملية «جرد» مستمرة للإستغناء عما يثبت عدم صحته أو عدم جدواه، ولا يبقون من «الماضى» إلا ما يصلح للحاضر. . لا يمكن الإستغناء عن الماضى كله بالطبع. . ولكن أيضا لا يمكن الإحتفاظ به كله. . هناك شعوب تجدد نفسها. . تراجع ما لديها، تستغنى وتضيف. . تحتفظ بشكسبير

حيا ولكنه يظل فى خانة «الماضى»، وتدرس نيوتن ولكن لتتجاوزه وتضيف وتغير فى نظرياته، وتبقى أفكار هيجل وكانط وديكارت ولكن يتم طرحها بشكل جديد ولذلك كله يظهر عندهم مئات من المبدعين الأدباء والفنانين والفلاسفة الجدد ليقولوا كلمتهم هم، ويسمعوا العالم صوتهم هم، إنهم يفرقون بوضوح بين أحياء من «الماضى» لن يعودوا وأحياء من «الحاضر» هم الذين يعبرون عن العصر..

لماذا نحن ـ دون سائر الشعوب ـ يمثل التمسك بالماضى عندنا ظاهرة شديدة التعقيد، إلى حد المصادرة على الجديد ومعاداته، وعدم الرغبة ـ وأيضا عدم القدرة ـ فى التفكير فى المستقبل والإعداد له، ونحن نعرف أن هذه الروح لابد أن تؤدى بإستمرارها إلى فقدان الرغبة فى البحث عن المجهول، وإقتحام آفاق جديدة، وتصل فى النهاية إلى إحباط أعظم طاقات الأمة، وهم الشباب.

طبعا لابد من دراسة الماضى، والإهتمام بالتراث، لأن الماضى جزء منا، يسرى فينا، ولكن ليس كل الماضى، وليس الماضى وحده هو الذى يصنع حياتنا، وهذه هى المعادلة التى وجدت لها الشعوب المتقدمة حلا منذ قرون، ولم نجده نحن حتى الآن.. ولم نصل إلى صيغة تجعلنا نحتفظ من القديم بأفضل مافيه بمعيار صلاحيته للحاضر، دون أن يكون حرصنا على القديم دافعا لرفض التجديد، وإنتقاصا من حق الأجيال الجديدة فى أن تصوغ مشروع حياتها ومستقبلها بنفسها، بأشخاص يعبرون عن كل مرحلة جديدة، وبأفكار

تمثل بوصلة الطريق نحو المستقبل، وبطموحات لا تهاجر من الحاضر إلى الماضى، ولا تدير ظهرها للمستقبل لمجرد أنه لم يأت بعد.

هذه الحالة العقلية ـ الإجتماعية المعقدة تقودنا أيضا إلى دور ومسئولية موسسات بناء العقول والإتجاهات والقيم لكن العقبة أن هذه المؤسسات وعلى رأسها المؤسسة التعليمية، والمؤسسة الإعلامية، والمؤسسة الثقافية، بعيدة ـ للحق ـ كل البعد عن إدراك هذه المسئولية، بل إنها تكرس وتعمق تقديس كل ما هو ماض ومعاداة كل ما هو مستقبل، إلا فيما ندر، ويكفى أن ربع الشعب المصرى هو الآن مدرج فى سلك التعليم فى المدارس والجامعات. وسيكون من بينهم السياسيون، والقادة. والعلماء، والقضاة، والمفكرون، والفنانون، وسيتولون قيادة البلد فى المستقبل شئنا أو لم نشأ ـ لأن لكل أجل كتاب ـ وسواء أعددناهم لذلك أو لم نعدهم، فكيف سيكون الحال وقادة المستقبل يعيشون بعقول وأفكار وثقافة تمجد الماضى، وتعمق فى داخلهم الخوف من إرتياد المجهول، حرمناهم شجاعة البحث عما هو غير مألوف.

كيف سيكون حال بلد فى مستقبل سوف يأتى حتما ، ولن نكون نحن فيه ولكن سيكون فيه أبناؤنا، وهم أغلى ما لدينا، دون أن نعدهم لهذا المستقبل بعلومه وثقافته ومناهج تفكيره والقيم التى تتناسب معه..؟

هل فكرنا فى ذلك وأعددنا له، هل سندع المستقبل فى مهب الريح تفعل به المصادفة ما تشاء:

ليس هذا كلاما فى الفلسفة، ولكنه كلام فى بناء الحياة، وبحث فى أسباب التخلف والتقدم، ورفض لإستمرار التجمد.. ودعوة إلى الحياة المتجددة.. وإلقاء ما هو محنط مسلوب الفاعلية وفاقد لعناصر الحياة.. هو فى النهاية دعوة لإستعادة الوعى المفقود الذى بغيره لن نكون بشرا.. ولن تكون حياتنا حياة!

هل نتعلم من التاريخ؟ [١]

إهتم المثقفون العرب إهتماما مبالغا فيه بنظرية فوكوياما عن «نهاية التاريخ» وصوروها كما لو كانت نظرية جديدة لفهم الكون وحركة الحياة يمكن أن تحل محل المادية الجدلية التى إنهارت مع إنهيار النظرية الماركسية. وفوكوياما ـ الباحث الأمريكى من أصل يابانى والذى عمل لفترة قريبا من السلطة الأمريكية ـ لم يفعل إلا أن إستخدم النظرية المادية الجدلية ذاتها ووفقا لمنطقها، ثم استنتج منها نتيجة عكس ما توصلت إليه.

فلقد كان الفيلسوف الألمانى هيجل هو أول من قال أن هناك جدلا فى التاريخ وفى الفكر، بحيث يظهر لكل فكرة نقيضها، ومن الفكرة ونقيضها يتكون «مركب» لا يلبث أن يظهر له نقيض جديد، ومن خلال الجدل والصراع بينهما يظهر «مركب» جديد.. وهكذا يستمر الجدل بين كل فكرة ونقيضها، أما فى التاريخ فإن كل نظام يظهر ينشأ

معه نقيضه وينتهى الصراع بينهما بإنشاق نظام جديد، ويستمر جدل التاريخ على هذا النحو. لكن هيجل وصل إلى أن هذا الجدل ينتهى عند «الدولة البروسية» بإعتبارها قمة الإكتمال، وليس بعدها للتاريخ حركة، ولا للبشر مطلب فى الإصلاح أو الإضافة. ولم يفعل ماركس وإنجلز إلا أن أخذا منطق هيجل وطبقاه على المجتمعات، وتصورا أن جدل التاريخ سوف ينتهى بإنتصار الدولة الشيوعية وسيادتها للعالم، ثم جاء فوكوياما فقال أن الصراع بين «الإتحاد السوفيتى» ونقيضه «الولايات المتحدة» قد إنتهى أخيرا ـ بعد سلسلة الصراعات التى عاشتها المجتمعات البشرية ـ بهزيمة الإتحاد السوفيتى وإنتصار الولايات المتحدة، وبذلك يكون الجدل، أو الصراع، قد وصل إلى آخر مداه، وتكون هذه المرحلة هى نهاية التاريخ.

لم تكن هذه الفكرة تستحق كل هذه المبالغة فى تصوير فوكوياما على أنه فيلسوف العصر، وإعتبار ما قاله نظرية جديدة فى تفسير التاريخ الإنسانى، وهى على أى حال لم تلق فى الولايات المتحدة ذاتها كل هذا الإهتمام الذى لقيته لدى الكتاب المصريين والعرب، لأن تصور أن للتاريخ نهاية هو فى ذاته تصور ساذج، فإذا كانت الولايات المتحدة قد أصبحت لها قيادة العالم اليوم، فإن إنتصارها ـ بالتأكيد ـ مؤقت بمقياس التاريخ، وهناك إرهاصات ظهور قوى جديدة أمامها، لن تكون الماركسية أو الإتحاد السوفيتى، ولكنها ستكون قوى أخرى لديها من القوة الإقتصادية والسياسية والثقافية ما يجعلها تنازع أمريكا على قيادة العالم. وقد ندخل عصر تعدد القوى الكبرى، أو ندخل عصر صعود قوة أخرى غير أمريكا..

المسألة رهن بعوامل يتوقف مستقبل الولايات المتحدة ـ والعالم ـ عليها. وفهم هذه العوامل لا يهم القوى الكبرى وحدها، بل يهم الدول الصغيرة أيضا، ونحن منها، لكى تحدد مكانها ودورها على خريطة العالم الجديد، الذى يتشكل الآن ولم يستكمل صورته الأخيرة، ولكى نلحق ـ مع أمثالنا ـ بما تبقى من فرص قبل أن تتحول هذه الدول الصغرى إلى شظايا تابعة خافتة الصوت مسلوبة الإرادة، فإن أول واجباتنا أن نتعلم درس التاريخ الماثل أمام عيوننا حيا، ساخنا، يقطر دما، وهو أن بعض المجتمعات تصاب فى فترة من فترات حياتها بالركود، فتعيش فى الحاضر على نفس الأفكار والأهداف والقضايا التى عاشت عليها فى الماضى، دون أن تدرك أن تغير الزمن والظروف يقضى بمراجعة كل ما لديها وإعادة التفكير فيه. وقد يستمر «الركود» إلى أن يصل إلى درجة «الجمود»، فتستسلم هذه المجتمعات لما توارثته وتحرص على الإبقاء عليه كما هو دون تغيير، بينما كل شئ فى العالم يتغير.. العلم يتغير.. ومسلمات العقل والمنطق تتغير.. وأبنية المجتمعات المتقدمة ذاتها تتغير.. والأفكار والثقافات تتغير.. بينما تبقى المجتمعات المتخلفة الراكدة فى الركود والجمود، بل وترى فى التغيير نوعا من الكفر.. أو الخيانة.. وفى هذه الحالة تنعدم الرؤية للمستقبل، وتختفى التصورات لما يمكن أن تصير إليه الأمور، ويفقد المجتمع ما يسمونه «الحلم القومى» أو «المشروع القومى» أو الرغبة القومية العامة فى النهوض، وفى التاريخ أمثلة كثيرة لمثل هذه المجتمعات، قد يكون آخرها الدولة العثمانية ثم ها هو الإتحاد السوفيتى ينهار أمام عيوننا الآن.

لأن الدولة العثمانية وصلت إلى المرحلة التي تصورت فيها أن لا حاجة بها إلى التغيير فتجمدت وإنهارت، ولأن الإتحاد السوفيتى لم يدرك وفى الوقت المناسب أن عليه أن يستجيب لدواعى التغيير، ويجدد نفسه، وظل مثلا أعلى للمجتمعات الراكدة ـ فكرا وإقتصادا وسياسة وعقيدة ـ ورفض التغيير والتجدد، وإكتفى بأن يمضع شعارات زائفة بأنه طليعة التقدمية فى العالم، وعميت بصيرته عن إدراك أن التمنيات والأوهام والشعارات لا تغير الواقع.

ولأن المجتمعات نوعان: نوع مثل البحيرة الراكدة، تصبح مياهها أسنة، ونوع كالنهر المتجدد يحمل عوامل النمو والإزدهار، والقانون الحاكم على الجميع هو أن المجتمع الذى لا يتزايد بقواه فإنه يتناقص، والذى لا يتقدم يتأخر، والذى لا يحقق إنتصارات كل يوم يصاب بهزائم قاتلة، والذى لا يعمل للمستقبل لن يكون له مكان فى المستقبل.. وهذه كلها شروح على قانون واحد للحياة هو: التغيير والتجدد أو الفناء.

والوجه الأخر لهذه الحقيقة نراه فيما يحدث فى الولايات المتحدة الآن، وهى فى المركز الأول ـ ما تزال ـ اقتصاديا، وعسكريا، وسياسيا، وعلميا، ولكنها ـ بيقظة الكيان الحى وذكاء الكائن المتفوق ـ بدأت منذ سنوات ـ على مستوى الفكر ـ فى البحث عن عوامل الضعف وعوامل القوة فيها، تخطط لإتجاه التغيير لتجديد المجتمع تجديدا شاملا يتفق مع العصر الجديد الذى إختفى فيه الإتحاد السوفيتى دون أن يعنى ذلك نهاية التاريخ، بل يعنى بداية حلقة

جديدة من التاريخ، إذا لم تعمل لها الولايات المتحدة بكل قوة للإحتفاظ بنصرها فقد تدفع الثمن المحتوم الذى يدفعه كل مجتمع يتحول إلى بركة الجمود، ويستسلم لأوهام القوة، أو التصور بأنه فى أحسن حال، وأنه ليس هناك مزيد لمستزيد!

ولم يكن تخلى الشعب الأمريكى عن بوش وصعود كلينتون إلى السلطة إلا لأن كلينتون كان إستجابة لقانون التاريخ وضروراته. أعلن أن سياسته «تغيير أمريكا»، وحدد موقفا جديدا لم يدركه بوش: «أننى أرفض أن أكون جزءا من جيل يحتفل بموت الشيوعية فى الخارج على حساب ضياع الحلم الأمريكى فى الداخل، وأرفض أن أكون جزءا من جيل أخفق فى التنافس فى مجال الإقتصاد العالمى، وأرفض أن أقف موقف المتفرج وأدع أطفالنا يصبحون جزءا من أول جيل يكون أسوأ حالا من آبائه، ولا أريد لإبنى، أو لأبنائكم، أن يكونوا فى بلد فى سبيله إلى التفكك» . .

والغريب أن الإتحاد السوفيتى هو الذى كان يعتنق الفلسفة المادية الجدلية، وكان الدرس الأول فيها لكل طفل فيه هو أن كل شئ يتغير، وأن التغيرات الكمية تتراكم، وعند نقطة معينة تتحول إلى تغير كيفى، فالماء يسخن بالحرارة، وتظل سخونته تزداد درجة بعد درجة وعند نقطة معينة يتحول إلى شئ آخر هو البخار. . وكذلك الإنسان والمجتمع. . لكن الإتحاد السوفيتى لم يستوعب الدرس الذى كان يعلمه لأطفاله، وإستوعبته أمريكا. . ولابد أن نستوعبه نحن أيضا. .

هل نتعلم من التاريخ ؟ [٢]

منذ دخل العالم العربى عصر الظلام، وتجمدت حركته عند معطيات القرون الوسطى ـ فقد الوعى بالتاريخ وبحركته، فلم يعد التاريخ عنده سعيا إنسانيا للتقدم، ولكنه أصبح تجميدا لعصور مزدهرة أصبحت فى الماضى. . وإستسلاما لما تأتى به الأحداث، التى يفرضها بالضرورة الأقوياء فى هذا العالم، وكأنها قدر مقدور لا مهرب منه ولا مفر، ومن المؤلم أن العرب ـ قد تحولوا مع استمرار هذا الموقف ـ سيكولوجيا وفكريا ـ إلى حالة يسميها علماء النفس «عدم القدرة على التوافق» مع التغيرات والمشكلات وما يستلزمه التطور من مجهود فى تعلم أساليب جديدة فى التفكير والسلوك. .

ولعل ذلك ما يفسر لماذا أصبح العرب أعظم أمة متفرغة لدراسة ماضيها، والحياة فيه. . والأمة الوحيدة التى يتمثل حلمها القومى فى أن يعود الزمان قرونا إلى الوراء.

التاريخ فى الوعى العربى له دور عكس دوره الحقيقى . . فالتاريخ رصيد ثروة حضارية وفكرية وإنسانية . . لكنه ماض . . يسرى فينا ، لكنه لن يعود . . يلهمنا ، ولكن لا يحكمنا . . يتخذ منه الفرد والشعب العاقل دروسا تعينه على بناء واقع ومستقبل أفضل ، أما دوره عند العرب فهو سجن للعقل والروح ، وقيد على تحسين نوعية الحياة ، وأغلال تعوق إنطلاق وتجدد الأفكار . . حتى أصبح ينطبق على العرب مثال «أهل الكهف» الذى ضربه الفيلسوف اليونانى أفلاطون ، حيث صور قوما يعيشون فى كهف مظلم فى عزلة عما يحدث خارجه ، ويظنون أن هذا الكهف والظلام هو كل ما فى الوجود ، وحين تتراءى لهم من خلال شقوق الكهف خيالات تتحرك وومضات أضواء بعيدة يظنون أن هذه الأشباح الغامضة هى كل ما فى الكون من حقائق ، ويتصورون أن علمهم بها وصل إلى الكمال ولا يحتاج إلى مزيد . بينما هناك ، خارج الكهف أنوار مبهرة ، وحقائق قائمة وحركة متصلة يتعامل معها فقط من يعيشون خارج الكهف المظلم . . فالناس نوعان : ناس غارقون فى الظلام سعداء بجهلهم وأوهامهم ، هم فى الحقيقة «لعبة التاريخ» وأناس عائشون فى الحقيقة يناضلون لتحسين حياتهم ، بالعلم ، والعقل . وبالتفاعل مع المتغيرات . وهؤلاء هم صناع التاريخ . . لا يغير من ذلك أن الأولين راضون بالظلام والجهل الذى يعيشون فيه .

وقد نجد التفسير لهذه الحالة عند علماء النفس حين يقولون أن الإنسان ـ فردا أو جماعة ـ حين يواجه مشاكل كبرى لم يتعود عليها ـ مثل التعامل مع التكنولوجيا الحديثة ، وعفاريت الليزر ـ وشياطين

الهندسة الوراثية، وأوهام الإنتقال من الأرض إلى الكواكب ومحطات الفضاء ذهابا وإيابا، فإنه في هذه الحالة يسلك طريقا من إثنين. إما أن يتكيف مع هذه التطورات ويتعلم هذه العلوم الجديدة ويشارك فيها، وإما أن يعجز عن ذلك فيستجيب لهذه التحديات بطرق ملتوية، أو عقيمة، أو شاذة، فيظهر سلوك الغضب، أو العدوان، أو الإنسحاب والإستسلام والإنطواء على الذات، أو الإسترسال فى أحلام اليقظة. أو بتقديم الأعذار للنفس وللآخرين ـ عن الفشل وإستدرار العطف على الحال..

ولقد كان أستاذنا عالم النفس الراحل الدكتور أحمد عزت راجح حين يحدثنا فى الخمسينات عن «مشاكل التوافق» يقول لنا: تأمل حالة طفل انتزعت منه لعبته تراه يحاول استردادها بإمساكها وجذبها، فإن لم يفلح قد يضرب المغتصب، أو يهدده بالإستيلاء على بعض ما يخصه وقد يترك الميدان وينسحب. وقد يكتفى بالصياح والصراخ، فإن أخفقت كل هذه المحاولات فقد يستسلم، أو يجمد، أو يظل مظهرا السخط. ولو طبقنا ذلك على حالة العالم العربى فسوف نرى كيف استجاب لعملية «العدوان» المتكرر التى تعرض لها فى فترة من فترات التاريخ، ففقد القدرة على التوافق السليم، سواء مع نفسه، أو مع العالم.

لقد تعرض العالم العربى لأكثر من محنة كانت تقتضى اليقظة والحركة والنضال.. ابتداء من غزو التتار، إلى غزو الصليبيين، إلى

غرو الإستعمار الحديث، إلى غزو الصهيونية، ثم إلى غزو الإستعمار الجديد، واستنهض همته فى الإتجاه الصحيح فى مواجهة التتار والصليبيين، لكنه استسلم بعد ذلك. وحين تراءت له من خلال شقوق الكهف الذى عاش فيه قرونا خيالات من عصر النهضة الأوروبية، والثورة الصناعية الأولى «عصر البخار» والثورة الصناعية الثانية «الذرة» ثم تفجر العلوم والتكنولوجيا، ليصبح من يمتلك العلم يمتلك القوة فى عالم القرن العشرين. . اكتفى العالم العربى بأن يتلقى ما أنتجته التكنولوجيا الغربية ليستخدمها ظنا أنه أصبح بذلك يعيش عصره، بينما هو فى الحقيقة يزداد تخلفا عنه، فليس الذى يعيش فى العصر هو من يستخدم التليفزيون والسيارة والكمبيوتر والقمر الصناعى وأجهزة الليزر، ولكنه الذى يبتكر، ويخترع، ويصنع كل هذا. .

وفى الوقت الذى تحولت فيه أوروبا وأمريكا واليابان إلى بيئة مشجعة على التقدم والتعلم والإبتكار، وأيضا بيئة للتفتح العقلى ومراجعة كل ما لديها من أفكار وموروثات بحرية عقلية، تحول العالم العربى إلى بيئة للتزمت، مليئة بالقيود على الفكر والعقل. معادية للتجديد، رافضة للإبداع، ومتهمة كل من يجرؤ على تقديم فكرة جديدة ليست فى كتب القرون الوسطى بالمروق والعصيان. وكان طبيعيا أن يؤدى ذلك إلى تعقد الحياة النفسية للطليعة المفكرة المبتكرة، فلم تجد أمامها إلا سلوك طريق من اثنين: إما الإستسلام على طريقة «قنديل أم هاشم» لكاتبنا يحى حقى، وإما الهروب إلى العالم الذى

يقدر قيمة الفكر والإبداع لتصبح ظاهرة «هجرة العقول» وبالا على العالم العربى، تحرمه من صفوة ما ينجبه من الكفاءات العلمية والعقلية ليسهموا فى تقدم الحضارة الغربية بدلا من أن يشاركوا فى صنع حضارة عربية جديدة. ولعل ذلك يفسر لنا سر الصراعات الكثيرة التى يموج بها العالم العربى - وهى صراعات أقلها ظاهر وأكثرها يغلى فى الخفاء، وساعد على تعميقها وقوف السلطة - أحيانا - عائقا أمام إرادة التقدم، وإنتشار ثقافة اليأس وتعميق الشعور بالنقص، واصطدام الأفراد - والجماعات - حين يتحركون للتعبير عن أنفسهم بوسائل للإساءة إليهم والنيل من كرامتهم، وحرمان الشباب من إثبات ذاته بوسائل مشروعة، ثم وجود سلطات تسبب الأزمات مع شعوبها.

كل ذلك يحدث فى العالم العربى بينما تعيش شعوب العالم على مرمى البصر فى مناخ مختلف، تبحث فيه عن كيفية تحقيق مزيد من الحرية والكرامة والعدالة الإجتماعية لكل فرد، وعن مزيد من التقدم العلمى والفكرى والتكنولوجى، وتشجيع الشباب على العمل والعطاء والتفكير وتحمل مسئوليات القيادة.

أليس حديث أهل الكهف صادقا إذا لاحظنا كيف يظهر الخطاب العربى - الرسمى والشعبى - الرضا عما هو كائن وإستثارة الحنين إلى الماضى لنذير ظهورنا رافضين العلم والعقل ونكتفى بالخيالات والأوهام التى تتراءى لنا من ظلام الكهف الذى نعيش فيه، بينما نرى خطابا يتردد فى أقوى وأغنى دولة فى العالم - أمريكا - يتحدث عن

«بداية جديدة لأمريكا» والبحث عن «طريق جديد لمواجهة تحديات بداية القرن المقبل» وعن تهيئة الشعب الأمريكي - لتحمل المزيد من المسئولية فى حياته الخاصة، ومجابهة مشكلات جديدة إبتداء من الأيدز وحتى البيئة، وتحقيق تحول من إقتصاد دفاعى إلى إقتصاد محلى عملاق.. وليكون لكل فرد قيمته، ويكون كل فرد جزءا من العائلة الأمريكية. وليكون للعامل البسيط والمدرس، والممرضة، وموظف الأرشيف من السلطة وممارسة الديمقراطية مثل ما للرئيس وللملياردير وللحاكم.. فلقد تحدثوا جميعا بأصوات متساوية مطالبين بالتغيير ولابد من العمل على تحقيقه.. وليس المثال من أمريكا إلا لأن البعض أصبح لا يحب غيرها بينما يحدث ذلك فى العالم المتقدم كله، لأنه لا حياة بغير تجدد.

«هم» يرون التاريخ قطارا يتحرك من الماضى إلى المستقبل، و «نحن» لا نرى التاريخ إلا على أنه الماضى ولا شئ بعد ذلك.. أى أن قطار التاريخ عندنا واقف عند محطة واحدة لايغادرها.. والركاب أنفسهم لم يصلوا إلى درجة من الوعى تجعلهم يدركون حتمية التحرك وخطورة الجمود. ترى كم ألفا من السنين سنحتاجها لنتعلم أن المستقبل هو التاريخ الذى يجب أن نعمل بكل طاقاتنا من أجله ليكون مشرفا لنا ولأبنائنا.. بدلا من البكاء على أطلال الماضى أو الوقوف عند الماضى فى محاولة يائسة لاستعادته.. محاولة لايسعى إليها العقلاء، لأن مامضى لايعود.. والأمس لايمكن أن يتكرر.. والرجال والأفكار لايمكن استعادتهم كما كانوا بعد أن رحلوا عن

العالم. . فقط يمكن أن يصبحوا مصابيح تنير طريقنا ونحن نسير إلى المستقبل. . ويمكن أن يكونوا مثلاً تلهمنا وترشدنا. . لابد أن نستعيد الإدراك ونفهم أن الماضى صنعته أجيال غيرنا وأن الحاضر والمستقبل يمكن أن يكونا من صنعنا ومسئوليتنا.

تاريخ ليس للبيع

مع اقتراب كل عيد لذكرى قيام ثورة ٢٣ يوليو، ومع الإنفتاح الديمقراطى وحرية القول وهى أهم ما يميز هذه المرحلة، تبدو فى الآفاق محاولات ليست جديدة، ولكنها تتجدد وتزداد الحاحا، لتشويه هذه الثورة ورجالها بأحكام عامة، وروايات مرسلة غير موثقة، وأحكام مبتسرة ومغرضة فى معظم الأحوال.

قد نرى أن ذلك ليس شيئا غريبا، لأن ثورة فى مثل أهمية ثورة ٢٣ يوليو لابد أن يعقبها تيار مضاد يقوده أعداؤها الذين أخرست الثورة ألسنتهم لفترة، وظنوا أن الفرصة واتتهم لتصفية حساباتهم معها، والأخذ بثأرهم منها. والنتيجة أننا نجد أنفسنا أمام ركام هائل من الكتب والمقالات والشهادات والحكايات لا نستطيع أن نعرف أيها الصادق وأيها الكاذب، وينعكس ذلك على الشباب بشعور الحيرة.

ولعل ذلك سبب من أسباب القلق الذى يعانيه شبابنا، لأنه وجد نفسه فجأة أمام طوفان من الحقائق والأكاذيب لا يستطيع أن يميز بينها، ولكنها بإستمرار تدفقها جعلت كثيرا من المبادئ والمسلمات تهتز.

وتبدو أهمية المسألة أكثر كلما أدركنا إلى أى مدى تؤثر علاقتنا بالماضى بسلوكنا وتعاملنا مع الحاضر وبالجهد الذى يمكن أن نبذله ـ أو نضن به ـ من أجل المستقبل.

حقيقة أولى: أن التاريخ ليس فرارا من الحاضر إلى الماضى، وليس حكايات تنتمى إلى وقت مضى نرددها لتزجية أوقات الفراغ، ولكن بالعكس، فالتاريخ زاد بالغ الأهمية لإثراء الحاضر وترشيد خطاه، الماضى حى دائما فى الحاضر وفعال فيه. والماضى دائما جزء هام من عقلنا ومحرك لسلوكنا ومؤثر فى أفكارنا..

حقيقة ثانية: أن التاريخ ليس فن حبك الأكاذيب أو تضليل العقول، ولكنه فى الأساس معرفة بالحقيقة بعد إخضاعها لمناهج نقدية دقيقة تنأى بالتاريخ عن أن يكون العوبة فى يد كل من يمسك قلما، أو يعتلى منبرا للقول أو الكتابة.

حقيقة ثالثة: أن الروايات الكاذبة وغير الموثقة ليست فقط تشويها للماضى، أو طمسا للحقيقة، ولكنها أجزاء من مؤامرة للتضليل، وإفساد للماضى، بقصد إفساد الحاضر والمستقبل معا.

وكثير مما ينشر ويقال الآن عن ثورة ٢٣ يوليو بإنتصاراتها وهزائمها ورجالها ليس تاريخا، ولكنه إفراز لأحقاد شخصية أو محاولة لبيع تاريخ مصر فى حقبة هامة تحولت فيها الأحداث تحولا جذريا.. لمن يدفع الثمن. وهناك دائما من هو مستعد لأن يدفع كثيرا من أجل هذا الهدف. وهو ثمن بخس مهما بلغ، وليس أكثر ما يقال فى هذه الأيام تاريخا. فالمؤرخ إنما ينهج نهج العلماء، يبدأ عمله بجمع الوقائع، وفى مرحلة لاحقة يقوم بفحصها واحدة واحدة باحثا عن عللها التى جعلتها على هذا النحو دون نحو آخر، ملتزما حدود الموضوعية، متحررا من التحيز الشخصى أو العقائدى أو الطبقى، متجردا من مشاعر الحب والكراهية، مستبعدا الخيال من أن ينسج الأحداث على غير حقيقتها. ومن البديهيات المعروفة أن تحليل شخصية كل رواية لوقائع تاريخية بداية لابد منها لتحديد قيمة وجدوى رواياتهم ونقد الرواة، والتعرف إلى دوافعهم وتحيزاتهم مسألة غاية فى الأهمية قبل تكذيب أو تصديق رواياتهم.

ثم إن هناك فارقا كبيرا بين رواية أحداث ودراسة تاريخ.. الأحداث مهما تكن أهميتها أو صحتها ليست إلا مجرد نقاط متناثرة مشتتة، لا تكتسب قيمتها الحقيقية إلا فى السياق الزمنى العام. فى التحرك من الماضى إلى المستقبل.

ولذلك فإن الذين يريدوننا أن نعيش مع القصص المثيرة وشظايا الأحداث هم فى الحقيقة يريدون أن يحجبوا عنا رؤية المسار الحقيقى

للتاريخ وبعضهم يريد أن يزيف بذكاء ـ وعن عمد ـ الوعى القومى. وفوق ذلك فأكثر الكتب والأحاديث الصحفية والمقالات التى تدعى أنها تتضمن وقائع أو شهادات واقعية.عن أحداث الثورة ورجالها لم تخضع حتى الآن للفحص العلمى الدقيق، الذى يستبعد ويستبقى بحسب الشروط المستقرة فى منهج الدراسة التاريخية. ولذلك فإن بعض الحكايات المثيرة التى تروى عما جرى فى سنوات الثورة ليست إلا أقوالا مرسلة تحتمل الصدق والكذب، ولن يستطيع تقويمها إلا من يعرف رواتها ودوافعهم الخفية والظاهرة، ويعلم أحقادهم وأطماعهم وحوافزهم للقول أو الإدعاء وهذا شئ بالغ الأهمية.

هناك فارق بين ما يريده بعض أصحاب هذه الكتابات والشهادات وما يريده المصريون والشباب بصفة خاصة. بعض أصحاب هذه الشهادات والحكايات يريدون تلوين رؤيتنا للأحداث والشخصيات، ويلحون على ذلك ويضغطون بكل صور الضغط والإكراه المعنوى.. وبعضهم يريد إغتيال المستقبل بذكاء لأنهم يدركون أن المستقبل لابد أن يتأثر بالماضى، وأن نهر التاريخ لا يمكن قطعه ثم بدؤه من جديد.. فيهم من يركز على «فظائع» ثورة يوليو.. حكمت على «برئ»، بالسجن، أو عذبت معتقلين! ولا أحد يريد أو يستطيع أن يدافع عن ظلم أو إنحراف ولكن «الحقيقة» لا نصل إليها بأن يصدر أصحاب الدعوى الأحكام لأنفسهم بالبراءة، وهذا شئ لم يعرفه «العدل» فى أى عصر من العصور.

وليس جديدا أن يقال أن ثورة ٢٣ يوليو كانت لها أخطاؤها وكل ثورة كانت لها أخطاؤها. . . الثورة الفرنسية قتلت عشرات الآلاف من الأبرياء. وكانت المقصلة تعمل فى الرقاب دون تمييز. . ولم يبق منها إلا أنها ثورة الحرية والإخاء والمساواة. . الثورة الروسية أخطأت كثيرا جدا. كل ثورة لها أخطاء ولكن المهم أن توضع أخطاء كل ثورة فى كفة، والحسنات فى كفة أخرى من الميزان، دون أن تنتقص السيئات من الحسنات، لأن السيئات ـ فى كل الأحوال ـ لا يذهبن الحسنات، وحكم الله أن العكس هو الصحيح. . كفة السيئات فيها المعتقلات وعدم تحقيق الديمقراطية السليمة، وكفة الحسنات فيها أن هذه الثورة غيرت التركيبة الإجتماعية، وغيرت المفاهيم والقيم السائدة وغيرت قيمة مصر فى المنطقة وفى العالم. . وأعطت ملايين المحرومين من أبناء الفقراء فرصة التعليم والعلاج. والعمل وأنظروا إلى من يتصدرون القيادة فى الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية وقيادة العمل الحكومى والصناعى والكوادر الفنية التكنولوجية. . هل كان يمكن أن يصل هؤلاء إلى هذه المواقع لو لم تقم الثورة. .؟ وتذكروا ما يقال عن تحويلات المصريين بالخارج ونبوغ العلماء والفنيين والكوادر المصرية فى كل مكان من أرجاء العالم. . أليس هؤلاء ثمار سياسة التعليم المجانى وفتح أبواب الجامعات لأبناء الفقراء وزيادة فرص التفوق والتوسع فى البعثات والدراسات العليا. . وهى سياسة لم تبدأ إلا مع ثورة ٢٣ يوليو. . !

ليس المجال الآن حصر إنجازات وتجاوزات ثورة ٢٣ يوليو ولكن المهم أن ننبه إلى خطورة بعض ما يجرى على عقول الشباب وتوجيهه. ولا نطالب بإيقاف نشر أو منع أحد من القول، فحرية القول، وحتى حرية الكذب مكفولة، وهذه هى الديمقراطية، وعلينا أن نتحمل الديمقراطية بحلوها ومرها.. لا نجادل فى حق كل من يريد أن يقدم شهادته صدقا كانت أو كذبا. ولكننا نطالب بأن ترتفع أصوات تنبه الشباب إلى حقيقة أن هؤلاء لا يكتبون التاريخ، ولكنهم يقولون ما يريدون.. بعضهم يقول حقائق، وبعضهم ينفث سما، والتاريخ لن يقبل من أحد شهادة إلا فى حدود دوره وقيمته.. وهل يتصور مثلا قول شهادات الخدم ومن كانوا فى حكمهم عن وقائع تدخل فى نطاق السياسة العليا للدولة، أو قبول شهادة موتور أو واحد ممن ينتمون إلى.. أعداء الثورة ـ بحكم الوضع السياسى الإجتماعى..؟

لقد أتيحت الفرصة كاملة لأصحاب الهوى وأصحاب الغرض، ولكل من فى نفسه مرض، ولكل من يريد أن يصفى حساباته مع الثورة، ولكل من أراد أن يخلع عليها ما فى نفسه من حقد، ولا إعتراض على شئ من ذلك. فنحن فى عصر حريات، ونحن فى مرحلة ما قبل كتابة التاريخ الصحيح للثورة.. وبعد أن تنتهى هذه المرحلة ـ ولابد أن تنتهى بطبيعة الحال ـ تأتى مرحلة يتم فيها فحص وتمحيص هذا الكوم الكبير وفقا لمنهج علمى وموضوعى وبروح الحياد والإنصاف، بحيث يذهب الزبد جفاء، ويبقى ما ينفع. وإذا

كان هناك من هو مستعد لأن يدفع الكثير ثمنا لتشويه تاريخ الثورة وتزييف الوعى القومى، فإن هناك حقيقة تصدق فى كل زمان هى: أن تاريخ الأمم ليس للبيع . . وأن كل شئ وكل إنسان ـ طال الوقت أو قصر ـ سوف يصبح فى حجمه الحقيقى، ولن يكون الأقزام عمالقة أبدا مهما حاولوا إسدال ستار على العمالقة الحقيقيين.

مصالحة مع الماضى..!

فى مسرحية شكسبير الشهيرة «هاملت» تصوير دقيق لحالة التمزق النفسى والتصدع المدمر التى تصيب شابا إكتشف فجأة أن أمه ـ وهى بطبيعة الأمومة والبنوةمصدر الأمان والفخر فى نفسه كما هى فى نفس كل شاب ـ لم تكن إلا خائنة.. وتدور المسرحية حول الحيرة والتردد النفسى والقلق ثم انفصام الشخصية، ثم فقدان الثقة فى كل شىء وكل إنسان بعد ذلك.. هذا النموذج الإنسانى المجسم يصلح مدخلا يفيدنا فى فهم الحالة التى يعانى منها كثير من الشباب المصرى وانتهت بجزء منه إلى سلوك غير سوى تراوح بين السلبية وفقدان الانتماء من جانب، أو العدوان، تعبيرا عن الرغبة فى الانتقام لنفسه من الخديعة التى وقع فيها، من جانب آخر.

فخلال العشرين عاما الماضية، دأب عدد من السياسيين والكتاب

وسماسرة التاريخ على تشكيك الشباب المصرى فى كل عمل قامت به ثورة ٢٣ يوليو، وفى كل شخصية من قادتها، وخدموا بذلك جهات كثيرة - داخلية وخارجية - من صالحها قطع الصلة بين الحاضر والماضى.. لكى يضيع المستقبل «!» ويبدو انهم حصلوا على ما جعلهم يجتهدون فى مهمتهم حتى شوهوا تاريخ الثورة كله، ولطخوا سيرة أبنائها جميعا، وجعلوا الشباب يعتقد أنه كان ضحية خديعة كبرى حين ظن أنها كانت ثورة شعبية، أو أن قادتها كانوا أبطالا للوطنية، أو أن أعمالها كانت خالصة لوجه الوطن، وكان من الطبيعى نتيجة لذلك أن ينتقل الشباب من الشعور بالخديعة إلى الإحساس بان كل ما أتى ويأتى بعد ذلك، لن يكون إلا خداعا.. وتنقل الشباب بين الرفض للماضى والحاضر إلى الرغبة فى قطع الصلة بكل ما يتعلق به والسعى إلى إقامة بنيان جديد قائم على الإستقامة والطهارة يتفق مع تطلعات الشباب إلى المثل العليا، وطموحه إلى تحقيق النقاء والطهارة وسائر المثاليات الأخرى.. ومن هنا صار من السهل خداعه وانقياده لكل من يلوح له بمبادىء النقاء والطهارة، دون أن يرى ما قد يكون وراءها من مؤامرات لتخريب العقول ثم لتخريب الوطن.!

ووفقا للإحصائيات الرسمية، فإن نسبة الشباب الذين يبلغون من العمر ثلاثين عاما فأقل ٧٤٪ مما يعنى أن ثلاثة أرباع الشعب المصرى، لم يعايش أحداث الثورة، ولم يدرك بوعى حقائقها الكبرى، وحين يمارس هؤلاء الشباب حقهم فى معرفة تاريخ بلادهم فى هذه الفترة،

فانهم يقعون ضحية لمن ارتدوا مسوح المؤرخين، وادعوا الحياد والموضوعية، بينما تطفح أقوالهم بما في نفوسهم من حقد وتحامل وكراهية شخصية ورغبة فى الانتقام، وهذا يتعارض مع شروط صلاحية المؤرخ. . ابتداء من الدقة فى تحرى الحقيقة ثم الإعتداء على وثائق صحيحة ووقائع ثابتة، إلى تفسير الأحداث فى ضوء خصوصية الظروف التى أحاطت بها في وقتها وفى إطارها وملابساتها التى تختلف بكل تأكيد عن ملابسات الحاضر الآن. فليس هناك مؤرخ حقيقى يحكم على فرد أو واقعة إلا فى ضوء زمانها ومكانها، وليس وفقا لظروف عصره هو ومقاييسه فهى بالقطع مختلفة، والمؤرخ المنصف يعرف ان احداث التاريخ كانت نتاجا لعوامل شخصية وموضوعية فى زمان معين، فإذا اختلفت هذه العوامل، أو اختلف الزمان، فلابد أن تختلف الأحداث.

وكل ثورة من ثورات التاريخ الكبرى تعرضت لحملات شرسة من التشويه من جانب اعدائها. الداخليين والخارجيين. حين سنحت لهم الفرصة، وكان طبيعيا أن يحدث هذا ايضاً لثورة ٢٣ يوليو، ولكن مع فارق واحد، هو ان اعداء ثورة يوليو خلت لهم الساحة تقريبا، وظنوا أن الريح المواتية التى دفعت سفينة أكاذيبهم إلى بعيد جدا، سوف تظل مواتية، وانه فى زمن أصبح فيه كل شيء للبيع «حتى الضمائر والرجال» فان سماسرة التاريخ وتجار «الشنطة» الذين يجدون سوقا رائجة للوقائع الكاذبة والتفسيرات المغرضة، سوف يظلون فى حالة الانتعاش هذه إلى آخر المدى مستفيدين من صمت

واختفاء الذين يعرفون الحقائق، ووجود أغلبية من الجماهير لم تشهد ولم تعرف، وكان من أثر حملة التدمير للماضى بالكامل التى قاموا بها، ان اوصلوا الشباب إلى حالة لا نستطيع فهمها بدقة، إلا إذا عدنا إلى شخصية، «هاملت» الشاب الممزق الذى تقطعت صلاته بجذوره فوجد نفسه ضائعا فى مهب الريح.

ونتيجة للحملات الظالمة وغير الموضوعية التى انطلقت تهدم كل ما انجزته ثورة يوليو، وتقلل من أهمية إيجابياتها، وصل الشباب إلى ما يمكن أن نسميه «خصام مع الماضى» ورغبة فى الانفصال عنه، ولأن هذا الماضى بالذات يمثل جانبا عزيزا من حياة الوطن، فهو ملحمة النضال من أجل استقلال الإرادة وتأكيد الكرامة والسعى إلى العدالة، فإن معاداته لابد وأن تترك آثارها النفسية من القلق، والتوتر، والعدوان، وامتداد الشك إلى كل الماضى، ثم انسحابه على كل الحاضر، ثم فقدان الاحترام والاعتبار لجيل الآباء لأنهم يمثلون الخديعة [وفقا لجهود واجتهادات أعداء الثورة السائدة] وهم رموزها الحية والباقية.

من هنا تتأكد أهمية «المصالحة مع الماضى» واعادة الثقة فى ثورة يوليو باعتبارها ثورة قامت تعبيرا عن تطلعات الشعب فى إقامة نظام سياسى جديد يحقق الاستقلال والكرامة الوطنية من ناحية، والعدالة الاجتماعية من ناحية أخرى، فأخطات وأصابت، وحققت إيجابيات وسلبيات، وواجهت النجاح والفشل، وظهر فيها الزعماء الحقيقيون

والزائفون، وظلت تواجه أعتى التحديات على الصعيدين الداخلى والخارجى، ومازالت معاركها قائمة لبناء الوطن تحتاج إلى جهد الرجال.

ومن أجل إعادة التوازن والإتزان للشخصية المصرية، وبالذات بالنسبة للشباب فإننا نحتاج إلى «رد اعتبار» للثورة وقادتها. . لم تكن ـ ولم يكونوا ـ فى حاجة إليه بقدر ما أن الشباب المصرى فى حاجة إليه، لكى تتحقق المصالحة مع التاريخ ويلتئم الشرخ الذى اصاب نفوسهم أبلغ اصابة، وهدد قدرتهم على التوافق مع الحاضر ومسايرته، وأثر فى أهليتهم للتطلع والتعامل مع المستقبل، نتيجة العداء مع الماضى. . واتساع الفجوة وازمة الثقة بين أبناء هذا الجيل وجيل أبائهم. .

ومن هنا أيضا تأتى أهمية احتفال التليفزيون وأجهزة الإعلام المختلفة بهذه المناسبة دون أن يمتلىء الحديث عن الثورة بالغمز واللمز، كما حدث فى السنوات السابقة، ودون حذف مشاهد أو صورا أو وقائع، مما يمثل عدوانا على التاريخ، وتأتى كذلك جدوى الندوات التى عقدت، وأهمية الجهد العلمى الذى قام به مجموعة من أكبر أساتذة التاريخ فى مصر، الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى المجال العلمى وبتقدير الرأى العام فى دراساتهم القيمة التى ضمها كتاب أصدره مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، بعنوان «أربعون عاما على ثورة يوليو: دراسة تاريخية» يستحق قراءة دقيقة ووقفة متأملة، بالتحليل والدراسة.

اختلال العلاقة بالتاريخ

فى كل عام، وكلما جاء يوم ٢٣ يوليو، يتجدد الاهتمام بقضية التاريخ القومى بروح جديدة من الموضوعية، ليس لهدف انصاف شخصية تاريخية غيرت مسار الحياة فى وطنها وفيما حولها، مثل شخصية جمال عبد الناصر بماله وما عليه. ولكن الهدف الحقيقى أهم وأكبر، ويتعلق بالمستقبل أكثر مما يتعلق بالماضى.. ذلك أن هناك أجيالا لم تر عبد الناصر ولم تعش حرارة وضغوط الأحداث معه. وأكثر من نصف الشعب المصرى من الشباب أقل من ٢١ عاما، وأكثر من ٧٠٪ عمرهم أقل من ٤٠ عاما. ومن حق هؤلاء الذين لم يروا بعيونهم ولم يعايشوا بأنفسهم، أن يعرفوا، بعيدا عن المزايدات والمناقصات. حقائق ما جرى فى مصر ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وما بعدها.

ولا يمكن التهوين من أهمية هذا الموضوع أو ارجاؤه أكثر من ذلك، لأنه يتعلق بالكيان القومى، والهوية، وبالتئام أو انفصام الشخصية المصرية.. وبالمصالحة مع التاريخ أو الخصام معه.. فوق أنه يتعلق بالنظر إلى سنوات الماضى بغضب وازدراء أو بالفخر وبشعور بأن الخطوات التى تحققت يمكن استكمالها.. وان الأخطاء التى ارتكبت يمكن تصويبها.. ويكفى أن نرى المواطن فى أمريكا أو أوروبا يعرف حقائق تاريخ بلاده واضحة، ولا بأس من أن تختلف الرؤى والأحكام فى تقييم الأحداث والشخصيات مادامت الأحداث ذاتها مذكورة دون تزوير أو تزييف أو أخفاء، المشكلة أن الشباب المصرى ـ والعربى ـ لديه شعور عميق بأنه تعرض، ومازال يتعرض، لعملية خداع وتلاعب بأفكاره ومشاعره، وانه واقع تحت تأثير من يصور كل عمل تم فى ظل الثورة على أنه جريمة مدبرة، وكل شخصية شاركت فى خدمة بلدها على أنها شريك فى عصابة، وان البلد كله كان واقعا لفترة طويلة تحت تأثير قيادات كلها منحرفة، بل أن بعضهم وجد فى نفسه الجرأة ليقول أن قادة الثورة كانوا عملاء لجهات أجنبية وتجرأ بعضهم أكثر فوضع كتبا مليئة بالإفتراءات تهجموا فيها على الثورة كلها وأجهدوا أنفسهم فى إدعاء أدلة من خيالهم ـ أن هذه الثورة لم تكن إلا من صنع أجهزة مخابرات دول كبرى.! وعلى الجانب الآخر هناك من يصور هذه الفترة على انها الفترة الوحيدة التى شهدت قيادات وطنية مخلصة، وكل ما فعلته كان صوابا، ولا يأتيه الخطأ أو الباطل على أى وجه وإنما كان معبرا عن قمة الاخلاص والوطنية..

والحقيقة أن كلتا النظرتين فيهما التطرف. وحتى الآن لم نبدأ فى معالجة هادئة تظهر السلبيات والإيجابيات الانتصارات والهزائم، الأبطال والانتهازيين. . وطبيعى فى كل مرحلة وكل مجتمع أن يكون فيه الشرفاء واللصوص، وأن يظهر فيه الأطهار والشياطين. . واقرأوا القرآن الكريم لتعلموا أن المنافقين كانوا حتى فى مجتمع المدينة والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى يقود هذا المجتمع وحوله كوكبة من أطهر البشر، والوحى ينزل!

ومن المهم لمن يهاجم الايجابيات بضراوة أو يدافع عن السلبيات باستبسال أن يدرك أن تاريخ أى أمة هو رصيدها، وان ذاكرة كل امة هى مستودع تجاربها التى تعينها على تحديد الطريق الصحيح فى حاضرها ومستقبلها، وأن التاريخ حلقات متصلة، وكل الأبناء من صلب الآباء، فلا يستطيعون التنكر أو التبرؤ منهم، وهنا تظهر خطورة المحاولات التى تجرى لتشويه الآباء فى عيون أبنائهم، وخطورة افساد الذاكرة العربية، وربما يكون هناك من يسرف فى تشويه تاريخ ثورة ٢٣ يوليو بدوافع حقد قديم ولتصفية حسابات وثأر شخصى أو عائلى، ولكن يجب ألا يؤدى ذلك إلى تزييف الوعى القومى لأمة بأسرها، ويجب أن يتوقف ذلك بصورة أو بأخرى، لأنه ليس من مصلحتنا أن ينظر الشباب المصرى بسخط وكراهية لفترة خصبة من حياة وطنهم، ولأن اضطراب الشخصية المصرية سيكون عظيما حين يرى الشباب الانتصارات التى حققها الشعب المصرى على أنها هزائم، والهزائم على أنها انتصارات. . فذلك العبث

بالوعى العام له ـ دون شك ـ أسوأ الأثر فى سلوك واتجاهات الأجيال القادمة ومواقفها السياسية، ليس تجاه الماضى وحده، بل تجاه الحاضر أيضا. وظواهر الأرهاب الحاضرة فى جانب منها ترجع إلى التمرد على الماضى وعدم الثقة فيه وانسحاب ذلك نفسيا على الحاضر.

ان بطلا قوميا مثل كروميل فى بريطانيا قاد ثورة فاشلة على الملكية، عادت بعدها الملكية، ومع ذلك فان كروميل، دخل التاريخ والوجدان البريطانى باعتباره بطلا قوميا أراد أن يتحدى الديكتاتورية ويرسى الديمقراطية، وله على هذه المحاولة تقدير يستحقه، لأنه كان عاملا فى تحريك المجتمع البريطانى وتغيير الحياة السياسية وأرساء أفكار وقيم ومبادىء جديدة. . أما عندنا فان كثيرين يصورون كل ما فعلته الثورة على أنه جرائم دون استثناء، وكل قادتها مجرمون دون تفرقة، بل وبعضهم تمادى أكثر فاعتبر قيام الثورة فى ذاته جريمة. . هنا نقول أن الأمر لم يعد تاريخا، ولكنه تزييف وتشويه وعبث فيما لا يجوز العبث به، وتخريب للعقول عواقبه وخيمة.

من هنا تظهر أهمية تجديد القضية القديمة، وهى ضرورة إعادة كتابة تاريخ الثورة. ولا أعرف كيف يتحدث الجميع عن تنمية الولاء والانتماء فى الشباب ولا ينتبهون إلى ان التاريخ هو العامل الذى لا يتكون الولاء أو الانتماء بدونه. . ولكن ظهر ما يمكن أن نسميه «التجارة فى ثورة ٢٣ يوليو». . هناك من يبيعها لمن يدفع، وهو

يعرف ـ أو لا يعرف ـ من سيشترى منه.. وكما أن هناك من هم على استعداد للدفع للمزايدين، هناك أيضا من يدفعون للمناقصين، وليس هناك من يدفع للمنصفين.. ولذلك نرى المنصفين قلة، لا يطلبون لأنفسهم إلا إرضاء ضميرهم الوطنى، وابراء الذمة أمام الله والوطن، ويعلمون أن المنافقين والمتاجرين بأوطانهم لهم أسوأ الحساب عند الله والناس بعد عمر طويل أو قصير.

لا أريد أن أكرر القول بان من لا ماضى له، لا مستقبل له، أو التذكير بان من يخجل من ماضيه لن يجد فى نفسه الثقة لبناء مستقبله، كما لا أريد الافاضة في الحديث عن مشكلة تعدد المناهج، والمصالح، والانتماءات، لدى المؤرخين، وعدم تبلور مدرسة تاريخية مصرية محايدة، كما لا أريد أن أكرر المطالبة بتكوين لجنة أو هيئة لكتابة تاريخ الثورة، ولا حتى المطالبة باتاحة الاطلاع على الوثائق ومحاضر الاجتماعات الخاصة بالفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٧٠ على الأقل.. فهذه كلها أمور أصبحت المطالبة بها موسمية، ويبدو أنها لن تتحقق لأسباب ليست معلومة، ولكنى سأطالب بالحد الأدنى، وهو أن يتفق الباحثون والكاتبون عن ثورة ٢٣ يوليو على الالتزام بميثاق شرف، أو بميثاق أخلاقى، يمثل الحد الأدنى من اخلاقيات النزاهة، بألا يسرفوا فى الشتائم، وألا يسرفوا فى المدائح، وأن يرعوا الله والوطن والضمير فلا يصوروا كل شىء باللون الأسود أو باللون الوردى، وأن يحاولوا التخلص من آثار

خسائرهم أو مكاسبهم الشخصية فى هذه الفترة، وأن يتعففوا عن التجارة فى تاريخ وطنهم.

وإذا كان من حق كل الشعوب أن تفخر بانجازاتها فلماذا نطمس نحن إنجازات فترة خصبة تثير فى المصريين مشاعر الاعتزاز والكرامة الوطنية، ولماذا نشوه جهودا اقامت مصانع وسدودا وأراض جديدة.. ولماذا لا نتحدث دون خجل عن خطيئة غياب الديمقراطية، وعن الأخطاء السياسية والعسكرية التى أدت إلى هزيمة ١٩٦٧ وكيف نضمن ألا تتكرر فى مسار التاريخ المصرى كله.. ونتحدث بكل وضوح عن غيرها من الأخطاء وهى ليست قليلة ولا هينة.. دون انكار الانتصارات، وهى أيضا ليست قليلة أو هينة.

وربما يكون فى حدود الممكن أن ينشأ مركز علمى لدراسات ثورة ٢٣ يوليو لجمع ما يمكن جمعه من معلومات وشهادات، ومخطوطات، ويحصل على نسخ مما صدر فى كل دول العالم من كتب وأبحاث عن هذه الثورة. ولا يحتاج ذلك إلى قرار سيادى، ويكفى أن تفعل ذلك إحدى الجامعات المصرية أو العربية، أما الجامعات الأمريكية والأوربية ففيها أقسام كثيرة لدراسة كل ما فى حياة ومجتمع وتاريخ العرب فى ماضيهم وحاضرهم.. ولكن أهدافهم من الإستفادة من هذه الأبحاث مختلفة عن أهدافنا.

لا نطالب بأكثر من الانصاف والاعتراف بالحقيقة.. للثورة أو عليها.. المهم ألا نترك الساحة للتجار ليبيعوا تاريخنا القومى وكفاح

شعبنا الذى دفع فيه سنوات فى المعارك السياسية والاقتصادية والحرمان من أجل البناء.. واستشهد خلالها آلاف من خيرة الأبناء وهم يهتفون بحياة مصر.. ثم يأتى اليوم من يزيف التاريخ ويقبض الثمن..!

من يدافع عن الثورة ؟

كانت الثورة منذ قيامها تحذر من أعدائها، وكانت على وعى بأن هؤلاء الأعداء لن يترددوا لحظة فى الإنقضاض عليها وتشويه صورتها وهدم إنجازاتها إذا وأتتهم فرصة وإتخذت الثورة خطوات لتحمى نفسها من أعدائها. . حاكمتهم سياسيا أمام محاكم خاصة، وجردتهم من أسلحتهم الأساسية (استغلال رأس المال وسيطرة الإقطاع) وحرمتهم من المشاركة فى توجيه الحياة السياسية، ولكنها أبقت لهم على حياتهم ومصدر رزقهم الأساسى، ورفضت تماما فكرة إعدام أعدائها بالجملة كما فعلت الثورات من قبلها.

فالثورة الفرنسية مثلا نصبت المقاصل فى الساحات والميادين وقتلت أعداءها، بل وقتلت معهم كل من حامت حوله شبهة ولو من بعيد فى أن يكون من أعدائها أو متعاونا مع أعدائها. . والثورة الروسية لم تفتح السجون لأعدائها ولكنها أعطت الثوريين الحق فى أن يخوضوا الصراع المسلح لتصفية أعداء الثورة جسديا فى معارك دموية، ولا تزال كتب التاريخ مليئة بالفظائع التى إرتكبت خلالها،

والثورة الصينية قام فيها الثوريون بأنفسهم ـ بغير تفويض من أحد ولا أحكام محاكم ولو صورية ـ بفتح بطون أبناء الطبقات التى تسببت فى الإستغلال والظلم الإجتماعى لكى يبحثوا فيها عن «التفاح» الذى كان يأكله أبناء هذه الطبقة.. لكن الثورة المصرية رفعت منذ أول دقيقة شعار إنها ثورة بيضاء وكانت بذلك شيئا جديدا فى تاريخ الثورات..

وبقدر ما تفخر ثورة ٢٣ يوليو بأنها عاملت أعداءها بأقصى قدر يمكن لثورة أن تحققه من إنسانية، فقد أعطى ذلك لأعدائها قدرة على أن يستمر وجودهم فى المجتمع المصرى بأكثر مما يجب وبأعمق مما يجب، وكان هذا هو السبب فى أن الثورة كانت كلما انطلقت فى طريق سرعان ما تشعر أن هناك «فرامل» تعوق حركتها وتقيد إنطلاقها. وكان للثورة أعداء خارجيون، وهذا طبيعى، كما كان لها أعداء داخليون وهذا طبيعى أيضا، لم يفقدوا أظافرهم ولم يسلموا أسلحتهم، ولا فقدوا طاقة حقدهم التى تدعوهم بين حين وآخر إلى محاولة هدم الثورة بالقول عن طريق الدعايات أو الإشاعات أو النكت أو جماعات الهمس، أو بالفعل (عن طريق المؤامرات ومحاولات الإنقضاض التى تكشفت تفصيلاتها فى محاكمات كثيرة جرت خلال السنوات الأربعين الماضية). طبيعى أن يكون لكل ثورة أعداء.. وطبيعى أيضا أن يحاول أعداء الثورة أن يغتالوها ويشوهوا إنتصاراتها ويقتلوا قادتها وهم أحياء.. ثم يحاولون تشويه صورة من رحل منهم.. وقد يكون مفهوما ـ وليس طبيعيا ـ أن يتحالف أعداء

الثورة فى الخارج مع أعدائها فى الداخل، ولكن الشئ الذى يبدو غير طبيعى وغير مفهوم هو كيف يتصور هؤلاء أن عجلة الزمن يمكن أن تدور إلى الوراء، وأن تاريخ ٤١ سنة من عمر الشعب المصرى يمكن أن يمحى، وأن الحياة يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه قبل ٢٣ يوليو، وهل يتصورون أن الساحة يمكن أن تخلو لهم يوما ويسكت الذين قامت الثورة من أجلهم عن الدفاع عنها؟ هذا هو السؤال!.

وليست القضية أن الثورة لها أخطاء أم لا، وهل تحولت بفضلها حياة المجتمع المصرى إلى الأفضل أم لا، فمثل هذه الأسئلة يمكن أن يطرحها الدارسون لتقييم أعمال الثورة بموضوعية وإنصاف كما يمكن أن يطرحها أعداء الثورة كنوع من الجدل الذى يراد به طمس الحقائق وتشويهها، فكل ثورة فى التاريخ لها سلبيات وإيجابيات ولا تقاس قيمة الثورات بخلوها من السلبيات لأن التاريخ لا يعرف ثورة فى أى عصر مسيرتها خالية من السلبيات وإنما تقاس قيمتها بمدى ما أحدثته من تغيير فى مجتمعها وفى مجال ما حولها من مجتمعات أخرى، وبهذا المعيار فلقد حققت ثورة ٢٣ يوليو الكثير: غيرت المجتمع المصرى تغييرا جذريا وحررت الطبقات التى كانت مستعبدة، وغيرت عالمها العربى وأسهمت فى تحريره، وغيرت قارتها الأفريقية وأسهمت فى تحريرها بإذكاء روح التحرر وبالمساعدات المباشرة.. كانت.. ومازالت ـ ثورة تحرير للإنسان والأرض، وثورة اقتلاع لجذور الإستغلال.. ألا يكفى ذلك لتكون ثورة تاريخية.؟

ودون دخول فى التفاصيل، فلقد رفعت الثورة يوماً شعارا بأن الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب ولم تستطع أن تنفذ ذلك بدقة.. وبقيت لأعداء الشعب حريتهم، ولكن الحرية الآن أصبحت للجميع، وهذا عدل، لأن منطق الشرعية الدستورية ـ بعد الشرعية الثورية ـ يقتضى إطلاق حق كل القوى فى أن تمارس فاعليتها، وتشارك ـ على قدم المساواة ـ فى الحياة السياسية ولذلك فالمسألة ـ هنا تحتاج إلى تنبه من الفئات التى قامت الثورة من أجلها والتى ستتعرض للضياع من جديد إذا ضاعت هذه الثورة وإنجازاتها. فكما أن أعداء الثورة لهم الحق الآن فى أن يزيفوا الحقائق ويصوروا الإنتصارات على أنها هزائم، ويقدموا الأحداث مشوهة لأبناء جيل لم يعاصر هذه الأحداث فإن من واجب الذين قامت الثورة من أجلهم أن يدافعوا عما حققته لهم من إنجازات، وهى ليست قليلة، ومهما حاول المزيفون والمرجفون، فإن الزبد دائما يذهب جفاء، ولا يبقى إلا ما ينفع الناس.. هذا هو قانون التاريخ، ومنطق الواقع، بل هو حكم الله.. ومن أعدل من الله حكما..؟

بدلا من تشويه التاريخ !

آن الأوان ـ بعد مرور السنين ـ لكى تلقى ثورة ٢٣ يوليو الإنصاف الواجب، والنظر اليها بنظرة موضوعية، ومتوازنة. . ، ولكن هل يمكن أن يخفف نهر الحقد المتدفق عليها من فيضانه الدائم. . أو تهدأ نار العداوة فى بعض الصدور. . ليعود منطق العدالة فى تقييم هذه الثورة بدلا من الإستمرار فى الخصومة وتصفية الحسابات؟

إن ثورة ٢٣ يوليو ـ مثل جميع الثورات الكبرى ـ لها أعداء كثيرون، فقد هدمت بناء سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا فسلبت المنتفعين به إمتيازاتهم، وكشفت إنحرافاتهم، وأقامت نظاما إنحاز للملايين المحرومين من أبناء الشعب، فكان طبيعيا أن تكتسب عداوة تاريخية مع أبناء الطبقة التى يمثلها تحالف الملك المخلوع والإستعمار وأحزاب

الأقلية والإقطاعيين، ويكفى أن نعيد قراءة كتاب مثل «ليالى فاروق» للأستاذ مصطفى أمين، أو «فاروق ملكا» للأستاذ أحمد بهاء الدين ـ وليت إحدى دور النشر تعيد طبعهما ليقرأهما أبناء هذا الجيل ـ ليعرف من لا يعرف كيف كانت تحكم مصر قبل الثورة.

ومن الطبيعى فى مسيرة التاريخ، وكما حدث مع سائر الثورات الأخرى، أن يأتى وقت تخرج فيه بقايا عصر ما قبل الثورة فى محاولة يائسة لإستعادة زمانهم الذى ولى، أو على الأقل للثأر لأنفسهم ولطبقتهم مما نالهم، بتشويه الثورة بالحق وبالباطل، وتجريدها ـ أمام جيل جديد لم يعايش الحقائق ـ من أية إيجابيات أو إنجازات، خاصة ومازالت هناك شخصيات على قيد الحياة من بقايا العصر الماضى، فى الوقت الذى إختفت فيه معظم قيادات ورموز الثورة بالموت أو بالإنسحاب، بينما يعنى إنقضاء ٤١ عاما أن الملايين من المصريين ممن هم فى سن الخامسة والأربعين وربما أكثر يمكن تضليلهم. . يساعد على ذلك أن وسائل الإعلام كفت منذ سنوات عن الحديث إلى الأجيال الجديدة عما كان عليه الحال قبل الثورة، وعن التذكير بأن الثورة هى التى جعلت حاكم مصر مصريا لأول مرة فى العصر الحديث، وهى التى أرست مبدأ تكافؤ الفرص فى المجتمع المصرى لأول مرة، وبدونها كان مستحيلا أن يظهر علماء أو وزراء أو أساتذة جامعات أو رؤساء شركات من أبناء الفقراء، وهى أمور أصبحت الآن مألوفة. . كما أن عروبة مصر التى تبدو الآن من

البديهيات لم تطرح كنظرية سياسية متكاملة إلا بعد الثورة، وأن قضية رفض التبعية وحماية الكرامة الوطنية لم تكن يوما قضية قومية كا أصبحت بفضل الثورة. . كما أن إنتقال مصر إلى الصناعة لم يكن ممكنا بأى حال قبل الثورة بالشكل الذى تمت به.

من الطبيعى أيضا ـ بعد هذه السنوات ـ أن تناقش أخطاء الثورة وقادتها بكل صراحة وموضوعية، إبتداء من غياب الديمقراطية، وفتح المعتقلات، والتعذيب ـ وهى ممارسات مدانة فى كل عصر ـ إلى نكسة الوحدة مع سوريا، وهزيمة ١٩٦٧، وهى أخطاء كبيرة ينبغى ألا تعمينا عما فى الكفة الأخرى من الميزان فى التاريخ، وأولها الثورة الفرنسية ـ أم الحريات ـ فقد إرتكبت أخطاء كبرى كثيرة والفرنسيين يمارسون نقد ثورتهم دون تلطيخها. ولا أحد يدافع عن الأخطاء فى أى وقت ولا أى سبب. بل يجب مناقشتها وتحليلها لتكون دروسا مفيدة للمستقبل، ولكن دون إغفال ما حققته الثورة، فإن إنكاره خسارة من رصيد التقدم الذى حققه الشعب المصرى. . وإذا كان العداء لعبد الناصر فى بعض القلوب لا يدع مكانا لحب شئ مما حققته ثورته، فلقد رحل عبد الناصر منذ ٢٣ عاما وتغيرت أشياء كثيرة فى المجتمع، ولم يعد إلا زعيما من بين زعماء وقادة مصر التاريخيين، وإذا كان البعض قد جعلوا قضيتهم مطاردة ما يسمونه «الناصرية»، فليس هناك وجود لها بالمعنى الذى يتصورونه، فإن كانوا يقصدون قرارات عبد الناصر فقد كانت رهنا بوقتها ولم تعد صالحة لعصر مختلف. . وأن كانوا يقصدون معارك عبد الناصر، فقد تغيرت

الصداقات والعداوات والمعارك وبالتالى لم تعد مفاهيمه قائمة كما كانت فى زمنه. . وإن كانوا يقصدون الروح الوطنية التى نفخها عبدالناصر، فلم تكن من صنعه وحده، ولكنها كانت حصادا لما زرعه قبله زعماء عظام فى التاريخ المصرى من عرابى، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس، بقدر ما كانت تجسيدا للفكرة الوطنية التى غرسها رفاعه الطهطاوى ومحمد عبده ولطفى السيد وطه حسين والعقاد. . إلخ. بإختصار إن عبد الناصر لم يكن إلا نتاجا تاريخيا لمصر بكل ما تراكم فيها عبر العصور. . وإذا كان قد أخطأ فى مواقف، فقد أصاب فى مواقف أخرى، ومن حقه علينا، ومن حق وطننا علينا ألا نظلم أحدا من رجالاتنا العظام. .

المشكلة الآن هى أن وثائق الثورة مازالت غائبة ـ بعد ٤١ عاما ـ ولذلك فإن تاريخها الحقيقى لم يكتب بعد، وليس من الطبيعى أن نطالب بتشكيل لجان حكومية لكتابة التاريخ، ولكن يكفى الإفراجولو عن بعض "الوثائق وإتاحة الفرصة أمام المؤرخين لدراستها، فهذا وحده هو الطريق لإنصاف الثورة من إنفعال المتحمسين لها أو ضدها لأسباب غير موضوعية، كما أنه الوسيلة الوحيدة لقطع الطريق على محترفى تزييف وتشويه التاريخ.

ربما تصور البعض أن إنهيار المعسكر الشيوعى قد أدى إلى إنتعاش هائل لليمين ـ دوليا ومحليا ـ وأن ما غرسته الثورات الوطنية لم يعد له مكان الآن فى عصر الردة الكبرى، لكن إنهيار اليسار المدوى

وإنتصار اليمين الساحق ليس إلا لحظة من التحول التاريخى سوف تصل بعد فترة إلى نقطة التوازن، فتلقى الثورات الوطنية ـ ومنها ثورة ٢٣ يوليو ـ ما تستحقه من الإنصاف. وبالقدر الذى حققته من ايجابيات فى تطور المجتمع المصرى دون زيادة . . أو نقصان . !

«كرياكليف».. وثورة ٢٣ يوليو!

دخلت التاريخ قصة طريفة بطلها آخر رائد سوفيتى للفضاء هو «سيرجى كريا كليف».. فقد صعد الرجل إلى مركبة فضاء سابحة خارج الكرة الأرضية، وكان جورباتشوف هو الذى يحكم فى ذلك الوقت، وكان الإتحاد السوفيتى لا يزال قائدا للمعسكر الشيوعى، ومبشرا بجنة الشيوعيين الموعودة التى رسمها ماركس ولينين.. وظل «كرياكليف» فى الفضاء شهورا على إرتفاع -٣٥ كيلو مترا، فلما جاء موعد عودته إلى الأرض وفق البرنامج كان كل شئ فى الإتحاد السوفيتى، وفى العالم، قد تغير.

أثناء الفترة التى عاشها الرجل معلقا فى الفضاء كانت الشيوعية قد أعلنت إفلاسها، وسقط جورباتشوف، وتفكك الإتحاد السوفيتى، وسقطت النظم الإشتراكية، وحل حلف وارسو نفسه وإنتهى وجود

منظمة «الكوميكون». . وتفاقمت الأزمة الإقتصادية إلى حد أن عجزت روسيا عن تمويل رحلة عودة رائد الفضاء، فبقى «كرياكليف» خمسة أشهر إضافية معلقا فى الفضاء، إلى أن أكمل ٢٢٠ يوما بعيدا عن العالم الصاخب بالحركة والتغير، إلى أن أمكن تدبير المال اللازم لإطلاق صاروخ لرحلة عودته، فعاد فى حالة يرثى لها، من الإضطراب العقلى والنفسى ولم يعد قادرا على فهم ما حدث ويحدث لبلاده. . كان الرجل مسكينا. . فقد ترك بلاده وهى دولة عظمى، وعاد ليجدها قد أصبحت ١٥ دولة مستقلة (!) وأراد أن يذهب إلى مدينته «لينينجراد» فلم يجد مدينة بهذا الإسم، ووجدها قد أصبحت بإسم القيصر القديم «بطرسبورج». . ولم يستطع عقله أن يستوعب كيف أن بلاده حين تركها كانت تقدم معونات لدول العالم الثالث لتساعدها على التحرر من الإستعمار والتبعية ومن النفوذ الأمريكى، فوجد بلاده هى التى تتلقى المساعدات من فائض الإنتاج الأوروبى والأمريكى، وتطلب قروضا من البنك الدولى الذى كانت تعتبره قاعدة للإمبريالية. . وترك بلاده وهى تهدد الغرب بأسلحة نووية فائقة القوة فوجد هذه الأسلحة وأسرارها معروضة للبيع، وعلماء بلاده يهاجرون منها إلى أى بلد يدفع لهم أجورا تكفى طعامهم. . وترك بلاده والسيادة فيها لأعضاء الحزب الشيوعى فعاد ليجد السيادة للمافيا وتجار المخدرات والسوق السوداء وتجار الرقيق الأبيض. ! وأصبح الرجل مخبولا ومثيرا للسخرية وعبرة لمن يعتبر.

وقصة «كرياكليف» ليست تكرارا لقصة أهل الكهف، فأهل الكهف ناموا أكثر من ثلاثمائة عام واستيقظوا ليجدوا أنفسهم فى عصر آخر ومع بشر آخرين.. أما هو فقد ظل يقظا.. أو توهم أنه يقظ. وإبتعد عن واقع بلاده وعن عالم البشر وظن أن كل شئ سيجده كما كان ولكن كل شئ تغير فيما عداه هو، وهذا ما جعله يبدو مثل أهل الكهف من ناحية الإنفصال عن الواقع، وعدم القدرة على إدراك التغير الذى حدث.

القصة ليست من صنع الخيال.. وهى قابلة للتكرار، كم «كرياكليف» عندنا؟

أظن أن عندنا من أمثاله الكثير.. غابوا عن الأحداث وتطوراتها، ليس بالسفر فى رحلة إلى خارج الأرض، ولكن لأنهم ابتعدوا عن إدراك حقائق وتطورات الأحداث التى تجرى أمام عيونهم ويظنون أنهم يرونها ويتابعونها ويفهمونها، والحقيقة غير ذلك. كثيرون ابتعدوا بفكرهم وعقولهم وأرواحهم خلال فترة من الزمان إمتدت منذ عام ١٩٥٢ حتى الآن.. وكان إبتعادهم لأسباب مختلفة.. بعضهم سافر إلى الماضى البعيد وعاش فيه وإتخذ فيه مدارات بعيدة عن عالمنا.. وبعضهم سافر إلى عالم من الأوهام نتيجة إصرارهم على رفض الواقع.. وبعضهم سكن غابات حيث تخفى الوحوش حقيقتها تحت جلود البشر، وبعضهم سافر إلى عالم المخدرات بأنواعها المادية والمعنوية.

أمثال هؤلاء لم يدركوا ماذا حدث بالضبط يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وما بعده.. ولذلك فهم حتى الآن مساكين.. بعضهم يؤكد أن ما حدث لم يكن ثورة.. بعضهم الآخر يصر على أنها كانت إنقلابا عسكريا على «حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم» الذى كانوا يقبلون يده الكريمة ويعتبرون ذلك منتهى التشريف.. وهم - مساكين! - يتصورون أن الثورة أفسدت مصر لأنها أرادت «العزة والكرامة» للمصريين، وجعلت للعمال والفلاحين صوتا فى تقرير شئون الوطن وحقا دستوريا لا يستطيع أحد أن يسلبه منهم.. وأعطت الطبقات الفقيرة ممن كانوا يسمون «الرعاع» حق التعليم المجانى، وأرست «العدالة الإجتماعية» و «تكافؤ الفرص» ففتحت الطريق أمام أبناء الفقراء ليصبح منهم وزراء وأساتذة فى الجامعات وسفراء ودخلوا - بكفاءتهم - فى دائرة «الصفوة» بينما خرج منها الكسالى، والعاطلون بالوراثة، ومحدودو الذكاء، بصرف النظر عن طبقتهم الإجتماعية.

هناك من يعجز حتى الآن عن إدراك حقيقة هذا التغير الجوهرى فى تركيب المجتمع المصرى، ولا يتسوعب عقله كيف أصبح الطريق مفتوحا أمام ابن موظف صغير، أو إبن فلاح، أو إبن عامل بسيط، أو تاجر فقير، لينتقل من «القاع» إلى «القمة».. ومنذ ٤١ عاما وهم يعيشون حالة من الإستنكار تثير الإشفاق.

من أمثال «كرياكليف» عندنا كثيرون..

الذين لا يستطيعون أن يفرقوا حتى الآن بين الثورة وإيجابياتها وبين عدائهم لعبد الناصر كزعيم فى مرحلة تاريخية.. عبد الناصر مات.. ولكن الثورة ـ بمبادئها ـ بقيت.. وإن كان الزمن تغير، وظهرت سلبيات الثورة وكان لابد من «التصحيح» ولكن الجوهر مازال باقيا فى الأعماق: الكرامة الوطنية.. الحرص على الإستقلال.. التطلع إلى بناء وطن قوى مهما أصاب هذا الحلم من هزائم على يد الأعداء ومؤامرات على يد الأصدقاء.. مبدأ «المساواة» بين المصريين. لا فضل لمصرى على آخر إلا بالعمل.. العدالة.. تكافؤ الفرص.. الإيمان بأن الروح العربية سوف تتغلب على مؤامرات التفرقة.. التنمية ممكنة.. وبناء قاعدة للصناعة وللعلم والتكنولوجيا ممكن.. دوائر الهوية المصرية العربية الإسلامية الإفريقية متداخلة ومتكاملة.

مبادئ استقرت فى ضمائر المصريين.. حتى للأجيال الجديدة التى لم تكن قد ولدت حين تحركت الدبابات لتحاصر قصر عابدين، ولم تخفق قلوبها ساعة رحيل «المليك المفدى» إلى حيث عاش فى «المكان المناسب» فى الحانات والمراقص وبين الغانيات.. وحيث كان يتكلم بلغات عديدة ليس من بينها اللغة العربية التى لم يكن يرتاح حين يضطر إلى سماعها أو الحديث بها فى المناسبات.

هبط هؤلاء من أمثال «كرياكليف» علينا من رحلتهم الطويلة فى الزمان.. حيث كانوا فى مدارات بعيدة عن أرضنا التى عشنا عليها

الإنتصارات والإنكسارات الكبرى لثورة ٢٣ يوليو.. وحيث رفعنا الرءوس وذرفنا الدموع.. وحيث عايشنا الأبطال والمنافقين والإنتهازيين.. وحيث بنينا بعرقنا وهدم لنا أعداؤنا بعض ما بنيناه.. كنا نحن نكتوى بنار الأحداث صعودا وهبوطا.. وكانوا هم فى عزلتهم.. ثم عادوا لينكروا علينا حياتنا التى عشناها واحدا وأربعين عاما.. وقد أنضجتنا الأحداث والمحن، وأصبحنا الآن أعمق تجربة وأكثر دراية بمعادن الرجال.. وأشد تمسكا بإيجابيات ثور ٢٣ يوليو ورفضا لسلبياتها.. وأكثر قدرة على اختيار الطريق الصحيح.. ولم نعد نقدس أشخاصا.. ولكننا صرنا نقدس الوطن والمبادئ.

وأصبحنا نضع جمال عبد الناصر فى موضعه من التاريخ كقائد أراد وعمل بإخلاص على تحقيق حلم كبير - أكبر مما كانت تسمح به ظروف بلده وعصره - فنجح فى جانب وفشل فى جانب. تغيرت الظروف وعلينا أن نحقق من الحلم بقدر ما لدينا من قدرة وإخلاص.. ولم يعد معنا.. ولن يعود.. فليطمئن أعداء عبد الناصر إلى أنه لن يعود، وأن الزمن تغير.. ولكن عليهم ألا يطمئنوا.. لأن مصر أيضا لن تعود إلى الوراء.. ولن تغلق كتاب ثورة ٢٣ يوليو كأنه لم يكن.. وليذهبوا ليروا كيف تعامل «كرياكليف» مع متغيرات بلده قبل أن يصبحوا مثله ضحايا لأمراض عقلية ونفسية يصعب علاجها.. أبسطها مرض رفض الماضى والرغبة فى تغييره.. وعدم القدرة على فهم الحاضر والتعامل معه بواقعية.

أما تزوير التاريخ فتلك قضية أخرى.

عام الوثائق

ظواهر كثيرة ميزت عام ١٩٨٦ فهو مثلا كسابقه يمكن أن يسمى عام الإرهاب.. أو عام الحروب الصغيرة.. أو عام المخابرات ومؤامراتها على إمتداد خريطة العالم، ظواهر كثيرة ومسميات كلها صحيحة، لكن هناك وجها آخر يميز ذلك العام الذى سقط فى بئر الماضى، هو أنه كان عام الوثائق.

إذ إنزاحت فيه أستار السرية ـ طوعا أو كرها ـ عن أوراق لها أهميتها البالغة فظهرت فيه حقائق جديدة لم تكن معروفة بعضها يشيب لهوله الولدان كما يقولون، وبعضها الآخر يدفع بكثير من الأفكار والوقائع المعروفة من منطقة الظنون أو الترجيح إلى منطقة اليقين، وهذا شئ ليس بالقليل.

فما تكشف حول الدور الأمريكى المزدوج فى صفقة توريد أسلحة

سرية إلى إيران وتقديم معلومات سرية إلى العراق نموذج لما كان من الصعب تصديقه، ليس فقط بالنسبة للشعب الأمريكى الذى استيقظ على حقيقة أنه خدع لفترة طويلة، ولا بالنسبة للكونجرس الذى هاله أن تدور من وراء ظهره مسائل خطيرة تتصل بإختصاصه دون أن تعرض عليه، ولا حتى بالنسبة للديمقراطية التى أصبح شعارها علما وشعلتها رمزا للأمريكيين، ولا بالنسبة لأوربا التى وجدت نفسها مخدوعة بالحاح الإدارة الأمريكية عليها لتقاطع إيران الإرهاب وتمنع كل إتصال معها، ثم إكتشفت أن المحرض عاش على وفاق مع الإرهاب ويمده بالسلاح. ولكن فوق ذلك كله ـ بالنسبة للعرب الذين جاءتهم الحقيقة العارية أبشع مما يحتمل خيالهم... كل هذا الإنهيار فى واجهات القيم والأخلاق التى كانت آخر ورقة توت تستر العلاقات الدولية سقطت، ما كان، يمكن تصديقها لولا الوثائق والحقائق التى أبت الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٨٦ أن تمضى إلى حال سبيلها قبل أن تعريها.

قبل أن يمضى العام جاءنا كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن ملفات حرب السويس ليكون نقطة بدء جديدة فى الكتابة التاريخية والسياسية.

حيث كان ممكنا قبله أن نسمح لكل من هب ودب بأن يقول رأيه ورؤياه للأحداث ونعتبر ذلك تاريخا، مما أدى إلى تضارب هؤلاء الذين ظهروا كمؤرخين فى آخر الزمان. ولكن بعد هذا الكتاب لم

يعد ممكنا لمن أراد أن يروى واقعة أو يصدر حكما أو يقرر حقيقة أن يطلق القول على عواهنه، أو يدعى أمامنا الحكمة والمعرفة إلا بأن يقدم على كل قول وثيقة تؤيده. ميزة هذا الكتاب أنه نموذج لعمل علمى فى التاريخ السياسى رفيع المستوى. وهو يؤكد حقيقة أن الأستاذ هيكل يفكر كعالم ويكتب كفنان.

وإذا كان كتاب ملفات السويس قد هدانا إلى مفتاح فهم حقيقة الصراع فى الشرق الأوسط وحوله فى قمة من قمم هذا الصراع فى حرب السويس فإنه يمهد لكتاب ثان عن حرب ٦٧ وكتاب ثالث عن حرب أكتوبر ٧٣ وكلاهما بنفس المنهج وبهذا نقول أن عام ٨٦ بالنسبة لنا أيضا كان عام الوثائق.

وإذا كان الأستاذ هيكل قد ترك القمة الأولى من قمم الصراع وهى حرب ٤٨ ـ ولابد أن لديه أسبابا لذلك ـ فقد جاءتنا وثائقها هذه المرة من دار الوثائق الإسرائيلية لكى تكتمل أمامنا الصورة واضحة بكل تفصيلاتها. فقد أفرجت إسرائيل هذا العام عن بعض محتويات أرشيفها الرسمى وكشفت وثائق تتعلق بعام ٤٨ وما قبله تمثل مفاجآت رغم أن ما سمحت به ليس إلا القليل، وما زال قرار حظر التداول والإطلاع مفروضا على كثير من ملفات هذه الفترة. ورغم أن أحد الباحثين الإسرائيليين رفع دعوى أمام المحكمة العليا فى إسرائيل فى أكتوبر الماضى يطلب الحكم بالزام الحكومة بإطلاع الباحثين على الملفات الخاصة بمذابح كثيرة إرتكبتها الجماعات والعصابات الإسرائيلية

قبيل وأثناء حرب ٤٨ إلا أن المحكمة رفضت الدعوى، ومع ذلك بدأت بعض الوثائق تتسرب لتكشف حقائق جديدة حول ما جرى من مذابح فى قرية نصر الدين بالقرب من طبريا، أو فى قرية دويما شرق الخليل التى ذبح فيها عشرات من الفلاحين الفلسطينيين فى أكتوبر ١٩٤٨ وإعدم بهدوء عشرات آخرون على يد القوات العسكرية الإسرائيلية وليست هذه الا أمثلة هناك عشرات بل مئات منها.

والوثائق التى سمح بنشرها وتحدثت عنها الصحف على قلتها تكفى ليعرف العالم حقيقة ما جرى فى تلك الفترة على يد عصابات أرجون (مناحم بيجن) وشتيرين وغيرهما من واقع تقاريرها وأوراق قادتها لتنفيذ استراتيجية عدوانية وإرهابية تقوم على الضرب بشدة فى العرب على أوسع نطاق دون إعتبار لمسائل القانون أو الشرعية أو الأخلاق ليشمل الضرب كل شئ.. ضرب المواصلات.. وضرب المحلات التجارية.. وضرب الأفراد.. وضرب كل ما هو فلسطينى لمجرد أنه فلسطينى. جاءت الوثائق لكى تساعد على فهم عبارة جاءت فى مذكرات بن جوريون عن عام ٤٨: «يجب أن نكون مستعدين لكى نضرب ضربة حاسمة، وأن ندمر، ونطرد السكان، لنأخذ مكانهم» وتكشف الوثائق أيضا فى ١٠ إبريل ٤٨ حين ذبحت عصابة أرجون وعصابة شتيرين ٢٥٠ فلسطينيا من أبناء القرية فيهم رجال وأطفال ونساء. أما المذابح التى إرتكبتها الهاجاناه (جيش إسرائيل فيما بعد) فإن وقائعها فى ملفات غير مسموح بتداولها ومازال عليها

خاتم «سرى جدا» بحجة أن كشف محتواها يضر المصلحة العامة للدولة.

وجاءت الوثائق أيضا لتؤيد الفكرة المحورية فى كتاب «ملفات السويس» حول استراتيجية القوى الكبرى فى منطقة الشرق الأوسط بل وتدلنا على البدايات الأولى لتنفيذها، وثيقة من الوثائق التى تناقلتها الصحف «تكشف عن اجتماع تم يومى الأول والثانى من يناير ٤٨ حضره ديفيد بن جوريون و ١٧ شخصية يهودية. وتقرر فيه تصفية ٢٢ من قيادات الفلسطينيين جسديا، ووضعت فى هذا الإجتماع قائمة بأسمائهم وعناوينهم فى القدس ويافا وحيفا وصفد، ويقول الصحفى الإسرائيلى يورى ملشتاين المتخصص فى تاريخ الحروب الإسرائيلية أنه بعد ٤ أيام من هذا الإجتماع تلقت وحدة من رجال حرب العصابات من الهاجاناه الأمر بالتنفيذ.

ووثيقة أخرى تكشف عن حوار دار بين زعماء إسرائيل عقب إعلانها، عرض بن جوريون إعلان حدود الدولة الجديدة ولكن بنحاس روزن الذى أصبح وزيرا للعدل اعترض وطالبهم بالعدول عن هذا القرار لأسباب قانونية وقال لهم «إن كل شئ ممكن. . بوسعنا أن نعلن دولة ولا نعلن حدودها. . فالرجال هم الذين يضعون القانون» وقال فى إجتماع تال: «أننا نعتزم إحتلال الخليل والقدس بكاملهما ونضمهما لدولتنا فلم نتخذ الآن قرارا يلزمنا بحدود» وتقول الوثائق أن قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة كان يعطى لإسرائيل

٥٥٪ من أرض فلسطين ولكن فى أعقاب الهدنة سنة ٤٨ كانت إسرائيل تضع يدها على ٨٠٪ منها، وبعد أن كان ٦٦٠ ألف يهودى لا يملكون غير ٦٪ من الأراضى تغيرت الخريطة تماما. وكدليل على شهية إسرائيل المفتوحة فى ذلك الوقت كتب بن جوريون فى مذكراته فى ٢٤ مايو ٤٨ يقول: «عندما نحطم الجيش الأردنى ونقصف عمان سوف نستولى على الأردن وعندئذ ستسقط سوريا أيضا».

والمثير من وثائق الأرشيف الإسرائيلى الرسمى ما يكفى عن واقعة ملخصها أن الرئيس السورى شكرى القوتلى أرسل مبعوثا خاصا إلى باريس ليقترح على الإسرائيليين تقسيم فلسطين إلى دولتين ـ إحداهما عربية والأخرى يهودية ويرتبطان معا بإتحاد كونفيدرالى، ولكن زعماء الصهيونية رفضوا الإقتراح. وهى واقعة دامغة فى نفى الإدعاءات الرائجة الآن من أن العرب هم الذين أضاعوا فرصتهم برفض قرار التقسيم. وفيها أيضا أن خليفة القوتلى حسنى الزعيم ـ اقترح من جانبه سنة ٤٩ عقد لقاء وجها لوجه للتفاوض ـ من أجل السلام بين سوريا وإسرائيل وكتب بن جوريون فى مذكراته يوم ١٦ أبريل ١٩٤٩: «السوريون اقترحوا سلاما منفصلا مع إسرائيل وتعاونا عسكريا ولكنهم طلبوا نصف نهر طبرية وعودة الحال على ما كان عليه وقد طلبت أن يقولوا للسوريين بشكل واضح أن عليهم أن يوقعوا فقط إتفاق هدنة».

وتكشف الوثائق أيضا أن مأساة اللاجئين الفلسطينيين لم تشغل

زعماء إسرائيل، وكان موسى شاريت مقتنعا بأن الزمن سيكون له دور فى حل المشكلة، وأصدرت وزارته توصية تقول أن هؤلاء اللاجئين سيجدون لأنفسهم مكانا فى أماكن هجرتهم أو بالإستسلام لتبقى أغلبيتهم بلا ثقل أو تندمج فى الكتل الأكثر فقرا فى العالم العربى.

وفى الوثائق التى سمح بنشرها تقرير من مخابرات الهاجاناه يقول أن ٧٠٪ من اللاجئين الفلسطينيين تخلوا عن بيوتهم فى أعقاب عمليات هجومية من شتيرن وارجون وأن أول موجة منهم شملت ٤٠٠ ألف قبل أول يونيو و ٣٠٠ ألف انضموا إليهم قبل نهاية العام، وأن مدنا كثيرة و ٣٥٠ قرية قد أخليت من سكانها العرب! وخلال عامى ٤٩ و ٥٠ تم طرد سكان قرى المجدل فى الجنوب تحت إشراف الحكام العسكريين، وجزء من مذكرات اسحق رابين الذى صادرته الرقابة العسكرية فى إسرائيل ونشر فى أمريكا أن الجيش الإسرائيلى طرد بأمر بن جوريون ٥٠ ألف فلسطينى من اللد والرملة أثناء غزوهما فى يوليو ١٩٤٨. ولذلك أعلن بن جوريون فى إحدى الوثائق: «أرض مع العرب تختلف تماما عن أرض بلا عرب» وعلق ابن جوريون على مشهد رحيل الفلسطينيين عن حيفا بقوله: «ما أروع هذا المشهد..!».

على أية حال تكفى الإشارة إلى أن هذه الوثائق أصبح الإطلاع عليها ممكنا عسى أن يجمعها لنا باحث محقق مدقق يستطيع أن يقدم

لنا ـ بالحقائق والوثائق وليس بمجرد الكلام المنمق ـ صورة متكاملة لذروة سابقة من ذرى الصراع فى الشرق الأوسط ومن حوله كانت لها آثار بعيدة وعميقة من الصعب حصرها أو حتى الإلمام بأبعادها كاملة حتى الآن، وإن كانت بعض الحقائق التى تضمها هذه الوثائق معروفة من قبل إلا أن حديث الوثائق يجهز على مرحلة الظنون، ويدفعنا إلى مرحلة اليقين ويجعل عام ٨٦.. عام الوثائق بداية وعلامة لكل ما بعده من أعوام.. لكى نعيش على الحقائق ولا نستمع إلا إلى حديث موثق له ما يسانده وما يؤيده من الواقع، ولتسقط مدرسة الخطابة والكلام المرسل بغير دليل فى صياغة التاريخ. كما تسقط مدارس تزوير التاريخ التى شهدنا من أساتذتها وتلاميذها الكثير قبل أن تسقط أوراق ٨٦.

ثورة ٢٣ يوليو.. والعقل العربى

لماذا يتجاهل المؤرخون دور ثورة ٢٣ يوليو فى إيقاظ العقل العربى؟

إن هذه الثورة لم تكن فقط الإصلاح الزراعى أو إشراك الفلاحين والعمال لأول مرة فى تاريخ مصر فى الإدارة والمجالس التشريعية، كما لم تكن فقط هى حركة التصنيع وبناء السد العالى، (الذى أنقذ مصر من الجوع ٨ سنوات متتالية).. ولا هى فقط المعارك مع الإستعمار بأشكاله المختلفة، ومع الرجعية بأسلحتها الشرسة.. فهذه كلها متغيرات أو وسائل تخطئ فيها وتصيب، وقابلة للتعديل مع تغير الزمان والظروف.. ولكن هناك ثوابت أولى بالدراسة والتفهم.. وأولها أن هذه الثورة كانت تعبيرا عن مرحلة التغيير الجوهرى والجذرى بل كانت ـ فى حقيقتها ـ حركة تنويرية كبرى.. كان

هدفها، إيقاظ العالم العربى من سباته العميق ليدرك مدى التخلف والجمود الذى وصل إليه ويزداد مع سرعة التقدم العلمى والتكنولوجي والحضارى الذى تقفز إليه أمريكا وأوربا واليابان، كانت الثورة هى رد الفعل الطبيعي للوعى بحالة التخلف والتراجع الحضارى، وللطموح القومى فى أن يكون للعرب مكان فى عالم الأقوياء.

كانت القضية ـ على المستوى العقلى ـ هى: هل العالم ثابت أم متغير.. وهل نبقى نحن فى ثبات على ما نحن فيه أم نتغير.. وماذا نغير.. وكيف.؟ وهذه فى مجملها إشكاليات بالغة الدقة والصعوبة، تبدو فلسفية، ولكن يترتب عليها إقامة نسق من الأفكار والقيم وأنماط من السلوك والعمل.. كانت الثورة تواجه العقل العربى الذى إستسلم للوهم والخرافة، والذى أنشأ لنفسه منظومة مريحة ـ أقرب إلى المخدرات ـ تبدأ من أننا خير أمة، وحالنا على ما هو عليه الآن هو أحسن حال، وكل تغيير بدعة.. ضلالة.. إلخ وأن أفضل طرق الإصلاح أن نعود إلى الوراء.. إلى الماضى.. نتراجع إلى أساليب الحياة والسلوك فى عصر الخيمة والكهف؟ وكان العقل العربى أكثر إستجابة لتلك الدعوة ـ بالنكوص والإرتداد، أو على الأقل بالجمود والرضا عن كل ما هو قائم والحرص عليه ومقاومة التغيير حتى الموت! ـ وكانت «ميكانيزمات» العقل العربى جاهزة بوسائل دفاعية هائلة من إتهام كل من يفكر فى مواكبة العصر وملاحقة المتقدمين فى علومهم وابتكاراتهم بالشيوعية مرة، والخروج على الإسلام مرة

أخرى، والعمالة، لأعداء العرب الذين يريدون إقتلاع الجذور الأصيلة لهذه الأمة العريقة الخالدة.. إلخ.

ولابد أن نعترف بأن ثورة ٢٣ يوليو لم تستطع أن تحقق كل ما أرادته فى هذا المجال.. كانت تريد أن تنقل العقل العربى - وبالتالى الإنسان العربى - من الحياة فى القرنين السادس والسابع إلى الحياة فى القرن العشرين (مع الإحتفاظ بجوهر ومبادئ المعجزة الكبرى - رسالة الإسلام التقدمية - التى تحققت فى القرن السادس والتى ستبقى إلى يوم الدين).. كانت تريد أن يصبح فى العالم العربى جامعات حقيقية، وعلماء حقيقيون، واختراعات، وأبحاث، وتكنولوجيا، وثقافة، وحضارة.. من إبداع العرب إسهاما فى تيار الحضارة العام من الجامعات، والمراكز العلمية المتخصصة فى البحوث، والمفاعل النووى، وأجهزة البحث فى تنمية الصحراء، وأكاديمية للبحث العلمى.. إلخ يتوازى مع ذلك كله مجلس أعلى للثقافة، وهيئة للكتاب، ووزارة للثقافة، وهيئة مسرح، وهيئة سينما، وتليفزيون. وكانت هذه هى الأجهزة أو الوسائل لتحقيق «التغيير» و «التنوير».. ولم تكن غاية فى ذاتها.

ولكن العقل العربى لم يستطع أن يستوعب الهدف البعيد وراء كل هذه الوسائل، فلم يدرك أن القضية أساسا هى قضية «التغيير» فى كل شئ، وأن هذا لتغيير يبدأ من «العقل» وليست هناك بداية أخرى.. ولذلك استطاعت القوى المضادة سواء داخل المجتمع

المصرى أو فى العالم العربى أو خارجه أن تتكتل وتحيط العقل العربى بسياج مسلح من الفكر الرجعى، ثم جاءت هزيمة ١٩٦٧ فرصة تاريخية نادرة أحسنت القوى الرجعية إستغلالها، فأخذت تخرج من مكامنها، وتخلع عنها «التقية» وتكشف أهدافها.. وترفع مبادئها.. وأصبح زحفها المدمر هو المنتصر وهو الذى نشكو بسببه من تدهور القيم وإنتشار السلبية وعدم الولاء وغياب القدوة وإنهيار الأخلاق.. ثم تعلو أصوات محترفى قلب الحقائق بالقول بأن الثورة هى السبب فى ذلك كله بينما كانت هى الضحية.. وأعداء الثورة كانوا دائما ـ ومازالوا ـ أقوياء، وأذكياء، وأغنياء، فامتلكوا وسائل القتل (المادى والمعنوى) كما امتلكوا القتلة المأجورين.. قتلوا الفكرة أو كادوا.. ووجهوا أسلحة التدمير إلى العقل العربى بإستخدام مناهج السوفسطائية (اليونانية ـ قبل سقراط) الذين كانوا قادرين ـ بالمغالطات المنطقية ـ على إظهار الحق باطلا، والباطل حقا، وإقناع الناس بالشئ ونقيضه حسب الأحوال..!

كان العقل العربى متخلفا، وكان تكوينه أقرب إلى التجاوب مع الدعوة إلى «الثبات» منه إلى قبول «التغير» أو التجاوب معه، وكانت قضايا «التغير» تستلزم نضالا غير عادى والدخول فى معارك صعبة، وكان العقل العربى ومازال ـ أقرب إلى الإستسهال والإسترخاء، فلم يقدر على إستيعاب مقاصد ومبادئ ثورة ٢٣ يوليو (الأعمق والأبعد من المبادئ الستة ومن الميثاق) وساعد على ذلك أمران: أولهما أن المعارضة للثورة سخرت كل أسلحتها المنطقية. والسياسية لتشويه كل

فكرة وكل عمل وكل شخصية تنتمى إلى الثورة، مستخدمة الأسلحة المحرمة أخلاقيا. . وثانيهما أن عددا غير قليل ممن كانوا محسوبين على الثورة، استغلوها بإنتهازية بالغة، وجعلوا مبدأ. . «أن الثورى أول من يضحى وآخر من يستفيد» فى وضع مقلوب فكانوا هم أول وأكبر من استفادوا وكونوا ثروات وتركوا التضحيات للشعب. . وكانت هذه حجة فى يد خصوم الثورة نالت من نقائها وطهارتها.

وحتى عندما نجحت ثورة ٢٣ يوليو فى بلورة نظرية القومية العربية وإكتسبت حماس الجماهير من المحيط إلى الخليج، إستطاعت القوى الرجعية أن تقدم للعقل العربى «نظرية مضادة» تكرس التمزق والتبعية.

بإختصار كانت ثورة ٢٣ يوليو تريد أن تغرس روح «التغيير» وكانت هناك قوى بالغة القوة والشراسة تقاوم وتغرس روح «الثبات» ومازالت هذه هى قضيتنا حتى اليوم.

«ثبات» أم «تغير»؟!

هذا هو التحدى المطروح على العقل العربى منذ يوليو ١٩٥٢ حتى الآن.

هل إنتهت ثورة يوليو؟

هل إنتهت ثورة ٢٣ يوليو بعد هذه الأعوام وبمعنى آخر هل يمكن أن تستمر ثورة كل هذه الأعوام ثم تبقى بعدها فتبدو بذلك وكأنها ثورة بلا نهاية؟

هذا السؤال ليس مطروحا الآن لأول مرة ولكنه طرح قبل ذلك بسنوات وإختلفت الإجابة عليه من مرحلة لأخرى. فى مرحلة كانت الإجابة هى أن الثورة انتهت وعاد المجتمع المصرى إلى السير بحياته الطبيعية. وأساس هذا الرأى أن الثورة هى لحظة من الزمان يتوقف فيها كل شئ، وتتفجر طاقات جديدة تهدم المجتمع القديم وتقيم أسس المجتمع الجديد، ثم ينقشع الغبار وتعود الحياة الهادئة ولكن فى طريق جديد ولصالح طبقات جديدة وفى إتجاه أهداف جديدة. وفى مرحلة أخرى كانت الإجابة أن الثورة باقية ومستمرة لأنها فى

حقيقتها أسلوب حياة لا يرضى بالإستسلام للواقع ولكن يصر على تغييره بالقوة وبسرعة دون إنتظار التغير التدريجى البطئ الذى يحدث فى الحياة العادية.

وطالت الفترة التى ساد فيها الرأى بأن الثورة قد إنتهت وكان لأصحاب هذا الرأى أسباب تؤيدهم، منها أن الثورة هى لحظة استثنائية فى التاريخ والإستثناء مقبول حين تكون هناك دواع له، لكنه لا ينقلب إلى قاعدة تحكم الحياة إلى الأبد، ومنها أيضا أن قادة الثورة الذين فجروها يوم ٢٣ يوليو انتهت أدوارهم ولم يعد على المسرح منهم أحد فهل يمكن أن تبقى ثورة غاب عنها قادتها..؟ ومنها أيضا أن المجتمع المصرى إجتاز مرحلة الشرعية الثورية ودخل منذ سنوات فى مرحلة جديدة هى مرحلة الشرعية الدستورية، وبعد أن كان قادة الثورة هم الدستور وهم القانون وهم ضمير المجتمع، استرد المجتمع حقه فى أن يقول كلمته، وفى أن يفعل ما يتفق مع إرادته وفى أن يشارك ويناقش قبل صدور القرار وليس بعده.

وبالرغم من وجاهة ما قيل. وبصرف النظر عن نوايا القائلين فمنهم من كان مخلصا وسليم النية ومنهم من كان عدوا للثورة يتربص لها منذ بدايتها إلى أن حانت فرصة ظنها سانحة لينقض على كل شئ تحقق فيها، وكل قيادة تصدت لها ليهدم سنوات الثورة ويلوثها، ويأخذ من سلبياتها ما يشوه به الإيجابيات الكثيرة التى غيرت الحياة والإنسان فى المجتمع المصرى. كما غيرت مكانة مصر

من خريطة العالم السياسية . . فإن القضية تستحق التأمل بموضوعية لنحدد موقفنا ونتحسس مواضع أقدامنا على الطريق الصحيح.

وفى إعتقادى أن الثورة بطبيعتها لها سمات تميزها. أولها أنها حركة شعبية، ينتفض بها الشعب كله ليأخذ أموره بيده وليس من صالحنا أن نتصور أن دور الجماهير قد انتهى. لأننا نحتاج إلى هذه الروح الثورية لتبقى لعشرات السنين القادمة إلى أن يتم بناء المجتمع المصرى العصرى، ويتم بناء الإنسان الجديد وتتم معارك تخليص الإرادة المصرية من رواسب الماضى ومخاطر الحاضر. وإذا تصورنا أن معاركنا فى الداخل والخارج قد إنتهت فإننا بذلك نستسلم للوهم.

ثم أننا يجب أن نفرق فى الثورة بين ثلاثة أمور. الأهداف، والوسائل، والإجراءات

فالأهداف فى مرحلة الثورة هى دائما أهداف طموحة، هى عادة أكبر من قدرة المجتمع على تحقيقها لكن المجتمع لا يعترف بمسألة الإمكانيات المحدودة، ويعوضها بإرادة التغيير غير المحدودة وتثبت الشعوب فى ثوراتها أن الإرادة أهم من الإمكانيات وأن الأهداف التى تبدو بعيدة بل ومستحيلة فى الظروف العادية تصبح ممكنة بل وأحيانا سهلة فى حالة الحشد الثورى. وهذا الحشد ليس فقط تجميعا للإمكانيات ولكنه مزيج من الحشد المادى والسيكولوجى والروحى وهو لهذا يولد فى المجتمع طاقات جديدة من الصعب تصور وجودها فيه فى الأحوال العادية فهل من مصلحتنا أن نتنازل عن وضع أهداف

ثورية لنرضى بأهداف متواضعة محدودة. . أم أن واجبنا أن نبقى هذه الروح الثورية التى تجعلنا فى حالة استنفار لكى نحقق المستحيل. . أو ما يبدو مستحيلا.

وكذلك الأمر بالنسبة للوسائل. فالثورة لا تعترف بوسائل التغيير التقليدية. ولا تخضع للروتين، ولا تعطى القيادة فى أى موقع لمن تستعبده النصوص الجامدة فى اللوائح. ولكن تكون الغلبة لوسيلة التغيير الثورية، وهى الوصول إلى الهدف من أقصر طريق، وبسرعة تفضل الركض على السير العادى. طبعا لابد من دراسة الهدف جيدا قبل التحرك ونحوه. ولكن حين تبدأ الحركة فإنها تكون قفزا وبكل قوة. . وربما كان مثال بناء السد العالى كافيا لتوضيح الفكرة.

وهذه الوسائل الثورية مازلنا نحتاجها لسنوات طويلة قادمة دون شك.

أما الإجراءات الثورية فهذه هى التى تحتاج إلى وقفة. ففى لحظة غليان الثورة يكون منطقيا ومبررا ألا تخضع الثورة للقانون لأنه يمثل مصالح المجتمع القديم والطبقات القديمة. ولذلك فمن المشروع فى هذه اللحظة أن يتوقف القانون لتتقدم الثورة وتهدم أصول المجتمع القديم وتقيم دعائم المجتمع الجديد وتضع قوانينها التى تعبر عن القوى ويالعلاقات الجديدة ليسود القانون مرة أخرى ويعلو فوق إرادات الجميع. ويخضع له الكل، ولا يسمح لأحد بأن يتصور أنه فوق القانون وهذه هى المرحلة التى نعيشها الآن، والتى نؤكد فيها

على الأمرين. سيادة الدستور والقانون وإستقلال القضاء من ناحية، وتعميق الديمقراطية والمشاركة الشعبية من ناحية أخرى.

وهنا نصل إلى أن الأهداف الثورية باقية ومستمرة ويجب أن تبقى وأن تستمر، والعقلية الثورية باقية ومستمرة، والوسائل الثورية باقية ومستمرة، ولكن الإجراءات الثورية انتهت ولن تعود مرة أخرى.. وبهذا المعنى نقول أن ثورة ٢٣ يوليو باقية حتى بغير قادتها الذين خرجوا ليلة قيامها.. لأنها فى حقيقتها ثورة شعب.. والشعب باق وقادر على أن يهزم أى ثورة مضادة كما أنه قادر على أن يدفع إلى مواقع القيادة دائما من بين أبنائه من يواصل بهم المسيرة. ولانها منهج فى اتفكير والعمل لايرضى بالأهداف الجزئية ولا بالاصلاحات الصغيرة وتسعى إلى تغيير المجتمع تغييراً شاملاً، فى كل النواحى، ومن الجذور.. وقد لا ترضى هذه الحقيقة البعض، لكنها حكم الواقع، وحكم التاريخ، ونداء المستقبل.

ثورة ٢٣ يوليو فى غربال التاريخ

ما حدث ويحدث ـ لثورة ٢٣ يوليو ليس غريبا، ثورة قامت لتحرر شعبا من التبعية والإستغلال، وخاضت معارك ضارية، وكان طريقها مليئا بالإنتصارات والهزائم.. وبالإنجازات والأخطاء.. وبقدر ما كانت عميقة وطموحة واجهت أعداء كثيرين، كانوا يزدادون مع كل مرحلة من مراحلها، شأن كل الثورات الكبرى فى التاريخ.

وما تعرضت ـ وتتعرض له ـ ثورة ٢٣ يوليو ليس شيئا جديدا.. فكل ثورة استهدفت تغيير مجتمعها تغييرا جذريا، وامتد تأثيرها إلى خارج حدودها، تعرضت لمثل ما تعرضت له ثورة ٢٣ يوليو، ندرك ذلك إذا لم تغب عنا حقيقة أن التاريخ حركة دائمة، والتاريخ لا يعرف الجمود أو السكون أو التوقف، والمجتمعات كائنات حية، تتنفس، وتعيش، وتنمو، وتصاب بالمرض، وتستعيد الشباب بما فيه

من طموح، أو تستسلم للشيخوخة والتصدع والتحلل، التاريخ صراع قوى، فى الداخل والخارج، والتاريخ ليس إلا سلسلة من الفعل ورد الفعل.. وأى ثورة فى التاريخ استهدفت تغيير الواقع السياسى والإجتماعى اصطدمت بمصالح القوى المسيطرة على المجتمع، وهى بالطبع قوى لها أسلحتها ونفوذها وقواعدها. فالثورة تغيير فى أسس المجتمع، وفى فلسفته، وقواعد البناء ذاته، هذا التغيير لابد أن يشمل اقتلاع أوضاع قديمة ولابد لذلك من أن يستخدم درجة أو أخرى من العنف، لأن الأوضاع القديمة راسخة، والمستفيدون بها يمثلون الطرف الأقوى، ولن يستسلموا للتطورات الجديدة إلا منهزمين. وكما فعلت كل الثورات، فعلت ثورة ٢٣ يوليو، غيرت الأساس والإتجاه والفلسفة والمنهج، واستخدمت العنف، وفى أثناء ذلك ارتكبت أخطاء لا ينكرها أحد ولا يبررها أحد، ولكن السؤال: هل كان استخدام العنف ضروريا فى مسار هذه الثورة أم أنه استخدام بغير ضرورة، وهل جاء استخدامها للعنف بمبادأة منها، أم جاء كرد فعل لإستخدام أعدائها للعنف ومقاومتهم للتغيير إلى حد تهديد الثورة ذاتها؟

بعد هذه السنوات تتعرض الثورة لهجوم من كل ناحية، وبكل سلاح.. منها أسلحة غير أخلاقية وغير موضوعية وغير نزيهة القصد.. لا يهم.. لأن ما يحدث من رد فعل بالهجوم المضاد أو الثورة المضادة لأى ثورة هو شئ طبيعى متفق مع منطق التاريخ: عرابى تعرض للهجوم الشرس، وظلت صورته لسنوات على أنه فلاح

جاهل قاد جيشا من الدراويش وبعد أن إنتهت مرحلة التشويه وتبددت أكاذيبها وسمومها عادت الحقيقة لتنتصر، وأصبح عرابى زعيما عظيما ومناضلا، وقائدا شعبيًا، كانت المؤامرة عليه أقوى منه ومن جيشه ومن شعبه. نفس الشئ حدث لسعد زغلول، وهناك من كتب ليشكك فى أن سعد هو قائد ثورة ١٩١٩، بل وهناك من أراد أن يشكك فى أن ثورة ١٩١٩ كانت ثورة أصلا.. ومع ذلك عادت الحقيقة لتنتصر وإستقر فى ذهن الجميع أنها كانت ثورة شعبية شاملة ذات أهداف سياسية وإجتماعية ومعلما من أبرز معالم التاريخ المصرى فى العصر الحديث.

الآن جاء الدور على ثورة ٢٣ يوليو.. جريمتها أنها وقفت فى وجه الإحتلال بكل أشكاله، والإستغلال بكل صوره، وأرادت أن تجعل للفقراء صوتا ونصيبا فى الثروة القومية. ورفعت شعارات الإستقلال، والقومية العربية، وبدأت فى إعادة ترتيب الأوضاع الإجتماعية.

هذه الثورة الكبرى كان لابد أن يأتى وقت يظهر فيه رد فعل طبيعى كبير وحاد وملئ بالمرارة. لذلك رأينا من يدعى أنها لم تكن ثورة بل كانت انقلابا أو مجرد «حركة الجيش»، ومن يتقول بأنها كانت من صنع أجهزة مخابرات أجنبية، وكلام كثير من هذا النـوع يعبر عن محاولات مستميتة لتضليل العقول، وتشويه الحقائق، وتصفية الحسابات.. لا بأس.. هى محاولات تشتد مهما تشتد

وسوف تنتهى حتما بأن تنتصر الحقيقة، وينصف التاريخ ثورة ٢٣ يوليو كما أنصف غيرها من الثورات الكبرى.

لقد رفعت ثورة ٢٣ يوليو مبادئها الستة: القضاء على الإستعمار وأعوانه، القضاء على الإستغلال وسيطرة رأس المال على الحكم، القضاء على الإقطاع، إقامة عدالة إجتماعية، إقامة جيش وطنى قوى، إقامة حياة ديمقراطية سليمة.. هل يمكن أن يختلف أحد على أن هذه المبادئ هى جوهر المطلب الشعبى المصرى منذ عام ١٩٥٢ وحتى الآن.. سارت الثورة فى طريق تحقيقها.. حققت أشياء ولم تستطع أن تحقق أشياء.. فإذا كانت المبادئ سليمة فليكن جهدنا الآن أن نراجع، وبعد المراجعة نعمل على تصحيح الأخطاء، والسلبيات، ونسعى لإستكمال ما لم يتم.. والدعوة للعمل مفتوحة دائما، لكل من يريد أن يعمل لبلده..

قد يقاوم البعض ويحاول أن يهدم الثورة وأعمالها كما يحاول أن يهدم المبادئ والمنهج.. لا بأس، فليحاولوا.. فهذا أيضا تكرر كثيراً فى التاريخ.. وكلها أشبه بقنابل الدخان.. تحجب الرؤية الصحيحة لفترة ثم تنقشع لتعود الأمور ناصعة أكثر.. وتبقى ثورة ٢٣ يوليو قوة دافعة، وتعبيرا عن إرادة شعب فى مواجهة التحديات التى تحيط به، ويسعى إلى بناء بلده دون أن يصيبه اليأس، كلما هدم له أعداؤه جدارا أقامه، وكلما أحرقوا له زرعا أعاد غرسه، وكلما شوهوا له إنجازاته بدد سحب التضليل وأعاد لها حجمها الحقيقى، وكلما صدروا له المشاكل تغلب عليها فى النهاية..

هذه هى روح ٢٣ يوليو.

كل شئ يمكن أن تنال منه المؤامرة، ولكن هذه الروح تبقى سالمة، قوية، بل ان المؤامرات تزيدها قوة، وهذا هو جوهر الشعب المصرى.. ومن يكابر عليه أن يعود إلى صفحات تاريخ عمره آلاف السنين.. أما ماذا سيبقى من ثورة ٢٣ يوليو فى غربال التاريخ، فالأمر المؤكد أن كثيرا من الصغار والصغائر التى رأيناها ونراها سوف تسقط من ثقوبه، وسوف يبقى منها الرجال الكبار، والأعمال الكبيرة، والمبادئ القومية والوطنية، ثم يبقى المنهج والطريق.

أسئلة عن المستقبل

هذا السؤال البسيط هو الذى يجب أن يشغلنا الآن، بعد واحد وأربعين عاما على الثورة ظلت فيها حقيقة قائمة لا يمكن إنكارها، تغلغل تأثيرها فى نسيج الحياة وفى خلايا العقول المصرية والعربية. ودون أن ننكر حق أعداء الثورة فى مواصلة سعيهم إلى الإنتقام منها ومن قادتها ومبادئها بكل الطرق، وحق أنصارها فى الدفاع عن كل إنجازاتها وإجراءاتها، فإن من حق «السلفيين» على الجانبين أن يستعرضوا أمامنا حسنات الفردوس المفقود الذى يتصورون إمكان استعادته، سواء كان هذا الفردوس هو نعيم الحياة.. أيام القصر والإحتلال.. أو كان أيام التأميم ومحاكم الثورة، فإن ذلك كله أصبح من آثار الماضى، ولم يبق مشروعا إلا التفكير فى المستقبل.

وليس غريبا فى شئ ذلك الهجوم الضارى على الثورة ورجالها،

فهذا ما يحدث الآن لكل ثورات التحرر الوطنى التى قامت فى الخمسينات ولكل حركات الإستقلال التى حاولت أن تشق طريقا صعبا بعدم الإنحياز، إلى أن انهار النظام العالمى كله، وظهر نظام جديد إقتضى المراجعة والتراجع.. فأصبحت مبادئ ماوتسى تونج فى الصين، وتيتو فى يوجوسلافيا، ولومومبا ونكروما وأمثالهما فى أفريقيا، ونهرو فى الهند.. إلخ موضع نقد وهجوم جعل أصحابها ينتقلون من خانة الأبطال الوطنيين والقادة التاريخيين إلى خانة المجرمين الذين جنوا على شعوبهم (!) وليس من المتوقع أن يجدوا الإنصاف من التاريخ إلا بعد سنوات حين يتم إنحسار هذه الموجة المضادة وإستعادة الشعوب مقدرتها على وزن الأمور بميزان صحيح.

ومع ذلك فنحن نعيش الآن فى عالم، وفى مجتمع مختلفين تمام الإختلاف عن عالم ومجتمع الخمسينات، ولذلك فإن معظم ما كان صالحا لتلك الفترة لم يعد صالحا الآن، وأى دعوة لإدارة حياتنا الحاضرة بأفكار وممارسات الماضى هى دعوة معارضة لمنطق التاريخ وحركة الحياة، فقد كان لثورة ٢٣ يوليو ضرورات وظروف دفعتها إلى إختيارات لم تعد صالحة، وبالتالى فإن ما حدث غير قابل للتكرار بحذافيره.

وبعيدا عن رغبات الإنتقام وتصفية الحسابات مع الثورة، عقد مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة ندوة علمية دعا إليها الدكتور على الدين هلال أستاذ السياسة المرموق ومدير المركز،

والتقى فيها مجموعة من المفكرين وأساتذة العلوم السياسية ليناقشوا بهدوء ـ وبدون التشنجات والتقلصات التى إعتدنا عليها ـ ماذا بقى لحاضر مصر ومستقبلها من ثورة يوليو؟ وتقول ورقة العمل المبدئية للندوة، إن أقصى ظلم للثورة أن يجاب عن هذا التساؤل بأنه لم يبق سوى بقايا الخراب والدمار الذى أحدثته، أو أن يقال أن التجربة بحذافيرها مازالت قابلة لتكرار ذات التطبيق الذى عرفته سنواتها الأولى. لأن هذه الثورة مثلت إستجابة سليمة للظروف التى أحاطت بها، ولما كانت هذه الظروف قد تغيرت الآن تغيرا جذريا فإن التساؤل يبدو مشروعا علميا وسياسيا. . وقد دارت هذه الندوة الكبرى بمناقشاتها حول أربعة محاور رئيسية: قضية الديمقراطية، وقضية العدالة الإجتماعية، وقضية الإستقلال الوطنى، وقضية الدور الإقليمى لمصر. . وتقر ورقة العمل ان الثورة حققت فى هذه المجالات قدرا من النجاح أو الإخفاق بدرجة أو بأخرى، وما يعنينا هو أن نحاول قراءة مدلولاتها فى سياق حاضر مصر ومستقبلها.

هكذا يفكر العلماء بحياد وموضوعية لا يجعلون من أنفسهم ممثلى الإتهام ولا محامى الدفاع ولا مهرجى السيرك لتسلية أصحابه الجدد، ولكنهم يحتلون ـ بجدارة ـ منصة القضاء، ليس بهدف إصدار أحكام بالبراءة أو الإدانة، ولكن بقصد إستخلاص ما يفيد الوطن فى حاضره ومستقبله، وهذا هو الإحتفال الذى يليق بحدث تاريخى كبير مثل ثورة غيرت وجه الحياة على الأرض التى تفجرت فيها.

فقضية الإستقلال الوطنى هى التى جعلت الثورة تخوض معارك فرضت عليها دون إختيار، ودفعتها إلى تأييد حركات التحرر العربى والإفريقى. . وكان خوض هذه المعارك ممكنا فى ظل النظام الدولى الذى كان قائما فى ظل الصراع بين قطبين، فكيف سيكون تطبيق هذا المبدأ فى عالم أحادى القطب؟ وإذا كان كسر إحتكار السلاح ممكنا فى ظل الصراع بين القطبين فكيف سيكون فى ظل القيود الحالية على إنتقال الأسلحة والتكنولوجيا العسكرية وفقا لمصالح الدولة أو الدول المهيمنة على النظام الدولى الجديد؟

وإذا كانت نقطة الضعف التى يسهل لخصوم الثورة توجيه السهام إليها هى أنها رفعت شعار إقامة حياة ديمقراطية سليمة ولم تحققه، وقتلت الإبداع والتعددية وإمكان تداول السلطة بالتنظيم السياسى الواحد، وبالزعيم الواحد، وبالفكر الواحد الذى يعتبر الخروج عليه جريمة يستحق صاحبها سلب الحرية، والسؤال الذى طرحته ورقة العمل فى الندوة بحثا عن أنسب الصيغ للمستقبل هو: إذا كنا نتحرك فى الحاضر مع العالم بخطى وئيدة بمرحلة تركز على التعددية السياسية - فى الفكر والتنظيم السياسى - فهل يعنى ذلك أن ميراث يوليو فى هذا الصدد قد سقط نهائيا، أم أن فكرة الإتفاق الوطنى حول دائرة عريضة من الأهداف مازالت واردة كتطوير لفكرة تحالف قوى الشعب العاملة السابقة، بحيث لا تنعكس فى تنظيم سياسى واحد، ولكن من الممكن أن تظهر فى صيغة «التحالف» أو «الجبهة» بين الأحزاب المتعددة التى تتفق فى المبادئ. . ؟

وكذلك فكرة العدالة الإجتماعية، هل سقطت وولى زمانها، بسقوط الإشتراكية فى العالم وإزدهار الرأسمالية، أم يمكن القول أن الدول الرأسمالية الغربية تضمن الحقوق الإجتماعية والإقتصادية لأفرادها.. وهل من الصالح العام أن يسير مبدأ الحرية الإقتصادية دون ضوابط لضمان عدم الخلل الجسيم فى توزيع الثروات لصالح الإستقرار السياسى والتنمية الإقتصادية، أم نطلق مبدأ الحرية الإقتصادية دون أية ضوابط أم نضع قواعد جديدة لتطبيق العدالة الإجتماعية فى ظل الحرية الفردية وإقتصاد السوق..؟

وأخيرا هل يمكن إنكار أن الدور الإقليمى لمصر فى ظل الثورة هو الذى جعل لها الدور القيادى والمكانة الدولية التى تتجاوز قدراتها الفعلية.. هل يمكن أن تخلع مصر عروبتها وإنتماءها الأفريقى.. هل سيحقق لها ذلك - إذا تم - مصالح أكبر مما لو أبقت على دورها ومسئوليتها فى الدوائر الثلاث التى حددتها الثورة لإنتماء وهوية الكيان المصرى وهى: الدائرة العربية، والدائرة الأفريقية، والدائرة الإسلامية..؟ كيف نختار طريقنا فى ظل ظروف عالمية وعربية جديدة؟

هذه الأسئلة لابد أن نطرحها ونناقشها ونبحث لها عن إجابات تتجاوز الهراء الذى يعيد ويزيد فى تمجيد أو هدم الثورة بمقولات لم يعد فيها جديد، وليس لدينا مؤرخون حقيقيون يمكن أن نطمئن إلى أحكامهم وموضوعيتهم، وإن وجدوا فليست أمامهم وثائق وحقائق

تاريخية يمكن أن يطمئنوا إليها للوصول إلى أحكام نزيهة وعادلة..
والأهم من ذلك كله أن الأحداث تجرى، والتغيرات من حولنا تجعلنا في كل يوم في عالم جديد، بينما «عواجيز الفرح» غارقون في الماضي، ولا يريدون منا أن نغادر الماضي أبدا لنظل واقفين بالبكاء والنواح على أطلاله، بينما الحاضر يكاد يفلت من أيدينا، والمستقبل يتشكل الآن أمام عيوننا، ولابد أن نلحق به، ونقفز ولو في آخر عربة في قطار يجرى نحو آفاق واسعة.. هل نفعل ذلك ونفكر في الغد، أم ندع قطار المستقبل يفوتنا لكي نعيش على أمل إستعادة عصر البشوات. والباب العالي.. وقصر الدوبارة..؟!».

القسم الثانى

حرب دخلت التاريخ

٥ يونيو في وجدان جيل جديد

ربع سكان مصر على الأقل من الشباب الذين لم يتجاوزوا الثلاثين من العمر، هم الآن على وشك تولى دورهم فى القيادة وتحمل المسئولية فى مواقع مختلفة فى الإنتاج والخدمات أو فى الفكر والثقافة، وهم يمثلون جيلا جديدا مختلفا عن الجيل السابق إختلافا كبيرا.. أنضجتهم التجارب والمحن... وعاشوا تقلبات وأحداث كبرى.. واضطروا إلى تغيير منطلقات فكرهم وفلسفة حياتهم أكثر من مرة، وأصبحوا أكثر قوة وصلابة، ولكن أثر النكسة مازال جرحا غائرا فى أعماق الوجدان لا يقل ألما عما قاساه الجيل السابق.

وإن كان أبناء هذا الجيل قد اكتووا ـ كغيرهم ـ بنار الهزيمة إلا أن ما بقى فى ذاكرتهم عنها لا يزيد على بعض مشاهد غامضة، ومازالوا يمارسون حقهم فى طرح أسئلة ظلت معلقة بلا إجابات، ومن

حقهم أن يجدوا إجابات صحيحة لا تصدر عن أصحاب الثأر التاريخى الذين اعتبروا هذه النكسة فرصتهم للنيل من ثورة ٢٣ يوليو وقادتها.

مازالت معظم الكتابات عن ٥ يونيو تعبيرا عن حملة مقدسة لتشويه كل شئ يتعلق بتلك الفترة، بينما اختفى ـ بالموت ـ كثير من شهود الرؤية وأكثر من بقى منهم أثر الصمت أما تحت وطأة الشيخوخة، أو زهدا فى دخول معركة ليس فيها حتى الآن فرصة للإنصاف، مادامت احكام الإدانة جاهزة قبل المداولة، حتى قبل الإستماع إلى أى مرافعة أو دفاع فى القضية.. والذين يتولون الحكم على النكسة لا يصلحون لولاية القضاء فيها لأنهم خصوم يسهل ردهم بسببها، وسوف يأتى وقت قريب يعود فيه الهدوء إلى العقل، ويظهر مؤرخون حقيقيون محايدون ليدرسوا لنا بمناهج العلماء ما جرى. بروح الإنصاف، ويفرزوا لنا الحقائق من الأكاذيب.

حقيقة أننا نشعر بأن معرفة التاريخ الحقيقى لأى حدث من الأمور الصعبة لعدم توافر الوثائق التى هى الأصل والأساس لدراسة أى حدث تاريخى، وكل ما لدينا حتى الآن شهادات لأشخاص بعضهم كان يعلم ولم يقل الحق، أو لم يقل كل الحق، أو لم يقل شيئا غير الحق، وبعضهم له مصلحة، فى تجريح كل القيادات والتشكيك فى كل السياسات، يضاف إلى ذلك أن من حاول الكتابة الموثقة تعرض لحملات جعلته يؤثر الصمت ترفعا عن الخوض فى معارك أقرب إلى

عراك الصبية منها إلى خلافات الباحثين، خاصة بعد أن ظهر فى السوق من يعرض بضاعة تاريخية حاضرة «تفصيل» وبالطلب، وفقا لأى مواصفات مطلوبة... مؤرخون أقرب إلى كتاب الدعاية السياسية... وصحيح ما يقال فى مثل هذه المناسبة من أن المؤرخ المحايد والموضوعى لا يظهر إلا بعد عشرات السنين ـ وربما أكثر ـ بعد أن يختص أصحاب المصالح والأطراف الضالعة فى الأحداث، ويتاح الإطلاع على الوثائق، ويسهل تقييم الخبيث من الطيب مما فى شهادات الرواة... ويضرب لذلك عادة مثل الثورة الفرنسية التى يعيد المؤرخون تقييمها الآن ـ بعد مرور قرنين كاملين ـ لأنهم يرون أنهم الآن فقط يستطيعون أن يصلوا إلى الحقيقة بغير ضغوط أو مؤثرات، ودون خوف أو إنتظار لثمن!

ويقال ذلك أيضا عن الثورة الروسية، وغيرها من الأحداث الكبرى، وهو أولى أن يقال عن نكسة ٥ يونيو.. وثورة ٢٣ يوليو.. وعن حقبة عبد الناصر، والسادات... وعن سائر الأحداث والتطورات الكبرى.

ولكن قد يمكننا الإنتظار لتفهم حقيقة أحداث كثيرة. والأمر بالنسبة للنكسة يختلف، لأن وصول جيل إلى مواقع القيادة فى وطنه وهو يعانى من شرخ وتصدع فى بنائه النفسى سوف يكون نوعا من المخاطرة، ويكفى هذا الجيل أنه تعرض لمحاولات، ومؤامرات، عديدة للعدوان على عقله وشخصيته وسلامته النفسية. فإن جيلا من

أجيالنا لم يتعرض للحرب النفسية بكل صورها مثلما تعرض لها هذا الجيل.

من المهم أن نتفق على أن نكسة يونيو لها أسباب عديدة، ولكن السبب الجوهرى الذى يسبق ما عداه هو غياب الديمقراطية وقد أثبتت النكسة ـ بالدم والخراب ـ أن ترك مقدرات وطن فى يد فرد ـ مهما تكن عبقريته ـ له وحدة القرار استنادا إلى حكمته، أو صدق رؤيته، أو الإلهام التاريخى الذى ينفرد به، هو مخاطرة يدفع الوطن كله ثمنها. وأن صدور القرار من المؤسسات الدستورية الحقيقية، وبعد مناقشة حرة حقيقية وتعبير حقيقى عن الإرادة الشعبية هو العاصم الوحيد من الوقوع فى الخطأ القاتل الذى قد يستحيل تداركه، ومع إختلاف كبير فى الطبيعة والظروف والأسباب، فلقد كان غياب الديمقراطية والموسسات والمشاركة فى القرار سببا فى الخراب الذى يعانى منه شعب العراق الشقيق الآن..

والحديث عن حرب ١٩٦٧ هو مناسبة لتأكيد حقيقة هى من مسلمات الفكر والواقع المصرى. هى قوة الوحدة الوطنية فى مصر فى أوقات الأزمة... لم يفرق رصاص العدو بين دم المسلمين والأقباط، ولم تظهر بعد النكسة نغمة التفرقة الطائفية بأى صورة من الصور، وظهرت فى المحنة حقيقة ومعدن الشعب المصرى الواحد... وكلما كانت المحنة شديدة كانت إختبارا أكبر لصدق النوايا وحقيقة النوازع. وقد عاش المصريون أسوأ أيام الهزيمة وأعظم أيام الإنتصار معا...

من حقنا أن نتساءل اليوم ـ بعد ٢٥ عاما ـ لماذا يصر البعض على أن يعمق فى داخل الوجدان المصرى شعور الهزيمة والهوان كلما تناول هذه النكسة. . ولا يريد هؤلاء أن يدركوا أن شعب ٥ يونيو هو ذاته شعب ٦ أكتوبر. . وان المعين الذى جاء منه جنود ٥ يونيو هو ذاته الذى جاء منه جنود ٦ أكتوبر. . الفارق فى المناخ العام. . والقيادة بما فى ذلك أساليب التفكير والاعداد والتخطيط وادارة المعارك. . لهؤلاء نقول أن الشعب الذى إنهزم فى معركة، تجاوز الهزيمة، وانتصر وإسترد ما فقد فى معركة أخرى ووقف على قدميه ورفع رأسه، وسوف يظل رافع الرأس.

مفاجأة أكتوبر

كانت فى معارك أكتوبر وإنتصاراتها أكثر من مفاجأة تحدث عنها الباحثون فى مراكز الدراسات الإستراتيجيةو فى العالم وأصبحت جزءا من مقررات الدراسة فى الكليات العسكرية ومعاهد الإستراتيجية مثل: المفاجأة فى قرار الحرب وسط جو داخلى وخارجى لم يكن مهيأ لإتخاذ مثل هذا القرار أو هكذا كان يبدو، ومثل المفاجأة فى إختيار الوقت الذى كان هو الآخر يبدو أبعد الأوقات المناسبة عن الأذهان.

ومثل المفاجأة فى السلاح وبخاصة الصواريخ، أو المفاجأة فى ظهور المقاتل المصرى بهذه القدرة على استيعاب السلاح واستخدامه بما لم يكن يخطر على بال.. أو مثل المفاجأة فى الموقف العربى الذى تحول فى لحظة من التمزق إلى التماسك بل وإلى الوحدة التى عبرت

عن نفسها فى الإستخدام العربى لسلاح البترول ولم يكن العالم يتصور إنها يمكن أن تحدث وبمثل هذه السرعة وهذه الصلابة..
هكذا الحديث عن حرب أكتوبر هو حديث عن سلسلة من المفاجآت كما بدت أمام العالم، حتى أن من يتابع ما كتب عنها فى الشرق أو الغرب سوف يجد نفسه أمام حرب يمكن تسميتها «حرب المفاجآت».
ومع ما فى ذلك من صدق فإن المفاجأة الكبرى فى هذه الحرب كانت هى «الإنسان» المصرى، حين ظهر فى لحظات الخطر بكل هذه القوة والصلابة وتحول من الإستسلام للهزيمة إلى إرادة لا تقهر لتحقيق النصر.

كان ذلك مفاجأة لأن الراصدين لحركة الإنسان المصرى تصوروا أنه إنهزم من الداخل منذ ٥ يونيو ٦٧، وتصدعت شخصيته، وإنهارت قواه الروحية، ولم يعد صالحا من الناحية العقلية والسيكولوجية لخوض معركة وأبعد من ذلك أن يكون هو فيها المهاجم.. واستراحوا إلى تحليلات صاغوها قالوا فيها أن التدمير الذى حدث فى ٦٧ أصاب صميم الشخصية المصرية بحيث استسلم المصريون للهزيمة وقر فى قرارهم أنها قدر مكتوب عليهم لن يستطيعوا تغييره، وما يتردد فى أقوالهم عن حتمية المعركة وضرورة الإنتصار فيها ليس إلا نوعا من التمنى، أو أحلام اليقظة، أو نوعا من تغطية موقف الهزيمة وإخفاء المشاعر الحقيقية فى داخلهم بأنه لا مهرب من هذه الهزيمة ولا فكاك.

قال ذلك المحللون لما يجرى فى المجتمع المصرى منذ ٦٧ وحتى ٧٣ وقالوا أكثر منه، إن المصريين تكيفوا مع الهزيمة كما تدل على ذلك نكاتهم وتعليقاتهم الساخرة أحيانا والتى تفيض مرارة أحيانا أخرى، وقالوا أن النكتة أصبحت تحدث لدى المصرى نوعا من الترضية الذاتية تريحه وتريح غيره ممن يستمع إليها، وتصرفه عن الواقع الأليم الذى لم يعد قادرا على تغييره..

وقالوا أن الحرب ليست مجرد جيش يواجه جيشا آخر، ولكنها مجتمع يدخل بكل عناصره ومقوماته فى لحظة الصراع مع مجتمع آخر، تماما كما تدور معركة بين إنسان وآخر، لا تتوقف نتيجتها على مدى قوة الذراعين أو الساقين لكل منهما وهى وسائل الإنسان فى الضرب والدفاع ـ ولكنها تتوقف على حالة القلب.. وضغط الدم.. ومستوى السكر.. وكفاءة الكلى والمخ والعضلات والشرايين والأعصاب والمخ.. الإنسان كله فى لحظة يحتشد، ويصارع، وإن تكن الأداة فى الصراع هى الذراع.. كذلك الجيوش ليست إلا ذراع المجتمع، والحرب هى لحظة يقف فيها كيان البلد كله بما فيه من ابنية سياسية وإجتماعية وإقتصادية، وبما لأبنائه من روح معنوية فى مواجهة كيان آخر.. ومادام المجتمع المصرى ـ كما تصوروا وقتذاك ـ لبس مستعدا لهذا الصراع فلن تكون المعركة إلا مجرد شعار مرفوع، وموضوعا للخطب تلتهب بعده الأكف بالتصفيق كعادة الشرقيين!!

وقالوا كثيرا فى هذا المعنى، حتى اطمأنوا إلى أقوالهم وتحليلاتهم

إلى أن جاءت الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر ليشهدوا صورة هى المفاجأة الكاملة، صورة المواطن المصرى البسيط يحمل سلاحه، ويواجه لحظة الخطر بقوة نادرة، ويقتحم النار وهو يهتف من أعماقه «الله أكبر» ويتحرك فى ساحة المعركة بمقدرة وشجاعة تفوق ما سجلته الأساطير عن حكايات البطولة وإنعدام الخوف من قلوب الرجال..

كان المصريون هم مفاجأة حرب أكتوبر ـ دون أن نقلل من أهمية المفاجآت الأخرى ـ فقد استطاعوا فى لحظة أن يرتفعوا إلى مستوى نادر من الوعى والإرادة والقوة، وإلى رغبة نادرة فى التضحية، وإلى قدرة نادرة على تحقيق المستحيل.. وأثبتوا أن أى هزيمة تلحقهم ـ مهما يكن حجمها ـ لن تستطيع أن تقتلهم، وأن الروح التى عاشوا بها منذ سبعة آلاف سنة وحققوا خلالها معجزات كثيرة، يمكن أن تختفى تحت السطح طويلا، لكنها سرعان ما تظهر فى اللحظة التى تشعر فيها أن كيانها ذاته فى خطر..

هذه المفاجأة لم تحدث فى ٦ أكتوبر ثم إختفت كما قد يظن البعض، ولكنها هى روح المصريين، دائمة، وباقية، فقط تحتاج إلى معركة حقيقية لتظهر فيها، وما أكثر المعارك التى تنتظرنا لإعادة بناء مصر على أسس جديدة، ولهذا فما أشد حاجتنا إلى إستعادة روح أكتوبر فى نفوس المصريين.

ولقد قيل أن من أسباب هزيمة ٦٧ أن الضباط المصريين كانوا

يقولون لجنودهم «تقدموا» دون أن يتقدموا هم، بينما كان ضباط أكتوبر يقولون لجنودهم «إتبعونا» ويكونون هم أول من تحرقهم لهيب المعارك، ولذلك كان عدد الضحايا من الضباط قريبا من عدد الضحايا من الجنود لأول مرة فى المعارك المصرية الحديثة. وهذا هو مفتاح النصر فى كل معركة.. أن تتقدم القيادات، وتضحى، وتضرب المثل، لتجد الجنود بالملايين خلفها، مستعدة للتضحية بكل شئ، ولن تكون الروح ذاتها غالية فى هذه اللحظة.

هكذا علمنا أكتوبر..

هل ما حدث فى أكتوبر كان فلتة أو صدفة كما يقول البعض. هل كانت مصر جسدا ساكنا ثم انتفضت فجأة فيما يشبه المعجزة يوم ٦ أكتوبر ثم عادت بعد ذلك جسدا ساكنا كما كانت.

مثل هذا القول فيه ظلم كبير. فالحقيقة أن يوم ٦ أكتوبر لم يكن الا لحظة فى التاريخ كشفت الغطاء، فظهر الجوهر من تحت الركام. وليس فى هذا غرابة.. انظر إلى بطل رفع أثقال، هل تراه رافعا أثقاله طوال النهار والليل، أم تراه هادئا ساكنا يعيش كما يعيش سائر الناس، ثم فى لحظة يستجمع قواه فيقدر على فعل ما لا يفعله سائر الناس..؟

ألا نقول أن هذه اللحظة هى المقياس الحقيقى للقوة والقدرة..؟ ولا تقاس القوة إلا فى هذه اللحظة دون سواها..؟ هكذا مصر

بالضبط، فإن لحظة ٦ أكتوبر هى لحظة إدراك، وإستنفار، كشفت قوتها الحقيقية، هذا أيضا رد على الذين يقولون أن ٦ أكتوبر غير قابل للتكرار. وعلى الذين يقولون أن روح ٦ أكتوبر لم تعد سارية فينا.. فكل هذه مقولات تسقط فى لحظة الإختبار.. لحظة الحسم والفعل.. لحظة إنطلاق المارد بحجمه الحقيقى.. وهى لحظة لا تخلق حقيقة جديدة ولكنها تكشف عن حقيقة موجودة وقائمة طوال الوقت ولكن لا تراها العيون.. ومجالها ليس الحرب فقط.. ولكن التكرار ممكن فى كل مجال للتحدى.

ومهما يقال عن عوامل النصر فى أكتوبر فسوف يبقى العامل الأساسى هو الإنسان المصرى.. هذا الإنسان الذى أكد أنه ـ بقوته وعقله ـ لا يقل عن القنبلة الذرية كما قال الرئيس مبارك. ولذلك فإن الإحتفال بذكرى أكتوبر ـ مهما تنوعت مظاهره ـ ليس له إلا معنى واحد هو تكريم المقاتل المصرى فى كل موقع وعلى أى مستوى.. من القائد الأعلى إلى أصغر جندى كان فى أبعد دشمة، أما التكريم الأكبر ـ فوق ذلك وبغير حدود ـ فليس هناك من يستحقه مثل الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم، لم يرفعوا عقيرتهم بالغناء، ولم يرفعوا اسم مصر بإنتصارات فى لعبة رياضية. ولكنهم رفعوا إسمها فى الميدان الحقيقى ـ والأسمى ـ الذى ترتفع فيه أسماء الأوطان، وصنعوا ـ حقيقة لا مجازا ـ العزة والكرامة لأمتهم، وسطروا تاريخ بلدهم بالدم وليس بالمداد، وببلاغة الموت وليس ببلاغة الألفاظ والأشعار.

ولعل أبلغ كلمات تترجم ما أريد أن أقوله شعار رأيته يملأ سماء العراق كلها من أقصى نقطة فى الجنوب عند «الفاو» إلى أقصى نقطة فى الشمال على جبال محافظة «أربيل» وهو شعار صحيح ولو انهم كانوا يتاجرون به ويفرغونه من مضمونه، ويطلقونه على شهداء العراق فى الحرب المجنونه ضد ايران بغير هدف يقول: «الشهداء أكرم منا جميعا» ففى هذا الشعار ليس فقط معنى الإعتراف، ولكن فيه معنى أن المقاتلين الأبطال الذين خرجوا من المعارك أحياء كانوا رجالا وحاربوا وعاشوا، أما الشهداء فلهم درجات أعلى لأنهم كانوا رجالا ودفعوا الحياة ذاتها ثمنا.. ولذلك فهم أعلى منزلة وأكثر استحقاقا للتكريم. وأعتقد أن هذا الشعار ذاته يعيش فى أعماقنا نحن أيضا، وأن لم يظهر - بعد - بمثل هذه القوة.

ولكى نترجم هذا الشعار - أو الشعور - النبيل ونعطيه معناه الحقيقى - بعيداً عن المزايدات الدعائية العراقية المعروفة - لابد أن يصبح يوم ٦ أكتوبر هو «يوم الشهيد» تنطلق فيه الدولة - بوزاراتها وأجهزتها وإذاعاتها وقنوات تليفزيونها - إلى بيوت الشهداء بيتا بيتا. ليعيش كل شهيد من جديد ويتنفس - من خلال أبنائه وأسرته - ويشاركنا إحتفالنا بهذه الذكرى.

وكل أسرة شهيد لديها مشكلة لابد أن تجد حلا لمشكلتها فورا فما دام الشهيد «أكرم منا جميعا» فإن مشاكل أسرته يجب أن تحل قبل مشاكلنا جميعا، وهذا يستدعى بعض قواعد جديدة تعطى الأولوية

لأبناء الشهداء فى كل المجالات والخدمات ليتحقق معنى القول بأن من يستشهد من أجل الوطن، فإن الوطن لابد أن يكون كفيل أبنائه وعائلهم بأكثر مما لو كان الشهيد حيا يرعاهم بنفسه.

وفى العراق أقاموا «للشهداء» نصبا يفوق فى ضخامته الخيال وتحته متحف كبير يجسم البطولات ويروى الوقائع وسير الأبطال، وعلى جدرانه عشرات الآلاف من اللوحات من الذهب الخالص الذى تبرعت به نساء العراق، وسيكتبون على كل لوحة اسم شهيد دون أن يغفلوا اسما واحدا. الفكرة هى أن يقوم هذا الصرح الشامخ رمزا تلتف حوله قلوب المواطنين ليشعروا يوما بعد يوم، وسنة بعد أخرى كيف ضحى كل هؤلاء لنعيش نحن حياتنا آمنين.

وقد لا يكون ضروريا أن نجعل لوحات شهدائنا من الذهب الخالص، وإن كان ذلك ليس كثيرا عليهم، ولكن لابد من بناء لائق تسجل فيه أسماء «الأكرم منا جميعا» لتظل حية فى الذاكرة القومية، وهم بالقطع ـ أحياء عند ربهم يرزقون، فى مرتبة لا يدانيها إلا الأنبياء.

إن نصر أكتوبر لم يأت من فراغ.. ولم يكن هبة مجانية.. لقد دفعنا الثمن.. وكان ثمنا غاليا.. غاليا جدا.. فكل بيت فى مصر فيه شهيد منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٧٣ ولذلك نقول إن المبالغة فى تكريم الشهداء ليس فى حقيقته إلا مبالغة فى تكريم المصريين جميعا، وتأكيد بأن مصر وطن لا تضيع فيه التضحيات.

فى مواجهة الأمية السياسية

٥ يونيو ٦٧ و ٦ أكتوبر ١٩٧٣ يومان فى تاريخنا المعاصر لا يفصل بينهما إلا أقل من ست سنوات، كان لهما أعمق الأثر فى تشكيل الوجدان والضمير الشعبى المصرى والعربى، وفى تغيير صورة الحياة ومسار الأحداث فى المنطقة كلها، وإمتد تأثيرهما إلى الساحة الدولية. مع فارق عظيم بين اليومين. يوم الهزيمة، ويوم الإنتصار.

ومع ذلك فقد استسلمت العقلية العربية ـ التى تميل بطبيعتها إلى الوقوف طويلا للبكاء على الماضى ـ بأكثر مما يجب ليوم الهزيمة ـ وتجاوبت بأقل كثيرا مما يجب مع حدث الإنتصار وكأنه محكوم على العرب بلعنة أقرب إلى اللعنة التى طاردت سيزيف فى الأسطورة اليونانية الشهيرة فحكمت عليه بأن يحمل الصخرة على صدره ويصعد بها التل المرتفع، حتى إذا بلغ قمة التل وتقطعت أنفاسه

تدحرجت الصخرة إلى السفح ليعود إلى رفعها من جديد دون توقف. . نفس اللعنة تقريبا تدفع بعضنا كلما حققنا إنتصارا، أن يعودوا بنا إلى جراح الهزيمة لا يستطيعون تجاوزها ولا يقدرون على إدراك أو إستثمار الإنتصار والتجاوب مع المتغيرات الجديدة التى جاءت معه.

كان يوم ٦ أكتوبر إنتصارا للعسكرية المصرية - هذا حق لا جدال فيه - دفعنا ثمنه من أرواح شهدائنا ودماء أبنائنا. وسيبقى سجل شهداء وضحايا هذه الحرب صفحة فخار لنا على مدى التاريخ.

وكل مرحلة من مراحل هذه المعركة لابد أن تملأنا بالشعور بالعزة. الدراسات التى أجريت قبل وضع الخطة. . التدريب. . القرار. . ضربة المدفعية. . ضربة الطيران. . العبور. . ستقف الأجيال القادمة طويلا أمام كل مرحلة منها بالتحية للرجال الأبطال الذين كانوا وراءها. . وستدرك أن مرحلة جديدة من تاريخ مصر بدأت بهذا اليوم. فإذا قيل أن مصر منذ الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ بدأت مرحلة البحث عن طريق جديد لبناء المستقبل وإذا قيل أننا فى ثورة عرابى عام ١٨٨١ كنا نبدأ مرحلة إثبات الشخصية المصرية أمام الإحتلال الإنجليزى التى إمتدت بزعامة مصطفى كامل وسعد زغلول إلى أن جاء ٢٣ يوليو بمفاهيم الحرية والعدالة الإجتماعية والقضاء على الإقطاع، وكانت ثورة إجتماعية بمعناها الواسع فإن ٦ أكتوبر نقطة تحول وإنطلاق على المستوى الوطنى والقومى لا تقل عما سبقها من أحداث مصيرية فى تاريخنا.

يوم ٦ أكتوبر كان يوما لدفن الأحزان التى ولدتها هزيمة ٥ يونيو فى مقبرة الماضى. . ولحظة دق فيها القدر بقوة على أبواب المستقبل ليفتحه على حياة جديدة. . لكن مشكلتنا بعد ٦ أكتوبر هى تفشى الأمية السياسية وهذه الأمية السياسية هى التى تعوض البعض - حتى من بين المثقفين والسياسيين - عن إدراك الحجم الحقيقى لما حدث. وهى التى تملأ بالضباب عقولهم فتسئ الفهم والتفسير. . الأمية السياسية هى التى تدعو البعض إلى تصور أن ٦ أكتوبر لن يوصلنا إلى أكثر مما وصلنا إليه، وهذا خطأ فى الفهم، وفساد فى ملكة الحكم على الأحداث التاريخية المصيرية، لأن هذا اليوم مازال عطاؤه متجددا بشرط أن نفهمه ونستثمره ونعمل على منواله. والأمية السياسية تصور للبعض أن انتصار ٦ أكتوبر غير قابل للتكرار. وهذا خطأ أيضا لأن تكراره ممكن ليس فى ساحة الحرب فقط ولكن فى ساحات العمل السياسى والإقتصادى والإجتماعى كلما أعددنا أنفسنا بمثل إعدادنا لهذا اليوم، بالتفكير العلمى والتخطيط الدقيق والحشد المنظم للقوى والإمكانات. وبحسن استخدام ما نملك من أسلحة، وبتوحيد الجبهة الداخلية والعربية وبتغليب مصلحة الوطن على المصالح الشخصية، وبالربط المحكم بين القوة المادية والقوة الروحية المستمدة من الإيمان فإن الإنتصار سوف يكون النتيجة الحتمية لعملنا ولا بديل سواه.

الأمية السياسية هى التى تحاول أن تشدنا ـ بعد ما حققناه من انتصارات أكتوبر ـ إلى معارك فرعية وثانوية لنتقاتل وتتبدد قوانا ونصبح شظايا تذروها الرياح. والأمية السياسية هى التى تحاول أن تقلل من أهمية العلم الذى انتصرنا به لتعيد الخرافة إلى حياتنا فنحلم بالنتائج دون أن نتخذ لها الأسباب، ونضع لها المقدمات المنطقية المؤدية إليها، أو نطالب بالثمار دون أن نغرس البذور ونرويها بالعرق. والأمية السياسية هى التى تعيد أهداءنا قاموس الشتائم والسباب القديم ليطعن به بعضنا بعضا فى الظهور، ونعيد فى جوها معارك أفسدت حياتنا السياسية قبل الثورة ولسنوات طويلة بالدوران فى حلقة مفرغة من المعارك العقيمة لا نتقدم بها خطوة إلى الأمام ولا يستفيد منها الوطن وأهله فى معركة البناء والمستقبل.

ولو دققنا النظر لأدركنا أن أجزاء من وطننا العربى تسود فيها الأمية السياسية بأكثر مما تسود فيها أمية القراءة والكتابة وكم من الأميين يتفوقون بوعيهم السياسى على كثير من أصحاب الشهادات. ولعلنا نذكر أن محمد على مؤسس مصر الحديثة كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة ولكنه كان عبقريا فى إدارة معارك الحرب والسياسة، أما الأمثلة التى تثبت العكس فهى أمامنا وحولنا تفوق الحصر.. تعوق خطونا وتهدد مسيرتنا فى كل لحظة وكل مكان.

٦ أكتوبر يوم أعاد إلى العرب قدرتهم على التحدى لبناء حياتهم

وفقا لمصالحهم. . النصر فيه لم يكن مصادفة ولكنه جاء وليد جهد وعرق أثبت قدرتنا على التفكير الإستراتيجى والتخطيط الجيد، وتفهم المتغيرات على الساحة الإقليمية والدولية. والحرب فى ٦ أكتوبر لم تكن حربا من أجل الحرب لكنها كانت حربا من أجل العدل والكرامة. . ومازال أمامنا فى هذا الميدان عمل كبير ومعارك طويلة.

٦ أكتوبر لا يكفى أن نخلده بالأناشيد. ولكن يجب أن نخلده بالعمل. ولابد أن يكون واضحا أمامنا حجم العمل المطلوب، وحجم التضحية اللازمة، ومن الذى يستفيد. وبقدر التضحيات التى قدمناها لإحراز النصر فى ذلك اليوم نحتاج إلى التضحيات كل يوم للحفاظ على هذا النصر ودفعه إلى الأمام. . إلى مجالات بناء الوطن، وتحقيق السلام وإقرار العدل بكل معناه وبكل أبعاده.

يدعونا هذا اليوم ـ بعمق تحولاته ـ إلى ضرورة إعداد برنامج قومى لمحو الأمية السياسية، ولتكن البداية فى سن التعليم على إختلاف مراحله، لكى يعرف الشباب تاريخ وطنه، وموقع انتصارات أكتوبر فى السياق العام لهذا التاريخ، بموضوعية، وبعيدا عن محاولات الزيف والتضليل التى نذر البعض نفسه لها، وبعيدا عن أصحاب الأصوات العالية الذين جعلوا رسالتهم تضليل الشباب وتشويه التاريخ والأبطال، وندرك أن مناهج التعليم الحالية وأسلوب

تدريس التاريخ وما يسمونه «التربية القومية» والعلوم السياسية لا يحقق شيئا من ذلك، وندرك أيضا أن أجهزة رعاية الشباب الرسمية تجرى وراء انتصارات فى ساحات كرة القدم بأكثر مما تسعى إلى البناء الحقيقى لعقل وروح وشخصية الشباب. ومن هنا فإن نداء ٦ أكتوبر لنا هو البدء بإعادة بناء مؤسسات التربية والرعاية والتوجيه، وفقا لفلسفة جديدة وفكر جديد، ولتكن هذه هى الخطوة الأولى لإستعادة روح أكتوبر التى نبحث عنها فى كل عام مرة.

أسلوب إدارة الأزمات: نموذج طابا

فى مراحل سابقة ـ ولسنوات طويلة ـ إعتدنا أن تكون إدارة الأزمات بالميكروفونات، والخطب الرنانة، والأغانى الحماسية، حتى جاء وقت كانت فيه الإذاعة والتليفزيون هى كل أسلحتنا، وجاء وقت كان فيه المطربون ومؤلفو الأغانى وملحنوها هم أبطال الجهاد الوطنى!

لكن أسلوب العمل فى إدارة الأزمات إختلف بعد أن أصبح المنهج السائد للعمل هو ذات المنهج الذى إتبع فى الإعداد والتخطيط والقيادة لحرب أكتوبر. . منذ أصبحت قيادة العمل الوطنى هى قيادة أكتوبر إختلفت فلسفة العمل، وطريقة التناول، وإنتقلنا من مرحلة رد الفعل إلى مرحلة الفعل. . والدليل على ذلك ما حدث فى قضية طابا. . وفيها من الزوايا ما يستحق التأمل الطويل.

كان الأسلوب المصرى المألوف فى المراحل السابقة هو اخفاء المشكلة عن الشعب أو «التهوين» من شأنها. واظهارها بحجم أقل كثيراً من حجمها الحقيقى ـ مهما تكن خطورتها على مستقبل البلد ـ وإظهار كل من يتناول حقائقها الخافية عن العيون على أنه خائن وعميل، أو ـ على أقل تقدير ـ حاقد ومتهور ومن ذيول الماضى الأسود ومن أعداء الشعب! .. ثم إطلاق قنابل الدخان الكثيفة بالخطب والتصريحات لفرض حالة من الشعور العام بأننا قادرون على قهر العالم كله وفرض إرادتنا على قواه الكبرى، فتسرى بين الجماهير حالة أشبه بالتنويم المغناطيسى لا تفيق منها إلا فى اللحظة التى ينهار فيها جبل الأوهام، وهذا هو تفسير ما إنتاب الشباب من شعور بالإحباط الشديد بعد أن عاش أباؤهم مرحلة الزهو الزائف.

وإعتادت الجماهير أن يقال لها أنصاف الحقائق، وفى كل أزمة كان المبرر السائد لإخفاء الحقيقة هو أن هناك ما يمكن أن يقال للناس وهناك ما لا يحق للناس أن يعرفوه. وهذا هو السر فى حالة الترقب التى كانت تسود فى كل أزمة انتظارا لما سوف يتكشف مع الزمن من جبل الجليد الذى كان يخفى دائما أكثر بكثير مما يظهر منه، ويكمن الخطر دائما فيما يخفيه.

أمام قضية «طابا» كان أسلوب إدارة الأزمة مختلفا. فمنذ اللحظة الأولى كان واضحا أمام العالم كله أن القيادة متمالكة لأعصابها، مقدرة للأزمة بحجمها الحقيقى، مدركة أن طريق الإنفعالات والمشاعر

والحماس ليس هو الطريق الصحيح لتحقيق الهدف. والأغانى الملتهبة لا تعيد حقا مسلوبا.. وما أكثر الأغانى التى قيلت فى مراحل سابقة حتى أصبحنا أكثر دول العالم غناء فى حب بلدنا وإنتصاراتها - وبلا منافس - حتى ولو كانت فوزا فى مباراة لكرة القدم..!

لم تحاول القيادة للحظة أن تهون من حجم الأزمة، بل كانت هى المبادرة بطرح كل الحقائق وتطوراتها كاملة على الرأى العام، وكان المبدأ الجديد الذى التزمت به - رغم خطورة وحساسية القضية - أن كل شئ يجب أن يعرفه الناس فى وقته دون تسويف ودون استهانة بعقلية الجماهير لأن قضايا الوطن الكبرى لا يجوز أن تكون حكرا لفرد أو حزب أو جماعة بأى حال من الأحوال.

مع بدايات الأزمة أيضا حرصت القيادة على أن يكون هناك توحد بين القول والفعل، أعلنت - وتعلن - أننا نحترم الشرعية الدولية. وقواعد القانون الدولى، وتحرص على السلام ولم يكن سلوكها إلا إلتزاما بهذه المبادئ وما فعلناه سيكون مثالا تاريخيا سوف تفيض كتب القانون الدولى فى تحليله وتقديمه كنموذج لكيفية حل المنازعات الإقليمية وفقا لقواعد الشرعية والعدالة، ولن يكون فى الأمر مغالاة أذا قلنا «أن قضية التحكيم فى طابا سوف تفتح صفحة جديدة فى العلاقات الدولية وسوف تعيد الأمل فى المستقبل.

لم يكن الطريق سهلا أمام القيادة سواء خارجيا أو داخليا. كانت هناك منابر إعلامية تردد إدعاءات تشكك فى سلامة الموقف المصرى،

وطبيعى أن يكون لنا فى الساحة الدولية خصوم، كما أن لنا أصدقاء وكانت هناك عواصم عربية - ليست كثيرة والحمد لله - تحاول استغلال قضية طابا للإساءة إلى الشعب المصرى وإلى قيادته، وفى الداخل تصورت بعض أحزاب المعارضة أن هذه الأزمة يمكن أن تكون ورقة ضغط قد يساعد اللعب بها - مع أوراق التموين والأسعار وغيرها - فى إظهارها بمظهر المعارض القوى، وأريق حبر كثير فى مقالات إشتد أصحابها فى النقد واشتط بهم الخيال، لكن القيادة التى حددت الهدف، وحددت طريق الوصول إليه، لم تصادر حرية الآخرين فى القول ولم تتهم أحدا فى وطنيته لكنها مضت فى طريقها على أساس أن العبرة دائما بالنتائج. ولعل ما جرى فرصة لتراجع بعض أحزاب المعارضة أسلوبها فى ممارسة حقها. فقد ترى أن المصلحة العليا تقتضى - فى المواقف الحرجة وأمام القضايا المصيرية وفى المعارك الإستراتيجية - أن تترك للقيادة حرية التصرف وتمارس هى حقها فى الرقابة اللاحقة، أى فى حساب من تريد بعد أن تدع لمن فى موقع المسئولية حرية ممارسة مسئوليته دون ضغط عليه، بل ان واجبها أن توفر له الجو الذى يجعله متفرغا للمعركة الخارجية دون دفعه إلى تبديد طاقته بالتلفت والإنشغال بمعارك داخلية لا جدوى منها، وتسانده اثناء مباحثاته، ثم تحاسبه بعد ذلك كما تشاء.

أبرز ما فى ملحمة طابا أنها أسقطت نهائيا نظرية «أهل الثقة» وأحلت محلها نظرية «أهل الخبرة» على أساس أن كل أبناء مصر هم

أهل ثقة، وليس من حق أحد ـ أو مجموعة ـ أن يدعى إحتكار الحرص على مصلحة البلد، فهو بلد الجميع، ومصيره هو مصير الجميع، ولذلك كان فى الصف الأول الدكتور وحيد رأفت ـ وهو عالم وفقيه فى القانون الدولى له مكانته ـ قبل أن يكون واحدا من قادة حزب معارض، وأختير فى هيئة الدفاع مجموعة من أكفأ الخبراء والأساتذة بصرف النظر عن إتجاهاتهم السياسية أو إنتماءاتهم الحزبية.. فى الحقيقة كانت مصر كلها فى هيئة الدفاع ولذلك فإن مصر كلها هى التى كلل جهدها بالتوفيق.

فوق ذلك أظهرت قضية طابا أننا حقيقة بدولة مؤسسات. فقد قامت وزارة الخارجية بدورها كاملا فى قيادة الجانب الدبلوماسى وإستعانت بكل الخبرات ـ من داخلها وخارجها ـ فى الجانب القانونى وإلتزمت حدود إختصاصها دون تزيد أو إنتقاص، ويكفى أن المعركة أدارتها وزارة الخارجية، وليست وزارة الإعلام.

حتى بعد صدور الحكم جاءت ظاهرة جديدة هى ضبط إيقاع الشعور بالفرحة بحيث لم تصل إلى درجة الهوس أو الإنفعال الهستيرى التى إعتدنا أن نراها فى مراحل سابقة. لكنها جاءت فرحة عاقلة تتلفت بالشكر لكل من أدى واجبه الوطنى، وتنشغل بالمستقبل وبالخطوات التالية.

نموذج طابا هو النموذج الأمثل فى إدارة الأزمات. والمنهج الذى إتبع فى تناول هذه القضية من بدايتها هو المنهج الكفيل بحل مشاكلنا

الكبرى. والترجمة العملية للقول بأن روح أكتوبر ـ حقا وصدقا ـ أصبحت سارية فى الكيان المصرى وفى العقل المصرى، وأن مرور السنين سوف يجعل هذه الروح ترسخ أكثر وتستقر فى أعماق الوجدان لتحكم سلوك كل فرد كما تحكم سلوك الدولة ومؤسساتها، بالفعل وليس بالإنفعال بعبقرية العمل الجماعى وليس بعبقرية الفرد، بالعلم والدراسة والمنطق والحجة، وليس بالإعلام الفج والخطب الملتهبة والكلمات الرنانة والصوت العالى، بأهل الخبرة وأصحاب المقدرة أولا وأخيرا.

بهذه الروح ـ وليس بغيرها. نستطيع «العبور» فى كل معركة، ونحطم تحصينات كثيرة ليست أقل من تحصينات خط بارليف.

دروس للمستقبل

بالرغم من أن عشرين عاما قد إنقضت على يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ إلا أن هذا اليوم مازال حيا فى الضمير القومى العام بدلالاته ومعانيه، وكلما مرت السنون يتأكد عبث المحاولات المستميتة التى تبذل من أكثر من جهة لإجهاض قيمة هذا اليوم. أو لسلب الزهو القومى الذى يملأ الوجدان العربى به، ويتأكد أيضا كذب الإدعاء بأنه كان مجرد قفزة فى السياق التاريخى، وإستثناء لا يقاس عليه.. فالعكس هو الصحيح.. فإن يوم ٦ أكتوبر هو اللحظة التاريخية الفـذة التى كشفت الغطاء. فظهر الجوهر، وتكشفت حقيقة مصر والمصريين.

ومع بداية العام العشرين لا نحتاج كثيرا للحديث عما تحقق فى هذا اليوم العظيم، فهو قائم وماثل بكل تفاصيله، ولكننا نحتاج إلى

بداية جديدة تمثل الخطوة الثانية لما بعد ٦ أكتوبر وعلى طريقه. فهذا اليوم بكل ما فيه من إعجاز يفوق حسابات البشر، لم يكن لحظة عارضة وطارئة فى مسار التاريخ المصرى. ولكنه يوم يمثل القوة الحقيقية للشعب المصرى لمن يريد أن يعرف ويقيس هذه القوة، وهو بالتأكيد قابل للتكرار فى كل الميادين، حربا وسلما.

ففى ذات اللحظة التى ذاق فيها الشعب المصرى مرارة هزيمة ٥ يونيو بدأت فى داخله لحظة الإستعداد ليوم ٦ أكتوبر، وجاء هذا اليوم بالعبور العظيم وتحدى المخاطر وعدم الخضوع لحسابات القوة المادية وحدها ليظل رسالة موجهة إلى كل من يظن أن مصر.يمكن أن تستسلم أو ترضى بالهزيمة. وليعرف من لا يعرف أن الهزيمة بالنسبة للمصريين ليست إلا دعوة لإستنفار قواهم لقتال جديد، ومقدمة لنصر لابد أن يحققوه مهما طال المدى. وليس أمامهم بديل آخر يمكن أن يتقبلوه، وهذا هو مسار تاريخهم منذ آلاف السنين لمن يريد أن يعرف مصر والمصريين.

كل عام يمر على هذه الحرب نحتاج إلى تأكيد عاملين أساسيين من عوامل النصر الذى تحقق لنا فيها نقيم عليهما معركتنا فى الصراع مع التخلف والأزمات القادمة.

العامل الأول: هو أن نعتبر المرحلة القادمة هى مرحلة إعادة بناء الإنسان، حقيقة أننا رفعنا هذا الشعار منذ سنوات طويلة، ولكننا لم ننفذه، ولم نحقق فيه شيئا ذا بال، ولا يزال المبدأ مطلوبا، فلقد

أثبتت حرب أكتوبر أن الإنسان المصرى هو المعجزة الحقيقية، والثروة الكامنة التى تفوق كل الثروات الأخرى. فالعبقرية العسكرية المصرية التى ظهرت كان يمثلها قادة من أعماق المجتمع المصرى، ليسوا من أبناء طبقة توارثت القيادة والسلطة، ولكنهم من أبناء الشعب، خرجوا من ضمير الوطن؛ من أسر عادية، فى كل مكان من قرى ومدن مصر وفى كل بيت من بيوت الأسر المصرية البسيطة. وقد أداروا معركة الكترونية معقدة واستخدموا أحدث علوم العصر، وأثبتوا عبقريتهم فى التخطيط وإدارة المعارك، وكان التنفيذ أيضا شاهدا على مقدرة المصريين على إستيعاب الأسلحة الحديثة والتعامل معها بكفاءة كاملة، وأثبتت القوات المسلحة أنها مستودع هائل للكفاءات والقيادات والرجال القادرين على أداء أدق وأصعب الأعمال بمقدرة وإخلاص. وأثبتوا أن الإنسان المصرى حين يخرج من قوقعته يظهر معدنه. ويصبح أقوى سلاح، لا يقل أثره فى الحرب عن القنبلة الذرية.

كل هذا يؤدى بنا إلى أننا ـ مع العام العشرين ـ فى حاجة إلى جيل من «الأكتوبريين» فى كل المواقع، بعد أن تأكد أن الشعب الذى فرضت عليه الهزيمة فى يونيو هو ذاته الذى حقق إنتصار أكتوبر، لم يتغير فيه إلا القيادة.. ونوعية التفكير والتخطيط. ولذلك فإن الباحثين عن روح أكتوبر لهم أن يطمئنوا إلى أنها قائمة وباقية ومستمرة ولا يمكن أن تموت. وإن كانت فى بعض الأحيان تدخل

مرحلة «الكمون»، فسرعان ما تظهر من جديد، وأمامنا الإنتفاضة الفلسطينية فهى لحظة ظهرت فيها روح أكتوبر الكامنة. وفى المجال الداخلى فإن ما تحقق من إنجازات فى مجالات الإنتاج والخدمات ـ وهو ليس قليلا ـ ما كان يمكن أن يتم إلا بفضل ما بقى من روح أكتوبر، وإذا كان فى بعض المواقع من يقود ويعمل بروح يونيو فسوف تقتلعه روح أكتوبر حتما، لأنها هى الجوهر الدائم وما عداها أعراض تظهر فى ظروف ولأسباب وقتية وتتبدد. وفى حسابات القوة لابد أن نضع فى تقديرنا القوة الكامنة فى الشعب المصرى، وهى قوة تحتاج إلى محرك بالفكر والتخطيط مثلما فعل القادة الذين وضعوا هذه القوة فى حساباتهم فى حرب أكتوبر وحققت ما يعتبره الآخرون معجزة.

وهذا يقودنا إلى حقيقة هامة هى أن إستمرار روح أكتوبر يتوقف على مدى إهتمامنا بالإنسان، ومما يقودنا مرة أخرى إلى عناصر بناء البشر وأولها: التعليم.. والديمقراطية، ولو جعلناهما على رأس الأولويات فى المرحلة القادمة وضاعفنا من خطواتنا فى العمل فيهما فسوف يقودنا ذلك إلى إعداد أجيال متلاحقة من «الأكتوبريين» صناع النصر فى كل ميدان.

والعامل الثانى لنصر أكتوبر كان نجاح قادتها فى إدارة «حرب الأسلحة المشتركة» وتأكد به أنه ليس هناك سلاح واحد يمكن أن يعمل، أو يحقق النصر، وحده، ولكن لابد من التكامل والتنسيق،

والعمل بين مختلف الفروع بروح الفريق. وكان هذا التعاون بين الأسلحة شيئا جديدا فى العمل العسكرى المصرى، ومنه يمكن أن نستخلص أن تحقيق التنمية ـ كمعركة ـ وإصلاح التعليم ـ كمعركة ـ والإصلاح الإقتصادى ـ كمعركة ـ ومواجهة الإرهاب.. إلخ كل هذه الميادين والقضايا يمكن أن نعالجها بالروح الفردية التى تجعل إصلاح التعليم مسئولية وزارة التعليم والإصلاح الإقتصادى مسئولية وزارة الإقتصاد، ومواجهة الإرهاب مسئولية وزارة الداخلية، أو أن نعالجها بروح أكتوبر بأسلوب «حرب الأسلحة المشتركة» بأن تكون كل الوزارات والهيئات والمؤسسات الحكومية والأهلية مشتركة فى التفكير والتخطيط والتنفيذ والمسئولية بتنسيق. ووضوح فى الهدف وتحديد لمسئوليات كل فرد وكل جهة.. إن منهج «حرب الأسلحة المشتركة» هو وحده الذى يمكن أن يجعلنا نحقق فى كل مجال ما حققناه فى حرب أكتوبر، ومنهج «الأسلحة المتفرقة» والجزر المنعزلة لن تكون نتائجه إلا ما حققته فى يونيو.

إن يوم ٦ أكتوبر هو يوم العسكرية المصرية.. صفحة ناصعة فى سجل إنتصاراتها عبر الزمن.. وهو يوم الشعب المصرى الذى إنتفض ورفع رأسه.. وستظل رأسه مرفوعة.. وسيظل يخوض معاركه بروح أكتوبر: العلم، والتخطيط، والقيادة، والإستعداد للتضحية، ودفع ثمن النصر، لأن النصر الرخيص ليس إلا هزيمة باهظة التكاليف، والنصر المجانى ليس إلا هزيمة مقنعة.. وإذا كان عدونا

هذه المرة هو الإثراء غير المشروع، والإنتهازية، والنفاق السياسى والإجتماعى، والغوغائية الفكرية بمعاركها الفرعية التى تهدف إلى إستنفاد طاقة شعبنا. فإن الشعوب الحية تعيش حروبا دائمة. ولا تفرغ من معركة إلا لتتهيأ لمعركة أخرى، وما تكاد تحرز نصرا حتى تصمم على تحقيق نصر بعده، وإذا كانت معاركنا صعبة، وأعداؤنا - فى الداخل والخارج - مراوغين، فإن النصر فيها لا بديل عنه.

طموحات.. ورجال

تأتى ذكرى ٦ أكتوبر هذا العام ذات طبيعة خاصة تختلف عما سبقها، فهذا هو إحتفالنا العشرون، وعند هذا الرقم لابد أن نتوقف ونفكر: ماذا فعلنا بهذا النصر التاريخى الكبير؟، وماذا بقى علينا أن نحققه..؟

إن نظرتنا الآن إلى حدث كبير مثل حرب أكتوبر لابد وأن تتأثر بالظروف الجديدة التى استجدت فى العالم وجعلت منه عالما مختلفا عما كان عليه فى عام ١٩٧٣.. فقد أصبحنا فى عالم يتغير بسرعة مذهلة تجعل ممكنا الآن ما كان مستحيلا منذ أيام ومتحققا فى مثل لمح البصر، ونرى خرائط جديدة تظهر فيها دول، وتختفى دول، وتقسم دول، وتضيع شعوب ضحايا لمرحلة التحول والغليان.. والعالم كله مشغول بإعادة الحسابات وإعادة ترتيب الأولويات.. كل ذلك يعنى

أن القرن الحادى والعشرين حين يأتى بعد ست سنوات فقط سوف يكون هناك عالم جديد، مختلف عن العالم الذى عرفناه منذ الحرب العالمية الثانية، وإذا لم نحسن إعداد أنفسنا لنحدد مكاننا فى هذا العالم بأنفسنا، فسوف نجد مصيرنا فى أيدى الآخرين ونكون مهددين بألا يكون لنا فى العالم الجديد مكان.

ما تحقق فى مصر حتى الآن ليس بالشئ القليل، لكن ما تبقى من الطريق هو الجزء الأهم والأخطر، ولذلك اقتضت مصلحة مصر أن تبقى قيادتها العليا لفترة ثالثة إستثناء غير قابل للتكرار، تمليه الظروف الدقيقة التى تستلزم إستمرار وإستقرار السياسة العليا، وبقاء الإستراتيجية القومية دون إهتزاز، ليس فقط من أجل إستكمال الإصلاح الإقتصادى حتى ينتهى طريقها الصعب وتبدأ مرحلة التنمية والإزدهار الإقتصادى، فهذا جانب واحد من الموضوع، ولكن من أجل شئ أكبر وأعم، هو بدء عملية تجديد شاملة آن أوانها. . عملية بناء وطن بالكامل لكى يناسب القرن الحادى والعشرين. . ومن الطبيعى أن يكون الإصلاح الإقتصادى ثم التنمية هما البداية. . وليسا هدفا نهائيا.

إن الإصلاحات الإقتصادية التى تمت أخرجت مصر من أزمة كانت وطأتها شديدة وكانت ستزداد شدة، ولم يكن ممكنا الخروج منها إلا بتضحيات أثقل وأكبر مما قدمنا، وأعباء لفترة أطول مما استغرقتها، ومع أن الرئيس مبارك وصف آثار الإصلاح الإقتصادى مرة بأنها

«الدواء المر» ومرة أخرى بأنها «شر لابد منه»، فكيف كان يمكن أن يكون الوصف المناسب للآثار إذا تأجل هذا الإصلاح؟ . .

لقد تعلمنا من حرب أكتوبر أن تحقيق الإنتصار مستحيل إلا بمعركة، وبتضحيات غالية، وبتخطيط جيد، وبرجال قادرين، مخلصين، لديهم العلم والعزيمة، وبسلوك وقيم إيجابية حافزة للعمل ومحركة للهمم، وبشعور جماعى بأن المعركة معركة الجميع وأن النصر والهزيمة ليسا لجانب من الشعب دون آخر، ولكنهما للشعب كله دون إستثناء. . وهذه بذاتها هى المفاتيح الضرورية لبدء مرحلة تأتى تلبية للإرادة الشعبية فى إعادة بناء المجتمع المصرى على أسس جديدة تساير مبادئ العالم الجديد.

ويقتضى ذلك ظهور مفهوم جديد للقيادة بمستوياتها المتعددة سواء فى الأحزاب السياسية. . أو الهيئات التشريعية، أو فى أجهزة الدولة وإدارة الإقتصاد. . مفهوم يقوم على أن القيادة «مسئولية» تخضع للحساب والرقابة والقانون، وليس هناك من يظل مؤبدا فى موقعه، لأن تجديد القيادات، يعنى تجديد الأفكار ومناهج العمل وطرق المعالجة للمشاكل، ويعنى أيضا عدم إيجاد فرصة لنشوء مراكز قوة في أى مستوى، كما يعنى عدم وجود قيادات لفترات طويلة جداً تسمح لهم بإخفاء الحقائق وإعادة تصويرها وتقديمها بشكل زائف لا ينكشف إلا بعد رحيلهم. . مفهوم القيادة الجديد أن تعمل لصالح الناس أولا وأخيرا وليس لصالحها. ولا لصالح الدائرة القريبة منها،

هذا المفهوم إذا تحقق فسوف يكون ممكنا أن تظهر روح جديدة بين الناس تجعلهم يتقبلون التضحية والعمل. .

إن إختفاء الشيوعية، وفشل الماركسية، لن يترتب عليهما إختفاء دور «الأيديولوجيا»، ولكن الأيديولوجيا ستبقى على أنها النظرية الدافعة للعمل، والمحركة للسلوك، سوف تبقى كحاجة إنسانية لا يستغنى عنها البشر، ولا يخلو منها مجتمع منتج، وهناك «أيديولوجيا» فى اليابان، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية. . وحيث يوجد مجتمع للعمل والإنتاج هناك منظومة أفكار ومبادئ وقيم تدفع الناس للتضحية والبذل والعرق وإعتبار العمل عبادة. . وتحدد أهداف ووسائل بناء المجتمع وفلسفته ونوعية العلاقات السائدة بين أفراده، وهذه الأفكار والمبادئ والقيم هى «الأيديولوجيا» وإن كان اللفظ قد إرتبط بالماركسية فى بعض الأذهان فعليهم أن يعيدوا فهمه فى ضوء الفكر العالمى الجديد.

هذه «الأيديولوجيا» التى نحتاجها فيها إيمان بالدين كقوة دافعة للعمل، واثقة بالعلم، بمنجزاته، ساعية إلى المستقبل الذى يبقى من الماضى على الثوابت الإلهية ويسمح بالتغير والتطور لكل ما هو إجتهاد إنسانى من صنع البشر. . هذه «الأيديولوجيا» لابد أن تتضمن أيضا رؤية جديدة لدور مصر ورسالتها بين شقيقاتها وفى محيطها الجغرافى، ولابد أن تسمح بتفاعل حر بين الآراء والإجتهادات المختلفة من أجل استمرار التجدد والحيوية للمجتمع.

في هذه «الأيديولوجيا» نحتاج إلى تحديد وتفصيل لكيفية رعاية الدولة للفقراء وفقا لبرنامج متكامل لضمان الحد الأدنى من حقوقهم في لقمة العيش، والتعليم والعلاج.. ففى الولايات المتحدة هناك «أيديولوجيا» لبناء المجتمع الأمريكي واضحة ومحددة فى ذهن القادة كما فى ذهن كل أمريكى بسيط فى حى من الأحياء النائية الفقيرة، تكفل له حقوقا تمثل الحد الأدنى من حقوق الإنسان إبتداء من التأمين ضد البطالة، إلى التعليم المجانى، إلى المعاش، والعلاج.. إلخ. ويكفى أن نعرف أن الموازنة الأمريكية لهذا العام قد خصصت ١٩ مليار دولار لهذه الرعاية التى تقدمها الدولة للفقراء لندرك أن دور الدولة لم ينته.

وفى هذه «الأيديولوجيا» لابد أن نحدد ونفصل ونجيب عن أسئلة بالغة الأهمية مثل: ما هو دور الإعلام وما دور الثقافة.. وما هو الهدف المحدد أمام التعليم فى مصر.. إعداد موظفين..؛ إعداد قوى عاملة تقابل إحتياجات المجتمع..؟ تعليم لمجرد التعليم وإعطاء شهادات..؟ تعليم للإستهلاك المحلى أم التصدير..؟ بمعنى أن يكون الخريج صالحا للحياة والعمل والتعامل مع مجتمعات أخرى، وما هى هذه المجتمعات..؟ أم أن يكون عاجزا عن العمل والتعامل إذا أصبح خارج الحدود؟.. وتحدد الأيديولوجيا أيضا الفلسفة الإقتصادية التى نتبعها.. هل ستكون الليبرالية عندنا مثل الولايات المتحدة، أم مثل بريطانيا، أم فرنسا، أم الدول الإسكندنافية وكلها ليبرالية، وكلها فيها قطاع عام وقطاع خاص وتتحمل الدولة مسئولية تنفيذ برنامج لحماية

الفقراء وتقديم الخدمات المجانية الأساسية لهم. وبينها خلافات، أى أنه ليست هناك تطبيقات ليبرالية واحدة.

هذه «الأيديولوجيا» الجديدة لكى تتبلور وتتحدد معالمها وخصوصيتها لابد أن تدخل فى حوار مع الأيديولوجيات الأخرى التى تبناها المثقفون المصريون فى مراحل سابقة وأصبحت الآن من مخلفات الحرب الباردة ومن بقايا المراهقة الفكرية والسياسية التى يكابرون فينكرون أنهم مروا بها لكنهم عندما يصلون إلى مرحلة النضج العقلى والعقائدى يعرفون كم من الحماقات الفكرية إرتكبوها، وكم من الشطحات والتجاوزات قاموا بها بحثا عن إنتصارات وهمية وتحت تأثير أوهام بطولات زائفة ساقهم إليها إندفاع المراهقة وطبيعتها المتهورة.

هذه «الأيديولوجيا» الجديدة التى نحتاجها بوصلة لحركتنا القادمة أهم عناصرها تحديد لكيفية تغيير الثقافة العامة للشعب المصرى، بما فيها القيم الإتكالية، والسلبية، والإستهتار فى السلوك الذى يتمثل فى الإستهتار بكل قاعدة. . إبتداء من إشارة المرور. . وإنتهاء بالقانون والدستور. . والإهتمام بالقشور والمظاهر ذات الطابع الدينى على حساب جوهر العقيدة كما يروجها الذين يريدون نشر الفوضى وإعادة المجتمع إلى الوراء، ويسعون إلى إرغامنا على التسليم لأصحاب الشعارات المبهمة الذين يرددون كلاما عاما غامضا دون برنامج مقنع ومفيد لمصر فى مواجهة إحتمالات المستقبل وتعقيداته.

ولذلك نقول إن الفترة القادمة لابد أن تكون فترة عمل غير عادى، يبدأ بإعادة دلالات إنتصارات أكتوبر إلى الضمير والسلوك، والإعداد الجيد لدخول القرن القادم.. وسوف تحاسبنا الأجيال القادمة.

رموز خط بارليف

بعد مرور عشرين عاما كاملة على حرب أكتوبر ١٩٧٣ لابد أن تبدو حقائقها بشكل مختلف، بعد أن علمنا بعض أسرارها، وتحدث عنها بعض قادتها، وأثمرت بعض نتائجها فى إستعادة العرب لثقتهم بأنفسهم، وعادت قواتنا المسلحة إلى مكانها التاريخى اللائق بها. . الآن تبدو الأمور بأحجامها الحقيقية. . ويظهر الحجم الحقيقى للرجال الذين شاركوا فى هذه الحرب التى تعتبر بحق ملحمة شعب بأكمله. . هؤلاء الرجال أصبح من حقهم أن يحتلوا مكانهم الطبيعى بما قدموه للوطن، بإعتبارهم: «الذين أعادوا الكرامة ورفعوا الرؤوس العربية». . ولن تنحنى بعدها أبدا. .

الآن نرى خط بارليف الذى كان الفصل الأول فى الملحمة يتجاوز بكثير حقيقة كونه مجرد سلسلة من التحصينات القوية أنشئت فى

سنوات وبجهود خرافية وأموال طائلة لتكون عائقا يجعل اقتحام قواتنا المسلحة فى وضع مستحيل». . حتى قال خبراء عسكريون عالميون أنه يحتاج إلى قنبلة ذرية لتدميره، لأنه أقوى عشرات المرات من خط «ماجينو» الذى دخل تاريخ الحرب العالمية الثانية. . يبدو الآن خط بارليف رمزا بالغ الدلالة، شديد الأهمية، ولو كان الأمر بيدى لفرضت على كل مصرى ومصرية أن يدرس ويفهم تفاصيل إنشاء هذا الخط الحصين فى مقررات الدراسة، ويكون سؤالا إجباريا متكررا كل إمتحان ليظل ماثلا وعميقا فى عقل ووعى كل مواطن فى كل مرحلة من مراحل عمره، إلى أن يدرك أن هذه هى مصر. . من الممكن أن تنهزم فى لحظة من لحظات التاريخ لأسباب مختلفة ونتيجة أخطاء إرتكبت. . ولكنها أبدا لا تقبل ولا تتعايش مع الهزيمة، ولا تستسلم. . لابد. . لابد أن تقوم وتقف على قدميها وترفع رأسها وتواصل مسيرتها. . ومن الممكن أن تقف أمامها حواجز، وسدود، وتحصينات، وقد يؤثر ذلك فيها لحظة من الزمن، لكنها سرعان ما تستعين بإرادتها التاريخية، وبرصيدها الحضارى، وبعقول أبنائها، وبروح الفداء فيهم، فيقدمون الفكر والدم، ويتغلبون فى النهاية على العقبات. ومن الممكن أن تقف مصر أمام ما يمكن إعتباره «المستحيل». . لكن عبقرية الوطن والإنسان فيها تغلب المستحيل. . وهذا ما حدث على إمتداد التاريخ فى كل عصوره. .

هذا الرمز بالغ الأهمية، ليس للحديث عن حرب أكتوبر فقط ولا عن خط بارليف.. ولكن للحديث عن الحاضر الماثل اليوم، وعن المستقبل الذى تلوح بعض ملامحه وسوف تتضح غدا.. من الممكن أن تظهر أمام الشعب المصرى عقبات وسدود وموانع مثل خط بارليف.. ليس فى الميدان العسكرى، ولكن فى الميدان الإقتصادى، أو السياسى، أو الإجتماعى.. ولكن فى النهاية سوف يكون مصير كل منها نفس مصير هذا الركام من الحجارة والأسمنت المسلح، الذى كان يوما تحصينات معجزة، ومنشآت هندسية ضخمة، يقول الخبراء فى وصفها أنها كانت مزودة بكل وسائل القتال والإقامة، إمتدت على طول المواجهة من القناة والتى تبلغ ١١٠ كيلو مترات، مجهزة بمرابض للدبابات بلغت ٣٠٠ دبابة، وكل منشأة من منشآتها التى بلغت ٢٢ حصنا، أكثر من طابق تبدأ من باطن الأرض حتى تعلو قمة الساتر الترابى، وحصنت مبانيها بالأسمنت المسلح، والكتل الخرسانية، وقضبان السكك الحديدية، والرمال، بحيث توفر وقاية كاملة ضد الإصابة المباشرة لجميع أنواع قذائف المدفعية، وقنابل الطائرات التى تزيد على ألف رطل، وجهزت معظم هذه النقاط الحصينة بخزانات للوقود والمواد الملتهبة، يصل الوقود منها خلال أنابيب خاصة إلى سطح المياه، وبإشعالها تتحول القناة إلى مسطح هائل من اللهب، ثبت بالتجربة أن حرارته بلغت ٧٠٠ درجة مئوية، وزودت كل نقطة حصينة بمواد ومخزون يحقق إكتفاء ذاتيا لمدة ١٥ يوما، وإكتفاء ذاتيا قتاليا يمكنها من صد كتيبة مشاة لمدة أسبوع..

وليس هذا هو كل خط بارليف. . ولكنه يمثل الخط الأول فقط وبعده سلسلة من الخطوط والسواتر الأخرى فى العمق كمرابض للدبابات، وقواعد لشن الهجمات المضادة فى إتجاه القناة. .

وبعد كل ذلك كان هناك خط التحصينات الثانى على مسافة من ٥ إلى ٨ كيلو مترات يضم ١١ موقعا حصينا، ومركز قيادة للقطاعات تحت الأرض محصنة تحصينا كاملا، وقواعد صواريخ مضادة للدبابات، ومرابض نيران مدفعية ذاتية الحركة. . وإحتياطات مدرعة ومشاة ميكانيكية، ووحدات مدفعية، ودفاع جوى، وكلها مدربة تدريبا عاليا، فهو ـ كما يقول المشير محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات فى حرب أكتوبر ـ : الخط المحصن الذى أجمعت آراء الخبراء والعلماء العسكريين على أنه خط دفاعى كامل التحصين، جعلت منه قناة السويس حالة فريدة فى التاريخ العسكرى، ويذكرنا المشير الجمسى فى مذكراته، وهو الرجل الذى دخل التاريخ العسكرى المصرى من أوسع أبوابه لدوره فى هذه الحرب بما سجله المؤرخ العسكرى الأمريكى ت. ديبوى عن عملية إقتحام هذا الخط بقوله: «إن كفاءة الإحتراف فى التخطيط والأداء الذى تمت به عملية العبور، لم يكن ممكنا لأى جيش آخر فى العالم أن يفعل ما هو أفضل منه». .

كل ذلك تزداد قيمته أضعافا حين نعرف أنه لم يكن لدى قواتنا التفوق فى التسليح، بل كان الأمر ـ كما قال القائد العام لقواتنا

المسلحة فى ذلك الوقت ـ الفريق أول أحمد اسماعيل على ـ فى إجتماع للقادة قبل الحرب «أننى أعترف بأن هناك أسلحة ومعدات ـ لدى إسرائيل ـ أكثر تقدما عما لدينا فى بعض التخصصات.. ولكن من قال أن السلاح الذى فى يدنا إنعدمت مقدرته أو غير كفء أو غير متطور..؟ إن من يقول ذلك يستهدف عن قصد إيجاد ذريعة لعدم القتال..»

كل ذلك والموقف العسكرى بالنسبة للقوات المسلحة المصرية فى ٦ أكتوبر ٧٣، كان أصعب مئات المرات من موقفها فى حرب يونيو ١٩٦٧، وإسرائيل تقف على الحدود التى إعتبرتها حدودا آمنة، وقد أصبح لها التفوق العسكرى من حيث كميات الأسلحة، ومن حيث وقوف قواتها على خطوط تمثل أفضل الأوضاع العسكرية الإستراتيجية لها، ومخابراتها لها شهرة فى معرفة الدقائق والأسرار والإختراق.. كما يروى رواة الحكايات والأساطير..

مع كل ذلك.. وأكثر من ذلك.. إنهار خط بارليف.. بالعقلية المصرية.. بالرجال المصريين. وبروح مصر الحقيقية.. وبالتخطيط. والعلم.. والتدريب.. وبالنظرة الواقعية دون خداع للنفس، أو قتل العزيمة.. بوسائل غير تقليدية، ولاتعتمد على تكنولوجيا متقدمة أو مرتفعة التكاليف.

فى نظرى أن الرموز فى خط بارليف يجب التركيز عليها.. ولذلك أتمنى أن تصبح مذكرات المشير الجمسى مقررة على طلبة

الثانوية العامة والجامعات، وأن يكون خط بارليف بالذات برموزه ودلالاته موضوعا يدرس بالتفصيل لتلاميذ فى المراحل المختلفة بما يناسب درجة نضج التلاميذ فى كل مرحلة، ليس فقط لمعرفة إنجاز هو موضع فخرنا على مدى الزمن، ولكن ليكون هذا منهجا أمام كل صعب يواجه المواطن أو يعترض مسيرة الوطن. . لكى تدرك الأجيال الجديدة من المصريين أنه ليس هناك شئ مستحيل. . ولكن هناك شيئا صعبا يحتاج إلى عمل وجهد وصبر وتخطيط وأن الإنسان المصرى أقوى من كل ما يمكن أن يقف فى طريقه، أو يعوق إنطلاقه اليوم وغدا. .

هناك خط بارليف سوف يقف أمامنا سدا مانعا لنمونا وإنطلاقنا الإقتصادى. . هناك ركام هائل من المشاكل. . وهناك تحصينات منيعة يتربص لنا وراءها وفى داخلها أعداء. . الجهل. . البطالة. . الإرهاب. . التفكير الخرافى. . محاولات الهيمنة والسيطرة. . خطوط بارليف كثيرة، ولكن سيظل المصريون هم هم، فى أعماق تكوينهم، بروحهم التى لا يمكن أن تستسلم. . أو تنهزم. . أو تموت. .

وكلما توقفنا أمام إنتصار أكتوبر، نقف فى ذكراها بالتحية لكل شهداء ٦ أكتوبر و ٥ يونيو وشهداء ١٩٥٦ و ١٩٤٨. . فإن تضحياتهم هى التى صنعت النصر. . ومن تراكم التضحيات يأتى ثراء التاريخ، وقوة الإرادة.

وأيضا هذه مناسبة للوقوف تحية للقوات المسلحة التى أثبتت وتثبت أنها مستودع الخبرة والكفاءة المصرية، والقطاع الأكثر تقدما فى الإدارة والتعامل مع التكنولوجيا الحديثة، كما أنها أكثر قطاعات الدولة انضباطا وتنظيما، وهى أيضا كانت وستظل مستودع الشجاعة والتضحية.. وفيها أغلى الرجال علينا..

هذه مناسبة، نشعر فيها بأننا أردنا وفعلناها.. وحققنا ما إعتبره العالم معجزة.. ومازال هذا الشعب محملا بنفس القدرات والطاقات والإرادة التى تجعله قادرا عى أن ينطلق فى بناء مستقبله واثقا من نفسه ومن قدرته على قهر كل مستحيل.. وتحقيق معجزات أخرى كثيرة..

ثأر جيل..

أتيح لى بحكم عملى أن التقى بعدد غير قليل من أبطال حرب أكتوبر، وسمعت منهم قصصا وروايات تفوق الخيال، وكل قصةمنها تستحق أن تكون كتابا، أو فيلما سينمائيا، أو مسللا تلفزيونيا.. ولم لا..؟ أليس من حق الشباب المصرى - والعربى - أن يكون على صلة بالجوانب المضيئة من تاريخ وطنه، وأن يعيش حياة الأبطال الذين لم يخلو منهم تاريخ مصر على مدى العصور..؟ وكل الدول تخلد بطولات أبنائها فى أعمال فنية دراميةو تساعد على تصور الأحداث، وتجعلها حية من لحم ودم أمام الأجيال المتعاقبة.. ومن بين كثيرين قابلتهم لا أستطيع أن أنسى هذا الشاب الهادئ، الفلاح البسيط، الذى يعيش الآن كموظف فى مجلس مدينة أبو المطامير بحيرة، ويسير بين الناس بهدوء وحياء، ولا تستطيع بسهولة أن

تصدق أنه بطل بكل معاني البطولة، وأنه حقق معجزة عسكرية دخلت التاريخ وضرب أرقاما قياسية لم يسبقه إليها أحد.

ولعلنا نذكر البطل عبد العاطي «صائد الدبابات» الذى أصاب ٢٢ دبابة إسرائيلية وخرج سالما. . أما هذا الشاب فقد أصاب ٢٦ دبابة إسرائيلية، ولم يستخدم إلا ٣٠ قذيفة، وساق عددا من الأسرى الإسرائيليين كان من بينهم العقيد عساف ياجورى القائد الإسرائيلى المعروف.

اسمه: محمد عبد المنعم المصرى

من مواليد قرية «شنباره» مركز ديرب نجم شرقية

تاريخ مولده له دلالة خاصة، فقد ولد فى عام ١٩٤٨ ورضع من أم يثقلها هم «النكبة». . والجيش المصرى يخوض حربا فى فلسطين بلا خطة ودخلت هزيمة ١٩٤٨ فى نسيج كيانه كه، وفى تكوين عقله الباطن.

كان فى الرابعة من عمره عندما قامت ثورة ١٩٥٢ . . وكانت أذناه تلتقطان أحاديث أهل القرية بالفخر والأمل فى جيش مصر، ورجاله.

وعاش الأيام الحزينة فى القرية بعد نكسة ١٩٦٧ وسمع من شباب القرية الذين إكتووا بنار المأساة وهم مجندون فى الجيش مرارة إحساسهم بالألم للإنسحاب بلا قتال.

وجاءه الدور للتجنيد، وتحقق حلمه فى أن يدخل سلاح المظلات، وكانت سعادته لا تقدر حين إختاروه للتدريب على ذلك المدفع الصاروخى الصغير المضاد للدبابات، كان سلاحا حديثا لا يختارون لإستعماله إلا من يجتاز إختبارات تؤكد إرتفاع مستواه فى اللياقة البدنية، وتحمل المشاق، ويقظة العقل، والذكاء، وسرعة البديهة..

كانت الدعايات الإسرائيلية فى أزهى عصورها، تكيل الإتهامات إلى الجندى المصرى، تصفه بالتخلف، والجهل، فكيف يقف فى مواجهة الجندى الإسرائيلى المتعلم المتحضر..؟ وكانت بعض هذه الدعايات تصل إلى أذنيه فتملأه رغبة فى أن يقف أمام الجيش الإسرائيلى كله.. ليصيح فيهم.. تعالوا واحدا واحدا لنرى النتيجة..

فى إختبار الرماية العملية بعد أنتهاء فترة التدريب الشاقة كان ترتيبه الأول، ولم يخطئ هدفا. وإنضم إلى كتيبة عملها أقرب إلى أعمال الفدائيين.. وكان جنديا لامعا.. صمد فى فترات الصمود.. وشارك فى معارك الردع، ومعارك الإستنزاف.. وقبل المعركة إختاره المقدم صلاح حواش قائد الكتيبة الذى إستشهد بطلا خلال المعارك بعد أيام من إندلاع حرب أكتوبر.. وقال عنه قائده أنه «إكتسب لياقة جسمانية فائقة ويستوعب كل خصائص سلاحه، حاد النظر كالصقر، ثابت الأعصاب مثل نمر.. خفيف الحركة.. إلخ.

وجاءت فرصته.

عبر القناة مع الموجات الأولى، فى الثالثة مساء ٦ أكتوبر، وكانت الدبابات الإسرائيلية قد تقدمت فى محاولة لتدمير القوات المصرية قبل أن تنضم إليها القوات المدرعة.. وبدأ طابور طويل من الدبابات القوية (ام ـ ٦) ـ وهى أحدث دبابات فى العالم فى ذلك الوقت ـ يحاول تطويق الكتيبة.. وبدأ الفلاح المصرى يعمل.. لحظة من الصعب تصوير ما فيها من إثارة.. الصحراء الواسعة وفيها كتيبة مظلات مصرية فى مواجهة طابور طويل من الدبابات.. وإنطلق أول صاروخ من مدفع محمد المصرلى فإنفجرت دبابة وإرتفع اللهب.. بعد دقيقة أجهز زملاؤه على أربع دبابات أخرى.. ودفعت إسرائيل بقوة ثلاثين دبابة وبدأ الهجوم المدرع رهيبا.. غبار الدبابات يتصاعد، والرجال صامتون يحبسون أنفاسهم فى إنتظار المواجهة: الرجل أمام الدبابة، والله ثالثهما.. وتدخل الدبابات مدى الصواريخ فتنطلق.. الرجال يدمرون ١٧ دبابة.. وزملاؤه ينظرون إليه وعيونهم تلمع بالإبتسام وسط النار والدمار.. إن وقوع الدبابة فى مدى صاروخه كان يعنى هلاكها، ولا يبقى منها إلا فحيح ودخان.. همس قائده فى أذنه: عظيم.. دمرت وحدك ٨ دبابات.. وكان فى غمرة الانفعال والحماس لايدرى بالضبط كم دبابة اصاب..

بعد لحظات تتقدم تسع دبابات إسرائيلية منطلقة بأقصى سرعة وهى تطلق كل أسلحتها ورشاشاتها، وقذائف الدبابات تسقط حول

الرجال وهم فى العراء.. ويقف محمد المصرى.. فى لحظة نادرة من لحظات البطولة الإنسانية ليطلق الصاروخ فيدمر دبابة.. ويلحظ دبابة متميزة فى موقعها بين الدبابات الأخرى فيدرك أن فيها قائد الهجوم الإسرائيلى.. يصوب نحوه: الله أكبر.. وتشتعل الدبابة.. ويهرول منها العقيد عساف باجورى قائد اللواء ١٩٠ مدرع.. ويستمر محمد المصرى فى القتال: وفى لحظة ينال ترقية من رتبة عريف إلى رتبة الرقيب.. ويظل يضرب.. والدخان يملأ سماء المنطقة.. وزملاؤه يصيحون.. الله اكبر.. عشرين.. الله اكبر واحد وعشرين.. الله اكبر.. وحين توقفت المعارك جلس وسط زملائه يستمع منهم ومن رؤسائه تفاصيل المعجزة التى حققها دون أن يشعر: تدمير ٢٦ دبابة..

وأصبح واحدا من قلة تحمل وسام نجمة سيناء وهو أعلى وسام عسكرى فى مصر.

حين رأيته سألته:

ـ ماذا كان شعورك وأنت تواجه الدبابات والنيران والموت..

قال بصوته الهادئ الخجول:

ـ لا أدعى المعجزات.. أنا إنسان مصرى عادى جداً.. أنا فلاح.. كنت أريد فرصة لأرفع رأسى بين أهل قريتى وأقول لهم أن الجندى المصرى يستطيع أن ينتصر إذا وجد الفرصة.. والفرصة يعنى خطة.. وتدريب.. وقادة..

فلاح مصرى واحد وقف فى مواجهة أقوى الدبابات فى العالم ودمر وحده ما يزيد على نصف كتيبة دبابات..

سألته:

ـ وما هى اللحظة التى لا تفارق حياتك..؟

قال:

ـ هى اللحظة التى كنت أصوب فيها الصاروخ إلى أضعف نقطة فى الدبابة وهى الخط الذى يفصل بين «البرج» وجسم الدبابة، فأجد برج الدبابة يطير فى الهواء وتشتعل النيران فيها وصيحات زملائى حولى: الله أكبر ترن فى الصحراء وتعلو فوق أصوات الدبابات والقذائف وتهز الجبال.. وكان يساعدنى من داخل حفرة الموقع إثنان من زملائى يقومان «بالتعمير» وتجهيز الصاروخ ويصيحان معا من داخل الحفرة: إضرب.. إضرب يا محمد..

لم يكن محمد المصرى يدرك حقيقة ما فعل إلا يوم ٨ أكتوبر حين إستدعاه قائد الفرقة اللواء حسن أبو سعده، وما أن رآه حتى وقف مصافحا وهو يقول له: «أهلا يا بطل» وشد إنتباهه منظر غريب، بالقرب من القائد كان يجلس أحد العسكريين الإسرائيليين بزى عسكرى مميز، وشعر طويل، وكان مطرق الرأس حزينا، وما أن رأى محمد المصرى حتى رفع رأسه وظل يحدق فيه، وقال له اللواء حسن أبو سعده وهو يشير إليه: «هذا هو العقيد عساف ياجورى» قائد

اللواء ١٩٠ مدرع الإسرائيلى، لقد أراد أن يرى الرجل الذى دمر دبابته . .

ومرت الأعوام. . وعاد محمد المصرى إلى عمله فى مجلس مدينة ديرب نجم، وتزوج فى عام ١٩٧٩ وأنجب حسام، وعليه، وهشام. . ثم إنتدب للعمل فى مجلس مدينة أبو المطامير. .

تراه فلا تكاد تميزه عن غيره من ملايين المصريين فى كل شارع وكل مصلحة وكل حقل. ولكن جوهر المصرى الكامن فيه، وفى كل المصريين، ظهر فى اللحظة المناسبة.

البطل الثانى عبد العاطى. . من مواليد قرية «شيبة قش» مركز منيا القمح شرقية عام ١٩٥٠ ـ حصل على دبلوم زراعة ثم جند فى نوفمبر ١٩٦٩، ثم حصل على بكالوريوس زراعة بعد تسريحه من الخدمة.

يقول عن نفسه فى حياء:

متزوج ولدى أربعة أبناء «وسام ـ حسام ـ أحمد ـ بسمة» أعمل الآن فى الإدارة الزراعية.

عندما كنت فى العاشرة من عمرى توفى والدى. . كنا خمسة أشقاء أنا أصغرهم، نمتلك فدانا ونصفا فأتاح لنا ذلك حياة متوسطة. . تعلمت من قريتى «شيبة قش» الكثير. . الأصالة، إنكار الذات، التواصل الوجدانى مع الآخرين.

بعد تجنيدى تم تدريبى على الصواريخ المضادة للدبابات، كان سلاحا حديثا وقتذاك وله أهميته وسريته وكنت أدرك ذلك وإنتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذى اخرج فيه من نطاق التدريب إلى الواقع القتالى الحى..

بعد النكسة كانت بيوتنا جريحة وحزينة، شئ ما فى الناس إنطفأ.. هل هى الروح، أم أنها النار اختفت تحت الرماد، ضربات العدو لنا كانت تحت الحزام.. الغضب الحزين الصامت ينتظر، وكنت معه فى إنتظار..

التحقت سريتنا بالفرقة ١٦ مشاه كتدعيم مضاد للدبابات، كنا فى سرابيوم بالقاع الأوسط. هل كانت مصادفة أننا أصبحنا فى موضع القلب تماما من قواتنا..؟

كنت رقيب أول السرية حين عبرنا القناة فى الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر ٦ أكتوبر. وكانت مهمتنا هى تأمين القوات المترجلة، وإحتلال رأس كوبرى على الضفة الشرقية، وتأمين المنطقة على مسافة ثلاثة كيلو مترات..

لم يكن الموت يخيفنى حقيقة، ولكننى كنت أخشى برغم ثقتى المطلقة فى قدراتنا أن تتكرر مأساة النكسة..

مازلت أذكر إلى الآن أول دبابة دمرتها وكانت على بعد عشرة كيلو مترات من القناة.. كانت تزحف مولولة ـ حين أطلقت الصاروخ نحوها ـ تنعى حظها العاثر..

في يوم الثامن من أكتوبر دمرنا فى كمين للعدو ثلاث عشرة دبابة وثلاث عربات نصف جنزير، وبعد إنتهاء الكمين فوجئنا بأننا محاصرون. . نزلنا فى منخفض تحيطه المرتفعات من كل جانب. . كنا كالصيد الذى وقع فى الفخ، ماذا نفعل. .؟ لم يكن أمامنا إلا أن ننصب الصواريخ على أقصى زاوية إرتفاع لها «٢٢٠ ديسيمتر» وهذا لم يحدث أبدا فى التاريخ، وكانت إذا ما أطلت دبابة على مرتفع لتضربنا تفاجأ بصاروخ يدمرها. . دمرنا لهم الكثير من الدبابات بهذه الطريقة ولم يستشهد منا أحد، وكسرنا الحصار.

كانت المعركة الأكبر مع اللواء ٢٩٠ مدرع الإسرائيلى. دمرنا الكثير من دباباته ولم يهرب منها غير ستة عشر دباباته دمرتها العناصر المضادة للدبابات بالفرقة الثانية.

بالطبع هذا الكلام يؤكد ما قاله لى محمد المصرى بأنه هو الذى دمر دبابة عساف ياجورى قائد اللواء ١٩٠ مدرع.

يواصل عبد العاطى حديثه قائلا: كنت أشعر فى هذه الأيام بأننى ملك المنطقة. . نعم. . فأى إنسان يمتلك سلاحا قويا جدا ويؤمن بالله. . ويدافع عن وطنه بكل أرادة وقوة. . لن يشعر بغير ذلك. . دون إدعاء لغرور أو كبر. .

لم أدمر ثلاثة وعشرين دبابة من فراغ، ولكن بالعرق فى التدريب حتى إكتسبت المهارة المطلوبة للمقاتل.

لم أحارب من أجل تكريم أو وسام، ولكنه ثأر جيل.

نعم كرمتنى الدولة.. ومنحتنى وسام نجمة سيناء، وكنت ضمن المكرمين فى جلسة مجلس الشعب التاريخية، وأعترف بأن شعبنا غمرنى بأكثر مما أستحق، فأنا إبن من أبنائه ولم أقم إلا بواجبى نحو الله والوطن..

أحمد الله أن وهبنى حب الناس وأعلنها صراحة بأن حياتى أرخص من دمعة إبن لشهيد من شهدائنا الكرم فى الحروب المتتالية..

نظرات الناس لى الآن أوسمة أعلقها على صدرى كل صباح ومساء كورود لا تذبل.

لو منحنى الله الحياة أكثر من مرة لوهبتها لك يا وطنى كل مرة..

* * *

مجرد نموذجين من بين أبطال كثيرين يجب كتابة قصة بطولة كل منهم بالتفصيل فى سجل شرف نحفظه للأجيال المقبلة. أليس هذا تاريخا مشرفا؟

وإذا كانت أمة فيها مثل هذه النماذج للبطولة التلقائية.. فهل يمكن أن تفرط فى تاريخها.. وهل يمكن أن تعرضه للنسيان.. وهل يمكن أن تغيبه عن وعى شبابها..؟

قرار يغير التاريخ

مهما طال الزمن فسوف يظل الموقف العربى الواحد فى معركة البترول عام ١٩٧٣، لحظة من اللحظات التى غيرت التاريخ بحق على حد تعبير صاحب قرار الحرب الرئيس الراحل أنور السادات.. لحظة من اللحظات التى تكشف جوهر هذه الأمة. ففى الظاهر كانت الأمة العربية شظايا متفرقة، ولكنها فجأة إنتفضت لتظهر على حقيقتها، أمة واحدة. ولابد أن تبقى فى ذاكرة الأجيال العربية هذه اللحظة حية تلهمهم الطريق الصحيح لأنها ليست إلا تعبيرا عن حقيقة قائمة، ودائمة، ولا يمكن النيل منها مهما أحيكت المؤامرات، وأحكمت الخطط من جانب أعداء الوحدة العربية. وهؤلاء الأعداء يعرفون أكثر من غيرهم كيف يمكن أن يتغير حال العرب من التخلف إلى التقدم، ومن الضعف إلى القوة، ومن الإستسلام للمقادير إلى إمتلاك زمام المبادرة والقرار، وفرض الإرادة، وصنع المستقبل. فقط حين تتوحد كلمتهم.

ولأنى أحب أن أتأمل من حين لآخر تفاصيل هذه اللحظة، وأرى أنها حتى الآن لم تأخذ حقها من الدراسة والتعمق فى فهم دلالاتها، فقد وجدت بعض ما أسعى إليه فى رواية السيد حسن التهامى الذى كان قريبا من الرئيس الراحل أنور السادات أثناء فترة الإعداد لحرب أكتوبر ثم الإعداد لإتفاق السلام مع إسرائيل، ورواية حسن التهامى كما عاشها داخل كواليس السياسة المصرية والعربية تشير إلى حقائق وأسرار، من بين أسرار كثيرة لم تتكشف تفصيلاتها بعد.

يقول السيد حسن التهامى: فى الأسبوع الأخير من يونيو عام ١٩٧٣ عقد الرئيس السادات إجتماعا لمجلس الأمن القومى فى إستراحته بالقناطر، حضره جميع أعضاء المجلس، ولأول مرة عرض الرئيس فى هذا الإجتماع على هذا المستوى من المسئولية - ظروف دخول الحرب مع إسرائيل، وضرورة إسترداد الأرض. وأعطى الكلمة لكل عضو فى المجلس ليدلى برأيه بصراحة، وإكتفى هو بكلمات قليلة قال فيها:

- إن إجتماعنا هذا لإقرار مبدأ فى ضوء ما ترونه لدخول المعركة بعد أن ضاعت كل الجهوذ السياسية والإتصالات الثنائية والدولية، ووصلت إلى طريق مسدود، ولم يبق أمام مصر إلا أن تستعيد حقها بقوتها المقاتلة. وقد سبق أن أعلنت إحتمال دخول الحرب أكثر من مرة، إلا أن إجتماعنا هذا إجتماع تاريخى سنستعرض فيه سويا إمكانات خوض المعركة العسكرية فى ظروفنا التى شرحتها وتعرفونها،

فالمعركة أصبحت ضرورة واجبة، وأود أن أستمع لكل من يريد أن يدلى برأيه بصراحة، بدافع من ضميره الوطنى، ومن موقع المسئولية.

وأدلى كل من حضر الإجتماع برأيه. وكانت جلسة صريحة. شرح فيها وزير الدفاع موقف الجيش فى تلك المعركة بإختصار ووضوح، وتحدث الآخرون، وتحدث حسن التهامى ـ كما يقول فى روايته فقال: إن المعركة معركة عربية إسرائيلية وليست مصرية إسرائيلية، ولذلك فلابد من إتخاذ إجراءات إشتراك الدول العربية المعنية معنا فى الحرب، وفى مقدمتها دول المواجهة بطبيعة الحال، وإحكام التنسيق معها، لتكون المعركة معركة واحدة وشاملة.. وأن عروبة المعركة معناها إشتراك وحدات عربية مقاتلة مع الجيش المصرى فى خط القتال، وهذا من شأنه أن يحرك كل دولة بمؤسساتها وشعبها ليتفاعل مع المعركة بإلتزاماتها.

وإنتهى الإجتماع والشعور السائد أن تبدأ المعركة بعد ثلاثة شهور تقريبا، لأن طول المدة التحضيرية قد يضر بقضية الحرب. وبعد إنتهاء الإجتماع تحدث التهامى إلى السادات عن أهمية سلاح البترول كجزء لا يتجزأ من قومية المعركة، وأن مفتاح هذا السلاح عند الملك فيصل، أو على الأقل يبدأ من عنده.

وتقرر فى هذه اللحظة أن يسافر التهامى لمقابلة الملك فيصل، وطلب السادات من سكرتيره الخاص السيد فوزى عبد الحافظ إرسال

برقية عاجلة إلى الملك فيصل يقول فيها: «حسن التهامى فى طريقه إليك وسيأتيك من طرفى لمشاورات هامة».

يقول حسن التهامى أنه وجد الملك فيصل قد استشعر موضوع هذه المشاورات بحسه المرهف فقد جمع كبار المسئولين فى المملكة، وكأنه بذلك قد جمع مجلس الأمن القومى السعودى.. وتحدث التهامى أولا عن إحياء التصنيع العربى ودعمه، وأن ما تنتجه مصر هو للعرب جميعا، وعرض أن المصانع الحربية المصرية فى حاجة إلى ٣٠٠ مليون دولار ولم يتردد الملك فيصل وقال بهدوء: سوف نلبى إحتياج المصانع الحربية بما طلبت. وأشار إلى الجالسين بنظرة تعنى أن يتولى كل منهم التنفيذ فى إختصاصه، وبعد ذلك بدأ التهامى فى شرح مهمته.

قال التهامى: لقد جئت للتفاهم معكم على الوضع السياسى والمعركة.

فسأل الملك فيصل: طمئنى أولا ما هو وضعكم.؟ هل ينقصكم شئ.. ذخيرة.. سلاح.. أى شئ..؟

وبعد مناقشة إطمأن بها الملك فيصل على أوضاع القوات المسلحة المصرية بدأ التهامى طرح الفكرة التى جاء من أجلها وهى أن المعركة العسكرية ليست مصرية إسرائيلية، بل هى معركة مصرية دولية، ولهذا فإننا بفكرنا الإستراتيجى نرى وجوب وجود عنصر ضاغط

حقيقى على القوى العالمية حفاظا على مكتسبات المعركة، وذلك يتمثل فى نقطتين:

أولهما: التوافق العربى الذى ينبغى إحياؤه بما فى ذلك العمل العربى المشترك فى المحافل الدولية. وتنسيق هذه المواقف والبدء فيها من الآن هو جزء من إدارة المعركة بالمعنى الأكبر والأوسع. ولتوسيع دائرة المسئولية العربية ومشاركتها فإننا سندعو الدول العربية الشقيقة للإسهام معنا فى القتال على أرض المعركة ولو بوحدات قتالية رمزية.

وبعد فترة قصيرة من تبادل الآراء إنتقل الحديث إلى النقطة الثانية، فقال التهامى:

ـ أما النقطة الثانية فهى أن ٥٠٪ من قوة المعركة تكمن فى سلاح البترول..!

وعندئذ تطلع الجميع إليه، وإرتسمت ملامح الجدية الشديدة والإهتمام على ملامح الملك فيصل.. ودار نقاش طويل.. قيل فيه أن هذا القرار صعب، وإستفسر البعض عن الموازين والحسابات السياسية بالنسبة لهذا القرار وكيفية إستخدام هذا السلاح، وكونه فعالا يفيد المعركة، أو قد تكون له آثار عسكية. وتساءل وزير الدفاع السعودى عن الموقف العسكرى إذا إستخدم البترول كسلاح، وموقف الدول الكبرى من دول الخليج البترولية.

وتحدث التهامى عن إحتمالات الموقف الأمريكى والأوربى

والمواقف الأوربية المستقلة عن أمريكا، وأن الأساس فى سياستنا مع دول أوربا هو وضع مبدأ المصلحة الذاتية لكل دولة من دول أوربا كمقياس للتعامل معها، والتعامل مع أوربا كلها من ناحية المبدأ على أن لها مصالح مباشرة فى دولنا، فإذا شعرت أوربا بأن هناك تغيرا جديا فى السياسة العربية البترولية، وأن الضرر قد يلحق بها نتيجة تبعيتها لأمريكا، فيكون لها موقف مختلف، والميزان هو السعى لزرع مفاهيم جديدة للعقلية الأوربية تجاه قضية الشرق الأوسط والعدوان الإسرائيلى على الأرض العربية، وعن إستعداد المجتمع العربى ككل لبناء علاقاته مع أوربا على أسس المصالح ومن أهم هذه المصالح البترول، والأسلوب السياسى الأمثل مع أوربا يبدأ بالتلميح، ثم التصريح، ثم الإنذار بالقطع عن من لا يحترم إرادة العرب فى المعركة القادمة، ولنترك للرأى العام الأوربى، وللإقتصاديين والسياسيين فرصة الشهور القادمة لإستيعاب حجم الخسارة إذا لم تتجاوب دول أوربا مع المصالح العربية العادلة، وهدفنا الحقيقى ليس تحطيم المصالح مع أوربا، بل يجب أن تظل أوربا متيقنة بأن أمل التفاهم مع العرب لم ولن ينقطع، ولتتجنب التصادم مغ العرب، لا سيما والقضية ليست مواجهة عربية أوربية، ولكنها مواجهة لوضع الحدود التى تحرم إسرائيل من المساندة اللانهائية التى سبق أن تمتعت بها فى عدوانها على العرب وإحتلالها لأراضيهم ورفضها لتنفيذ القرارات الدولية.

وإستطرد التهامى فى شرح كافة الإحتمالات لردود أفعال أمريكا ودول أوربا بما فيها إحتمالات التدخل العسكرى للسيطرة على مواقع البترول، وإنتهى إلى أن التدخل العسكرى مستبعد بغير رضا دول الخليج لأسباب عديدة شرحها بالتفصيل.

ثم أخيرا وجه التهامى حديثه للملك فيصل قائلا:

ـ إننى لا أمتدحك.. ولا أقول ما ليس بحق، وأقولها صراحة أمام هذا الحشد الموقر بأن القرار الآن هو قرار فيصل.. إن قرارك الآن قرار التاريخ.. وأنا أعلم مع من أتكلم، وكما يعرف غيرى من هو فيصل..

فقال الملك:

ـ أنا لى رجاء..

ثم إستطرد:

ـ طال عمرك.. أنا إقتنعت.. وأسأل الله أن يوفقنى فى عملى.. ولكن أليس فى خططك أن تقابل رؤساء دول الخليج لتناقش معهم هذا الموضوع كما ناقشته معى..؟

وأجاب التهامى:

ـ لن أتحرك من هنا لألتقى برئيس دولة أخرى، لأنى إذا ناقشت هذا الموضوع مع أى رئيس دولة أخرى فى الجزيرة فقد يطلب منى

العودة فى الرأى إلى الملك فيصل، ولذلك أنا أقولها بصراحة أن القرار يبدأ من هنا. . وبناء على هذا القرار سنحدد موقفنا. . وعليك أنت أن تقول للتاريخ بقرارك نعم أو لا.

وسكت الحاضرون جميعا. . وقال الملك فيصل:

- طال عمرك. . أنا إقتنعت. . .وسأفكر.

ومعلوم عن الملك فيصل التروى فى القرارات لأنه يلتزم بما يقول، وتعبيره «أنا إقتنعت وسأفكر» هو الرد الدبلوماسى المعروف عنه والذى مؤداه أنه سيفكر فى التنفيذ، وليترك لنفسه حرية إختيار التنفيذ بأسلوبه هو.

وأعاد التهامى سؤاله:

- إنها معركة. . وأريد أن أخرج من هنا بفهم واضح محدد، مع إحترامى لما تقول، وتقديرى لكل كلمة، وفهمى لها تماما.

فقال الملك فيصل:

- إننى قلتها فى صيغة إن شاء الله. . والله سبحانه وتعالى يمكننى من الوفاء بالوعد. . وسأقطع إن شاء الله.

قال التهامى:

- سأبلغ الرئيس السادات شخصيا بذلك، لتكون حسابات المعركة واضحة تماما.

فقال الملك فيصل:

- على بركة الله.. إعملوا ما عليكم.. والله يوفقنى أن أعمل ما على.. وأنا عند كلمتى إن شاء الله.

وحين روى التهامى للسادات تفاصيل اللقاء قال السادات:

- هذا قرار يغير التاريخ.

وقال التهامى

- إننا نتعامل مع فيصل.. فهو وحده الذى يستطيع إتخاذ مثل هذا القرار.. لا قبله حدث.. ولا بعده.

وإلتقى السادات بالملك فيصل يومى ٢ و ٣ أغسطس ١٩٧٣. وعند مغادرة الطائرة مطار الرياض قال السادات:

- يا حسن.. الآن فقط نستطيع أن ندخل الحرب.. وأنا واثق فى كلام فيصل لأنه إذا وعد أنفذ وعده.

لا يمكن أن يتحدث مؤرخ منصف عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ ولا يضع قرار الملك فيصل فى موضعه الصحيح، ولا يضع الملك الراحل فى مكانه التاريخى كقائد عربى تاريخى كان له فضل كبير فيما تحقق من إنتصارات أكتوبر فلقد كان سلاح البترول قوة ضغط لا تقل عن قوة ضغط القوات العسكرية المصرية، كانت آثاره السياسية هائلة، وكشف الغطاء عن معدن هذه الأمة، التى تبدو فى الظاهر أشتاتا متفرقة، لكنها وقت الخطر تتوحد كالجسد الواحد، ولقد إخترت أن

أقدم رواية حسن التهامي لأنه عاش فى قلب الأحداث، وكان داخل الغرف المغلقة، وإستطاع أن يروى التفاصيل الحية والدقيقة لموقف سيظل فى التاريخ خالدا. . وأتمنى أن ينشر مذكراته كاملة ليعرف العرب جانبا اكبر من حقائق تاريخ مشرف.

وللذين يظنون أن إنتصارات حرب أكتوبر فى التاريخ المصرى والعربى يمكن أن تكون هى الأخرى سلعة للبيع، أعتقد أن مثل هذا المشهد المهيب وحده يكفى ليفيقوا وليدركوا أن فى حياة الشعوب مواقف، ورجال، وقرارات، لا يمكن نسيانها، أو التفريط فيها. . ولأنها معادن نفيسة، فإن مرور الزمن يزيدها قيمة، ويرفع من قدرها أمام الأجيال، ويزيل ما علق بها من غبار الموتورين والمتاجرين بالتاريخ.

القسم الثالث

صــدام ونكســة ٩٠

لحظة الانتحار القومى

اعادة فرز سلة الأفكار

جدل الإسلاميين

أين حزب الله ؟

هل يعيد التاريخ نفسه

من يخسر ومن يستفيد

حسابات خاطئة

هل جاء وقت المحاكمة

عريضة اتهام

محاولة لفهم ما جرى

هل كانت ـ فقط ـ مؤامرة ؟

مصدر الخطر

* فقه العدوان

* توظيف الإسلام

* ازالة العدوان على العقل

* ما تبقى من المؤامرة

* أسرار ترسانة صدام

* أوان التفكير بصوت عال

* وقت الاختيار

لحظة الإنتحار القومى !

الذين يحاولون تصوير صدام حسين على أنه عبد الناصر التسعينات يرتكبون خطأ بالغا فى حق أمتهم ومستقبلها، إنهم أولا يتجاهلون الخلافات الجوهرية بينهما سواء فى شخصية كل منهما أو تركيبته الفكرية أو قدرته عل تفهم الظروف الدولية والإستجابة لها. وإن كانت هناك نقطة يتفق فيها الرجلان فهى إن كليهما وصل فى نهاية طريقه، ونتيجة لخطأ فى الحسابات، إلى «نكسة» بددت الحلم، وأعادت بلده قريبا من نقطة الصفر التى بدأ منها وجرت على الأمة العربية هما ثقيلا من الهزيمة والتخلف والإنقسام.

القول بأن صدام حسين هو عبد الناصر التسعينات يتجاهل الفارق بين «الزعيم» و «المغامر». بين صاحب الرسالة وصاحب الأطماع.. كلاهما رفع لواء القومية والوحدة لكن عبد الناصر لم يخطر بباله تحقيق هذه الوحدة بجيوشه وبقهر الشعوب العربية الصغيرة، أو بإغتصاب ثرواتها، لأنه كان ـ كزعيم ـ يدرك أن الوحدة ليست قفزة مغامرة، ولكنها عملية دمج سياسى وإقتصادى وإجتماعى بين شعوب

بينها فوارق كما يربطها التماثل، ولذلك لا تتحقق إلا بالعمل الشعبى من ناحية، وبتوافر ظروف موضوعية للوحدة من ناحية أخرى. لم يجهز عبد الناصر جيشه أبدا لغزو بلد عربى وفرض الوحدة عليه، ولم يفكر يوما فى أن الوحدة يمكن أن تتحقق بإغتصاب أوطان عربية وتشريد أهلها، وليس فى تاريخه محاولة أو تفكير من هذا النوع. . الوحدة مع سوريا سبقها استفتاء للشعبين عبرا فيه عن إرادتيهما والتقت حكومتا البلدين للتوقيع على وثيقة الوحدة، وشاركت المؤسسات الدستورية فيهما منذ البداية. . الإرادة كانت هى المحرك الأساسى. . لكن ما حدث فى الكويت شئ آخر أقرب إلى الغزوات الإستعمارية القديمة. فغزو الكويت جاء بهدف أعلنه صدام حسين هو الإستيلاء على ثرواتها لأن العراق أولى بها! هل يختلف فى ذلك كثيرا عما فعلته الجيوش البريطانية فى غزوها للهند للإستيلاء على ثرواتها الطبيعية. .؟ أو هل يختلف فكره عن نظرية «المجال الحيوى» التى جعلت هتلر يغزو من حوله ويتوسع فى الغزو، وهى نفس النظرية التى جعلت اليابان تدخل الحرب العالمية الثانية فى محور واحد مع النازية.

سقطت دعاوى القومية، بل وسقطت دعوى «الحقوق التاريخية» للعراق فى الكويت لحظة تنازل صدام حسين عن الحقوق التاريخية فى شط العرب التى حصل عليها بالحرب والدم واستنزاف المال العراقى والخليجى كى ينقض على الكويت تحت ستار حقوق تاريخية أخرى!

هو إحتلال بالمعنى الإستعماري القديم لا يغير من حقيقته علاقة الجوار، أو كون القاتل والقتيل يتكلمان لغة واحدة، أو أن لهما علاقات في إطار قومي... ولو أردنا تفهم كيف تكون الوحدة فأمامنا الوحدة الأوروبية وخطوات تنفيذها خطوة خطوة نابعة من إرادة الشعوب وبعد استفتاء في كل بلد، وعلى أيدى السياسيين وحدهم، وليس على أيدى الجيوش وبالدبابات.

ووحدة الألمانيتين قد رأينا كيف تتحقق أمام عيوننا، تعطينا صورة أخرى للوحدة والإندماج بالرضا الشعبى وليس بالغزو والإكراه.

مهما قيل من شعارات الوحدة فستدخل واقعة «غزوة الكويت» التاريخ على أنها لحظة تغلبت فيها الأطماع التوسعية القطرية على المبادئ القومية، وحركتها أحلام تحقيق الزعامة السهلة بدل الطريق الحقيقى للزعامة، وهو طريق صعب.. طريق يبدأ بإنجازات يحققها الزعيم فى بلده فيجعل منها مركز قوة حضارية، ومثلا أعلى، ونقطة جذب، تجعل تحقيق الوحدة بالإندماج بعد ذلك ممكنة حين تتوافر لها الظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية والفكرية.. دون قسر.. هذا الطريق الطويل يحتاج إلى زعيم.. أما إغتصاب بلد صغير فشئ آخر.. غزو الكويت لحظة تغلبت فيها روح المغامرة على حسابات الواقع.. وزهو إنتصار اللحظة عن رؤية ماسيتلوها من إنكسار هزيمة الدهر، ليس لقائد واحد ولا لدولة واحدة بل لكل القادة، ولكل العرب! هى فى التحليل النهائى نكسة أخرى أشد من نكسة ٦٧. بل هى إستكمال لها لتحقيق ما لم يتحقق بها.

نكسة ٦٧ ضيعت ما حققه عبد الناصر من مكاسب فى الصراع الذى قاده بين قوى التحرر وقوى التبعية.. وضيعت الوعى العربى فأصبح تبديد الثروة العربية ممكنا.. والإكتفاء بإستيراد قشور الحضارة دون المشاركة فى صنعها هدفا.. وتوجيه السلاح العربى إلى الصدور العربية مبررا فى عمل أقرب إلى الإنتحار القومى، من قائد قامت دعوته على شعارات الأحياء القومى.. وفى النهاية سوف تجد الأمة العربية نفسها خارج التاريخ.. هذا المصير لم يتحقق فى نكسة ٦٧ لكنه يمكن أن يتحقق بعد نكسة ٩٠.. بعد نكسة ٦٧ بقيت فى الأمة العربية إرادة الحياة وطموح إلى التقدم فكان لابد من نكسة جديدة تدمر ما تبقى!

نكسة ٩٠ جاءت فى وقت كانت المنطقة قد بدأت مرحلة من التفاهم وتصفية الخلافات وظهرت كيانات وحدوية وإن تكن هشة فيكفى أنها تحافظ على قوة الدفع إلى أن يمكن تحقيق الوحدة الحقيقية بظروفها وشروطها الموضوعية.. إلى أين تقودنا نكسة ٩٠؟ تبديد الثروات العربية فى معركة غبية؟ ضياع أحلام الوحدة تحت وطأة مخاوف وتوجس أصبح لدى كل عربى من كل عربى آخر، بعد أن تحول من كان يأخذ الأموال العربية ليحمى بوابة العرب الشرقية إلى أكبر تهديد للعرب من نفس البوابة؟!

نكسة ٦٧ كرست ضياع فلسطين وحولت سيناء والضفة والجولان والقدس أسرى. أما نكسة ٩٠ فيمكن أن تكرس ضياع حقوق

الفلسطينيين وبقية أرضهم وحتى قدرتهم على الإنتفاض، نكسة ٦٧ كانت تعبيرا عن حقيقة أن الصراع فى المنطقة هو أساسا صراع عربى إسرائيلى. . أدرك بها العرب أن المواجهة الحضارية طويلة. . يرتبط فيها النصر بالقدرة على توظيف عناصر القوة العربية وتعديل موازين القوى، أما بنكسة ٩٠ فقد أصبح الصراع فى المنطقة عربيا ـ عربيا. أن ضياع وطن (فلسطين) جعل ضياع وطن ثان سهلا (لبنان) وتعرض وطن ثالث للضياع (الكويت) حلقات السلسلة العربية تتساقط ودول عربية أخرى أصبح ظهرها مكشوفا. . لا يهم من الذى يمكن أن يقوم بالعدوان عليها. . فالعدوان عدوان. . وعدوان الشقيق ليس أفضل من عدوان العدو.

ونكسة ٦٧ أمكن تجاوزها ولو جزئيا. . ولو نفسيا. . أما نكسة ٩٠ فقد كانت بداية النهاية. نكسة ٦٧ تاريخ مضىَ، لا يمكن تدارك أخطائه، أما نكسة ٩٠ فمازالت أحداثها تنبض يمكن تداركها. . الإنقاذ ممكن رغم بحور الدم والكراهية ومرارة غدر الشقيق، لكن ذلك يحتاج إلى بصيرة تنفذ إلى المستقبل وتخترق سواد السحب القادمة فى الغد، وتحتاج إلى ذروة الشجاعة والبطولة قبل أن يتم إغلاق الأبواب وخنق المستقبل العربى. . هل يمكن أن يرى صدام حسين الهوة السحيقة التى إنساق ليلقى فيها نفسه وتاريخه وجيشه وبلده وأمته العربية؟

دعونا نبتهل ونصلى قبل أن تتكامل أبعاد نكسة ٩٠ وتصبح الأمة

العربية خارج التاريخ. وياليتنا ندرك أن الالام التى عشناها حتى الآن ليست آخر فصول المأساة. . هناك فصول أخرى لم يفتح عنها الستار سوف نقاسى فيها أكثر مما قاسينا. . والسبب صدام حسين. !

إعادة فرز سلة الأفكار العربية !

عندما أراد الفيلسوف الفرنسى الكبير ديكارت أن يؤسس فكرا جديدا لإعادة بناء العقل الأوربى بدأ بداية بسيطة. ولكنها شديدة الأهمية، فقد رأى أن العقل الأوربى ملىء بأفكار كثيرة مستقرة لا أحد يعرف من أين جاءت، ولم يفكر أحد فى إختبار مدى صحتها أو صلاحيتها. ولذلك حدد ديكارت نقطة البداية بإعادة فرز كل ما فى هذا العقل من أفكار فكرة فكرة، وبالوقوف أمام كل فكرة وتفحصها بدقة ليرى إن كانت صالحة أم فاسدة، وكانت وجهة نظره أن العقل الإنسانى مثل سلة الفاكهة، وأن تفاحة واحدة فاسدة لابد أن تصيب بالفساد بقية التفاح فى السلة، وأعتقد أن هذا المنهج هو ما نحتاجه الآن ـ بالذات ـ بعد المحنة التى عشناها منذ الثانى من أغسطس عام

إن العقل العربى محتاج الآن ـ وفورا ـ إلى إكتساب مقدرة جديدة للتمييز بين الخطأ والصواب، فلا تزال الموازين حتى الآن محتلة، والحدود الفاصلة غامضة. . أنظر كيف استطاع صدام حسين أن يجاهر بأنه إغتصب الكويت ليحرر فلسطين، دون أن يرى أن مثل هذا القول سوف يجعل قومه يستهينون بعقله وبقضيته وينفضون من حوله. ويزيد الأمر غرابة أن تتجاوب معه عقول، وأن يردد هذا الزيف أشخاص كنا نتوهم فيهم العقل والحكمة، ثم يحاول آخرون ـ ممن يتاجرون بآلام وأقدار الأمة ـ ليروجوا للفكرة، وكأن الساحة العربية يمكن أن تتحول إلى مستشفى للمجانين حتى يصدقوا هذا القول الغريب. . ما هو المعيار لتحديد الخطأ والصواب. . ماذا يعصم العقل العربى من الوقوع مستقبلا فى شباك المضللين والمتاجرين والمزايدين فى كل قضية. . قد يقال أنه لو لم تكن لهذه القضايا الضالة صدى وإستجابة فى عقول أخرى مضللة لما قبلت وإنتشرت، وهذا حق، وإذن فالحاجة ماسة إلى العودة إلى منهج العقل، وإستعادة ملكة التفكير والنقد لدى العرب مرة أخرى.

ثم أنظر إلى الذين عميت أبصارهم عما لحق بالكويت من ظلم ودمار ولم يروا إلا ما لحق بالعراق، وفقدوا تماما القدرة على الربط بين الأولى كسبب والثانية كنتيجة، ولو لم تقع الأولى لما وقعت الثانية، ولو ظل صدام حسين زعيما وقائدا فى بلده دون أن يعتدى على بلاد الناس، لما وجد الناس سببا للإعتداء عليه، لكن آليات التضليل فى العقل العربى لم تر الأشياء كما هى فى الواقع، وفضلت

أن تعيش على خداع النفس ورفض الواقع، وأن تروج للكذب وتتنكر للحقيقة، أنظر إلى العقل الذى يرى الأشياء لا كما هى فى حقيقتها ولكن كما يريد أن يراها بالوهم وخداع النفس. . فالعالم كله يرى الفارق المخيف فى القوة العسكرية بين العراق والحلفاء ويحذر من العواقب الوخيمة والهزيمة الحتمية لصدام وأطماعه، بينما صدام حسين مصر إلى آخر لحظة أنه سينتصر، وأن إحتمال هزيمته غير وارد ولا بنسبة واحد فى المليون كما قال. . وبعد أن تحطمت طائراته وتعطلت أجهزة إتصالاته وأصبح مثل خيال المآتة أعلن أن الحلفاء يخافون مواجهة عبقريته العسكرية فى الحرب البرية. . ثم بعد هزيمته الكاملة أعلن أنه إنتصر وحقق أهدافه ويكفى أنه فعل بالعالم كذا وكذا. . هل يمكن أن ينبت هذا العقل الضال المضلل من فراغ، وإن كانت كذلك فهل رأى كل من سمعه أنه عقل مختل أم أن بعض العقول إستجابت وتجاوبت ورددت نفس الهلوسة. . إذن فالخلل العقلى ظاهرة موجودة، قد يكون حجمها محدودا، ولكنها تفاحة فاسدة لابد أنها ستنقل الفساد إلى سائر ما فى السلة العربية.

هل يمكن أن يعيش شعب فى غيبوبة كهذه من صنع قائده، وفى ظل إنقطاع الصلة بينه وبين ما يجرى فى الواقع. . ثم تأتى لحظة الحقيقة لتقع كالصاعقة على رأس الجميع ـ أو على الأقل على رأس الذين لم يتوقعوها لأنهم استسلموا للغيبوبة العقلية ـ فإذا بالبناء ينهار لأنه قائم على وهم، وإذا بالروح تختنق لأنها كانت تتنفس الأكاذيب، وإذا بالإحباط والشعور الداخلى بالهزيمة يهدد العقل العربى مرة

أخرى بالنكوص، والإرتداد إلى مرحلة البدائية الاولى، وتواجه الشخصية العربية مرة أخرى التهديد بفقدان الهمة وعجز الإرادة. .

ألا يحتاج ذلك إلى وقفة للإنقاذ قبل أن تترسخ الآثار المدمرة للهزيمة فى الروح. لندرك أن المسئول عنها شخص واحد أصاب بالعدوى مجموعة حوله، كالثمرة الذى أفسدها العطب فأفسدت ثمارا حولها.

ألم تكشف المأساة التى سببها صدام حسين أن فكرة العروبة مازالت غامضة، تحتاج إلى إعادة فحص من الأساس. لندرك ما هى وما حدودها. . هل الوحدة العربية هى المسيطرة يفرضها الأقوى، يطلب المال ابتزازا، فإن لم ينل منه كفايته حرك جيوشه وطرد أهل البلد من بلدهم. . هل العروبة هى الإستيلاء على ثروات الآخرين أو حرقها. . ؟

والقضية الفلسطينية، هل هى ستار ترتكب الجرائم بإسمها فلا ينبغى لأحد أن يعترض وإلا كان خائنا للقضية وعميلا للقوى الأجنبية. . ؟

ثم ألم تكشف هذه المأساة أن إتفاق العرب جميعا وتوحدهم أمر مازال بعيد المنال، لأن الوحدة درجة من الحضارة لم يبلغها العرب بعد، وهدف يستحق السعى إليه لكنه لم يتحقق، والأمر الواقع الآن أن كل إرادة عربية تقابلها إرادة عربية أخرى تعترض وتتهم وتهدد، والعقل العربى يستجيب للقضية ونقيضها، وللشئ وضده، مع هؤلاء

وهؤلاء، وبدلا من مناقشة الفكر بالفكر يكتفى بإطلاق قذائف الكلمات الملتهبة والعبارات المسمومة، فيتحول الواقع العربى إلى كلام هنا وكلام مضاد هناك، وتضيع الحقيقة وينتقل الفساد من ثمرة إلى أخرى حتى تمتلئ سلة العقل العربى بالثمار الفاسدة. !

إذا كانت هذه تطورات فى ساحة الواقع العربى، فإن حاجة العقل العربى إلى عمل جاد ومنظم لإنقاذه أهم وأولى بالرعاية، لأن بداية الخطر تأتى دائما من العقل، وسياج الحماية هو دائما العقل، والعاصم من الجموح هو العقل، فإن الحاجة الآن ماسة إلى تأسيس العقل العربى على قواعد ثابتة تقوم على أفكار سليمة، واضحة، ومتميزة، بنفس المنهج الذى شيد به الفيلسوف الفرنسى ديكارت الفلسفة التى قامت عليها الحضارة الغربية، وان اختلفت ـ بالطبع ـ فى المضمون.

وأنظروا إلى الثمار الفاسدة التى دسها صدام حسين فى سلة العقل العربى لتدركوا ما أقصده.. مثل فكرة أن هذه الحرب هى حرب الإسلام ضد أعدائه.. بينما انصب عداؤه على الكويت البلد المسلم.. أو أن رد إعتداء المعتدى المسلم على أخيه المسلم بأى وسيلة ممكنة حرام شرعا.. وكأن الحلال شرعاً أن يستسلم كل مسلم لكل مسلم آخر أقوى منه يغتصب أرضه وماله وعرضه..! أو أن ضرب المعتدى لرده عن عدوانه هو إعتداء على العروبة والإسلام.. وكأن العروبة والإسلام لا يحكمهما إلا قانون الغاب..!

نقول ذلك بقصد بناء العقل العربى على أسس صحيحة، وبناء العالم العربى بالتالى ـ وفقا لمنطق سليم، يقوم علىٰ مسلمات من الواقع، ويستنتج الأحكام استنتاجاً صحيحاً من مقدمات صحيحة وأفكار نابعة من عقل سليم. . ومن أجل إعادة العراق إلى مجده، ليكون قوة للعرب، وليس مصدر تهديد لهم.

جدل الإسلاميين

من نكد الدهر أن الذين أرادوا أن يحكمونا بإسم الشريعة، وقالوا أنهم لا ينطقون إلا بمراد الله تعالى إختلفوا ويختلفون فى كل شئ، لكن إختلافهم حول إعتداء الرئيس صدام حسين على الكويت كشف مقاصد البعض ونقل قضية الحكم بالشريعة إلى منعطف جديد.

كانت المسألة شديدة الوضوح، عدوان وقع على دولة مسلمة من دولة أخرى مسلمة، ليس دفاعا عن الإسلام وتأكيدا لمبادئه ولكن من أجل تحقيق أطماع التوسع والزعامة وإغتصاب الثروة، لكن الإسلاميين إنقسموا حيث كان ينبغى أن يتفقوا، ولو كان مصدر وحيهم هو الشريعة، ومراد الله تعالى، لما كان معقولا ولا مقبولا أن تحكم الشريعة الواحدة على الفعل الواحد بأنه خطأ وصواب فى وقت واحد، ولا أن يكون مراد الله الواحد الأحد مع صدام حسين

وضده فى آن واحد. وهنا إنكشف ما لم يكن مستورا، ولكنه كان مغيبا بالتضليل، وهو أن القضايا المطروحة بإسم الحكم بالشريعة ليست من قضايا الشريعة، ولكنها فى الأصل قضايا سياسية خلافية تريد أن تتخفى وراء الدين وهو ما ليس عليه خلاف، لتكسب لنفسها قوة ليست من طبيعتها، وتصبح قادرة على الفتك بالمعارضين لها بإدعاء أنهم كفرة.!

على هامش ندوة بالغة الأهمية عقدت فى القاهرة تفجرت هذه المسألة دون أن تكون هى موضوعها الأساسى. كان الموضوع هو البحث عن كيفية إزالة آثار الفتنة، والسبيل لإعادة التلاحم بين الأمة الإسلامية بعد أزمة الخليج، وكان أول المتحدثين الدكتور عبدالله التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض. وحين بدأ بإستعراض أسباب الفتنة التى مهدت لعدوان صدام حسين عدد منها الكثير، فكان أولها الأعراض عن منهج الله، مما يعنى أن منهج الله مازال غامضا وغائبا عن الساحة. وكان ثانيها وجود الطغيان والإستبداد فى أرض الإسلام، ووجود حكام ممن ينطبق عليهم حكم الله على المفسدين فى الأرض والظالمين، أما ثالث الأسباب فكان سلوك البعض فى مسايرة الطغاة، كانوا يعلمون أن صدام حسين ظالم مستبد ومع ذلك أيدوه وناصروه حتى بعد أن أسفر عن وجهه القبيح بالعدوان على الكويت، وخالفوا بذلك صريح أمر الله «ولاتركنوا إلى الذين ظلموا»، ورابع الأسباب أن بعض الطيبين

إنخدعوا بشعارات زائفة، إصلاحية وإسلامية، والمفروض أن تكون لدى المسلم ملكة النقد والحكم الصائب وبخاصة فى المواقف الحرجة.

من هنا بدأت الندوة تمس جرحا غائرا فى نفوس الحاضرين وكانوا حشدا من الصفوة.. كيف وقف بعض الإسلاميين مع صدام حسين.. وكيف لعاقل أن يفهم أن يعقد فى أسبوع واحد أثناء إحتدام الأزمة مؤتمران إسلاميان حضرهما كبار شيوخ ورموز الإسلاميين.. مؤتمر فى السعودية لإدانة عدوان صدام حسين وتأييد الكويت، والآخر فى بغداد لإدانة الكويت والسعودية وتأييد عدوان صدام حسين، وترددت فى المؤتمرين نفس الأقوال والآيات والأحاديث، فأصبح من الطبيعى أن يشعر المسلم العادى بالحيرة، ويقطع بأنه لابد أن الصدق فى جانب والكذب فى الجانب الآخر، لأن الله لا يمكن أن يكون مع صدام حسين وضده فى وقت واحد، ولابد أن هناك من يزيفون الحق وهم يعلمون.. أو وهم لا يعلمون!

إنتقل الحديث فى ندوة القاهرة من إثارة الجدل إلى إثارة أزمة، حين قال الدكتور عبد الفتاح الشيخ رئيس جامعة الأزهر «نحن جميعا ساعدنا فى صنع هذا الطاغية، كان يعقد مؤتمرات لتأييد طغيانه ويزعم أنها مؤتمرات إسلامية، وكنا نذهب إليه وبعض وزرائنا شاركوا فى هذه المؤتمرات.. وقد عاد الشيخ الطيب النجار من أحد هذه المؤتمرات ليروى أنه حين حاول - بحسن نية - أن ينبه قادة العراق إلى ضرورة

التزامهم بالمنهج الإسلامى منعه المسئول عن إدارة المؤتمر ثم همس له بعد الجلسة: إغفر لى أننى قاطعتك، لو تركتك تقول ما كنت تريد قوله فلا أضمن عودتك إلى مصر سليما (!).

ثم تساءل الدكتور عبد الفتاح الشيخ: بعد ذلك ماذا نقول للشباب الآن وقد قال بعضنا قبل ذلك أن صدام حسين هو الذى بعثه الله على رأس المائة عام ليجدد للناس دينهم (!) وماذا نقول ودول الخليج هى التى أعطته المليارات التى إشترى بها السلاح وإغتصب بها الكويت (!) وهل تحرك علماء الإسلام وإجتمعوا ليضعو الإطار الذى يضمن عدم تكرار مثل هذه الفتنة الكبرى.

بعده رفع إمامنا الشيخ محمد الغزالى صوته واضحا ليقول: ـ أنا خدعت بصدام حسين (!).. كنت أعرف أنه بعيد ن الإسلام، ولى كتاب أفضح فيه حقيقة فكره المنحرف، ومع ذلك خدعنى حين قال أنه يريد الدفاع عن الإسلام.. ومن خدعنا بالله إنخدعنا له..!

ثم استطرد: أنا أريد مصالحة عامة فى العالم الإسلامى لأن الأمر يحتاج إلى جمع الشمل، وأن البيئة الإسلامية تسمح بظهور أمثال صدام حسين، هذه أمة فيها نزق سرعان ما تقتتل وسرعان ما تلتئم، هناك بيئة تنبت الذل وبيئة تنبت العز، وكما قال الشاعر: «فى ذلة المظلوم عذر الظالم» فالدكتاتور واحد، ولكن يتراص الناس أصفارا على يمينه فيصير عشرة، ويصير مائة، ويصير مليونا، ويصير عشرة ملايين، وهو واحد.. ولكن الذين حوله إرتضوا وإختاروا أن

يكونوا أصفارا. ولكنى لا أريد أن يلتئم الجرح وأسبابه قائمة، لقد إختفى الإستبداد من أوربا تقريبا لكنه مازال قائما فى البيئة الإسلامية، الأمة الإسلامية فى غيبوبة ولا ندرى متى تصحو منها، والعالم الإسلامى كل حكامه فرديون إلا قلة هم إستثناء، والإستثناء لمنع اللبس، العالم الإسلامى مازالت فيه الكرامة مهدرة، فيه قمم وسفوح، صغار وشموخ، وإذا أرادت هذه الأمة أن تعيش فلابد من الديمقراطية والشورى المطلقة بلا قيود كى لا يكون العالم الإسلامى «مزبلة الحضارات»! والعدالة الإجتماعية حق، لقد كان الخليج غنيا فلم يحسن الإنتفاع بغناه، نحن الآن أنقاض أمة، بقايا ما أكل السبع والكلب، نحن على أعيننا غشاوة، نحن نعيش يومنا ولا نعرف غدنا ولا نفكر فيه. وهذه حال منكرة. فتنة صدام إنتهت لكن ذيولها ستبقى إلى حين، فلنبدأ بتخليص البيئة الإسلامية من جراثيم المتكبرين والطغاة، ولنحولها إلى بيئة للحرية والكرامة..

تحولت الندوة إلى صورة مصغرة لما يجرى، أو ما يجب أن يجرى فى العالم الإسلامى.. مراجعة للنفس، وإعتذار عن أخطاء الفهم والوقوع فى الشرك، وإصرار على تنقيةً البيئة الإسلامية من جراثيم كامنة فيها تنشر المرض القاتل: الدكتاتورية التى لا تجد دائما قناعا يخفى بشاعتها إلا الإسلام.. وحين يسقط القناع تظهر الوجوه القبيحة التى تسئ إلى الإسلام ولا تخشى يوما لا ينفع فيه مال الأرض جميعا، ولا يشفع فيه سلطان.!

أين حزب الله ؟

في حديث لمحطة التليفزيون الأمريكية (سى. إن. إن) طرح الرئيس صدام حسين تساؤلا يتردد هو: الله مع من..؟ والشيطان مع من..؟ وأجاب عنه إجابة غاية فى الغرابة!

أهمية السؤال أننا أصبحنا نرى القتلة واللصوص والإرهابيين يصرون على أنهم «حزب الله» وأن سائر من عداهم من المسلمين هم «حزب الشيطان» إلى حد أن المرء كثيرا ما يتصور أن هناك جهة ما، أو عقلا ما، يهمه أن يفسد على المسلمين معايير التمييز، وقواعد الحكم، ليخلطوا بين الخير والشر، إلى أن يأتى يوم يسير فيه المسلمون فى الطريق الممنوع وفقا لقواعد دينهم وهم موقنون أنه الطريق الصواب، وأنه لا صواب إلا هو!

لا يكتفى الرئيس صدام حسين بالطبع يطرح السؤال، ولكنه

يمضى فى الطريق الجديد الذى يسير فيه منذ إحتلاله الكويت بإستخدام مقولات إسلامية للتأثير على العامة ممن يهتزون لمجرد ذكر إسم الله وكلماته ولو فى حديث الضلال دون أن يفرقوا بين الصحيح والباطل فيما يقال، قال صدام حسين: «إن هذه الحرب معركة بين الإيمان والكفر، بين الخير والباطل، بين العدل والإنصاف، وبين الإجحاف والتسلط والعدوان..» وبهذا العزف على الكلمات تصور أن ذلك يكفى لإقناع ـ أو بالأصح لخداع ـ المسلمين، وركوب موجة اليقظة الإسلامية.. يظن أن أحدا لن يفكر هل إغتصاب الكويت هو الحق والخير والعدل والإيمان، وأن تحريرها هو الباطل والكفر والإجحاف والتسلط والعدوان..؟!

ثم ينتقل الرئيس صدام حسين ـ بجرأة على الله وعلى عقول الناس حسابها عند الله شديد ـ فيقول أن له الحق فى القاء البترول لتلويث مياه الخليج لأنه فى حالة «دفاع شرعى عن النفس»..!

حالة دفاع شرعى عن النفس؟!

هل يمكن لعاقل على الأرض أن يقول أن غزو الكويت، وإحتلالها، والإصرار على إغتصابها، وتشريد أهلها، وحرق بترولها، كل ذلك «دفاع شرعى عن النفس»، جيوشه فى أرض خارج حدود العراق، فى بلد عربى لم يكن يوما مصدر عدوان أو تهديد عسكرى، والعكس هو الصحيح، وصواريخه التى يلقيها على الظهران والرياض لمجرد الإرهاب وترويع المدنيين فيها الكفاية لمعرفة

حقيقة نواياه. أين عناصر حالة «الدفاع الشرعى عن النفس» كما يحددها القانون الدولى، أو كما تحددها الشريعة الإسلامية؟ أو كما يقبلها العقل..؟ أم هو مجرد كلام للسذج، «وللإستهلاك المحلى» كما يقول السياسيون؟

وعلى نفس الوتر الإسلامى يمضى الرئيس صدام حسين فى مغالطاته الغريبة فيقول أن الصاروخ «سكود» ليس «سكود» ولكنه أصبح «الحسين» و «العباس». وبعض الناس حساسون من هذا الإسم وذاك لاقترابهما من أحب خلق الله على المسلمين ولأنهم يعرفون أن إسم الحسين يذكرنا بجدنا الذى قاتل الإنحراف والجور بسبعين رجلا فقط، فكيف نحن الذين أصبحنا ملايين الآن لا نقاتل الجور؟

هل هناك مسلم، عاقل، يمكن أن يصدق أن الرئيس صدام حسين هو الإمام الحسين وأنه يقاتل من أجل نفس القضية..؟ هل كان الإمام الحسين يقاتل من أجل أرض إغتصبها؟ وهل قاد جماعته المؤمنة الصابرة من أجل قضية المطالبة بعشرة ملايين دولار وآبار بترول متنازع عليها.. أليس من حقنا أن نعترض على تصوير الإمام الحسين سيد الشهداء على أنه كان مغتصبا، أو طامعا فى امبراطورية، أو قاطع طريق إذا قبلنا القياس الذى يفرضه علينا الرئيس صدام حسين.. ومثل أقوال الرئيس صدام هو ما تتلقفه أجهزة الإعلام المعادية وتنفخ فيه لتبين للعالم كيف أن رموز المسلمين العظام بكل ما

يحيطها من هالة لم يكونوا إلا شرذمة من القراصنة والفوضويين.. وحاشا لله أن يكونوا كذلك.. ثم هل إطلاق اسم «الحسين» على الصاروخ الروسى الصنع «سكود» يجعله صاروخا إسلاميا.. وعقلاء المسلمين يدركون أن الصاروخ لا يكون إسلاميا إلا إذا إنطلق فى قضية عادلة يرضاها المنطق والعقل الإسلامى الرشيد، ولا تكون القضية الباطلة إسلامية بمثل هذا الخلط، والخلل العقلى، والمغالطات المنطقية المكشوفة.

ويقول الرئيس صدام حسين أيضا فى حديثه «إن كل ما تم تدميره فى العراق، والذى سيتدمر لم يتبرع لنا أحد به.. ونحن الذين بنيناه..» فيجعلنا نفزع للفكرة التى تكمن وراء مثل هذه الكلمات، ففى الوقت الذى تدمى فيه قلوبنا للتدمير الذى يلحق بالعراق وجيشه - وهم رصيد للعرب والمسلمين - نرى القائد المسئول عن شعبه وجيشه يتحدث بمثل هذه الإستهانة ولا يعنيه حجم الدمار مادام الثمن قد دفعه وسوف يدفعه الشعب العراقى، وكأنه مفوض من شعبه لتدمير البلد، أو كأنه مالك حر التصرف فى أملاكه الخاصة، وليس من حق أحد أن يحاسبه!

ثم يكشف الرئيس صدام حسين عن حالة «تضخم الذات» التى وصل إليها منذ فترة وجعلته يرى أن «صدام حسين» هو «العراق» وهو «الشعب» و «المستقبل»، فيقول: «العراقيون عندهم حالة توحد بين المواطن والقيادة»!

أليس من واجبنا أن ندعو المسلمين فى أرجاء الأرض إلى صلاة جامعة يبتهلون فيها إلى الله أن يرحم أمة محمد من أمثال هذا الحاكم الذى يرى نفسه هو الأمة، وكلمته إرادتها ويقول بمالم يقله أحد من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقله من البشر إلا من دخلوا التاريخ من أسوأ أبوابه.

وأخيرا يقول الرئيس صدام حسين فى حديثه «أسميناها أم المعارك لأن الحق واضح عن الباطل بما فيه الكفاية، وأننا مؤمنون بأن الله معنا، فهل هناك معركة أخرى أكبر من المعركة التى يكون الله قائدها سبحانه وتعالى من جهة، والشيطان من جهة أخرى..»

أستغفر الله العظيم.

الله سبحانه وتعالى هو قائد معركة إحتلال الكويت، وتشريد أهلها، ونهب ثرواتهم، وحرق آبار بترولها..! والشيطان هو الذى يقود معركة المطالبة بتحرير الكويت واعادة الحقوق إلى أصحابها..؟!

أيها الإسلام.. كم من الجرائم ترتكب بإسمك.

هل يعيد التاريخ نفسه ؟ !

هل يمكن أن نصدق أن الرئيس صدام حسين لم يكن يدرك طبيعة الخطر المحيط به وببلده وبالمنطقة العربية. رغم النذر والتحذير..؟ هل يمكن تصديق أنه كان مصدقا لما كان يقوله عن قدرته على الإنتصار على كل هذا الحشد العسكرى الذى لم يسبق له مثيل، أم أنه وصل إلى حالة شعر فيها أنه «سوبر مان» وأنه يمكن أن يظل رجلا واحدا ضد العالم.

مثل هذه الأسئلة تقود إلى أسئلة أخرى مثل: إلى من كان يستند صدام حسين فى موقفه هذا، إلى الإتحاد السوفيتى..؟ إلى قوات عربية خارقة محتشدة إلى جانبه؟ إلى وعد الهى [هو الآخر بأن تكون له الأرض العربية من المحيط إلى الخليج.. كما تدعى اسرائيل بأن الله وعد شعبها بأن يعطى نسله أرض العرب من المحيط إلى النيل..؟!

قد تكون الإجابة عند علماء النفس السياسى بأن هناك طرازا من القادة تكون لديهم «الشخصية السيكوباتية» وهى شخصية بطبيعتها لا تشعر بالخطر، ولا تبالى بالنتائج ولو إنتهت بتدمير ذاتها.

وقد تكون الإجابة أن السلطة المطلقة بما إنها مفسدة مطلقة فبإن من يحكم بلدا بغير معارضة لابد أن ينتهى مثلما إنتهى هتلر. حين جلس فى غرفة عملياته يدير معارك وهمية، وينقل الدبابيس الممثلة لقواته على الخرائط متصورا أن جيوشه مازالت تكتسح وتنتصر حتى فوجئ بقوات الحلفاء تحيط به فى خندقه فلم يجد بدا من أن ينتحر بالرصاص.! ولم يكن واحد من معاونيه يجرؤ على أن يقول له الحقيقة المرة لأن الدكتاتور عادة لا يسمع إلا ما يريد.

وأعتقد أن هناك إجابة أخرى أكثر دقة وواقعية يمكن أن تتوصل إليها إذا قرأت جيدًا أهم كتاب صدر فى العالم العربى فى عقد الثمانينات، وهو كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «الإنفجار» عن هزيمة ١٩٦٧، ففى سطور الكتاب وبين السطور سوف تلمس أن جمال عبد الناصر أخطأ خطأين تاريخيين لم يستطع بسببهما إنقاذ نفسه وبلده فى الوقت المناسب عندما وصل عند حافة الهاوية. الخطأ الأول أن الأحداث كانت تتجمع بوضوح أمامه فى إتجاه واحد يؤكد حتمية الحرب، ومع ذلك لم يدركها، وصدق نفسه فيما كان يعلنه من شعارات: «سنقاتل إلى آخر قطرة من دمائنا»، وكان كواحد من أبطال التراجيديا اليونانية القديمة.. بطلا يعرف أنه يسير إلى حتفه

ومع ذلك يسير إليه، ويعرف أن هذه نهايته ومع ذلك لا يفعل شيئا ولا يقاوم بل يستسلم للقدر. ! والخطأ الثانى أنه أدار أزمة ٦٧ بنفس أسلوب إدارته لأزمة ١٩٥٦ دون إدراك أن الظروف الدولية والمحلية تغيرت. . وصدام حسين فعل الشئ نفسه.

قبل ٥ يونيو تعددت أمام عبد الناصر النذر تماما كما حدث لصدام حسين، جاءه يوجن بلاك رئيس البنك الدولى السابق ليحذره مما سيحدث، كما جاءه ذو الفقار على بوتو لينذره، وبعث إليه الملك حسين بمعلومات يعرفها جيدا (!) عما سيجرى له ولبلده، ومع ذلك ظل على شعوره أنه أقوى من الجميع. وعدما قرر سحب قوات الطوارىء الدولية أجمع العالم على حتمية الحرب إلا القيادة المصرية فقد رأت فيه قرارا تاريخيا يضاف إلى قائمة إنتصاراتها الخالدة. . بعد ٣٣ سنة جاء الرئيس صدام حسين ليكرر الأخطاء نفسها ويصور لنفسه أن غزوه للكويت هو إنتصاره التاريخى وقادسيته الثانية، بعد الخيبة التى إنتهت بها القادسية الأولى (!).

قبل ٥ يونيو كان الرئيس الأمريكى يعقد إجتماعات لها دلالة لا يخطئها عاقل، ورؤساء أمريكا لا يعملون من أجل التلفزيون (!) وكان يدلى بتصريحات لا يخطئ فهمها أحد وكانت التحركات الإسرائيلية منشورة ومعلنة بينما كان تقدير الموقف فى القيادة المصرية أن القيادة الملهمة التى إنتصرت من قبل سوف تظل تنتصر مهما كانت الظروف (!) وكان آخر تصريحات عبد الناصر فى مانشتات الصحف

«إذا أرادت إسرائيل الحرب فأهلا وسهلا! وإن هذه المعركة نحن إخترنا زمانها ومكانها».

وحين رفعت مصر درجة الإستعداد بين قواتها المسلحة يوم ٢٤ مايو وبدأت الدبابات تسير طوابير فى شوارع القاهرة متجهة إلى الجبهة وسط الأضواء والكاميرات وأغان ملتهبة مثل: «ولا يهمك ياريس م الأمريكان ياريس..» كانت القيادة تشعر أنها إنتصرت وإنتهى الأمر (!) ومن يستعيد قراءة أوامر رئيس الأركان يوم ١٤ مايو يتأكد أن مصر هى التى ستهاجم: رفع دجات الإستعداد فى جميع القوات والأسلحة. إتمام التعبئة العامة. إستكمال الحشد بحرا وبرا. تجهيز الخطط الهجومية والدفاعية. التوزيع الإستراتيجى للقوات. إستكمال الإستطلاع الجوى.. ثم أغانى «قوة ما يغلبها غلاب»! وكان الدوى العالمى فى الصحف والإذاعات وقنوات التلفزيون يضخم من حجم الحشود وعبقرية القيادة..

يقول الأستاذ هيكل فى كتابه حقيقتين غاية فى الأهمية. الأولى أن التهديد بعمل شئ لا يحقق آثاره إلا إذا كان الطرف الآخر مستعدا لتصديق هذا.. نحتاج إلى تأمل هذه الحقيقة التى إنطبقت على تهديدات عبد الناصر لنرى إلى أى مدى تنطبق على تهديدات صدام حسين بالحاق هزيمة بأكبر وأخطر حشد عسكرى عرفه التاريخ. والحقيقة الثانية التى يلفت الأستاذ هيكل نظرنا إليها هى أنه عندما تبدأ المجلات الأمريكية فى تحويل أى واحد أو واحدة فى العالم

الثالث إلى نجم فمعنى ذلك أنه ـ أو أنها ـ لعبة فى أيديهم. وتأملوا كم عدد المرات التى أصبح فيها صدام حسين صورة غلاف المجلات الأمريكية الكبرى، وتهديداته وأنباء حشوده «مضروبة فى ألف» تملأ الصفحات الأولى، تذاع عشرات المرات فى قنوات التليفزيون، وكأنه «هولاكو» أو «جنكيز خان» القادر على إجتياح العالم وتهديد البشرية..

ثم نتعلم درسا من هذا الكتاب العظيم ملخصه أنه حينما يصبح أى طرف من أطراف أى حرب فى التاريخ صفحة مفتوحة أمام خصمه، فإن هذا الطرف يفقد نصف معركته قبل إطلاق رصاصة واحدة، لأن نواياه، وخططه، وحجم قواته، وإتجاهات عملها تصبح معروفة بالكامل قبل بدء العمليات، ومن ثم تنقلب كل الموازين.. وهل لدى أحد شك فى أن كل ما لدى صدام حسين معروف ومحصور ومدروس..؟

هل يعيد التاريخ نفسه..؟

أعتقد أن دوامات الحيرة التى تدفع بأسئلة جديدة كل لحظة سوف تهدأ وتستقر حين نقرأ هذا الكتاب الهام مرتين. مرة لنعرف، ومرة لنتأمل ونفكر ونتعلم، وليت أحدا يهدى هذا الكتاب للرئيس صدام حسين، ربما يلهمه الله القدرة على تفهم حقيقة ما فعل، وليعرف أن نكبة العرب على مدى التاريخ تأتى من قادتهم، وأن العرب يكررون دائما أخطاءهم، ولعله يفيق إلى حقيقة أنه بطل جاء فى غير أوانه..

وطراز من القادة كان يصلح فى هذه المنطقة فى الخمسينات وأوائل الستينات. ولكنه كارثة أن جاء في التسعينات.!

وإذا كانت نكسة ٦٧ قد أعادتنا مائة عام إلى الوراء. فكم عاما أخرى سنعود إلى الوراء بعد أن تكررت فى ١٩٩١.؟!

من يخسر.. ومن يستفيد؟

بعد مرور ٨ أسابيع من الأزمة التى نتجت عن إجتياح العراق للكويت، كان السؤال هل حقق النظام العراقى أهدافه، وهل سيحققها فى المستقبل القريب أو البعيد..؟ ومن الذى يكسب الآن من هذه الأزمة ومن الذى يخسر..؟

هذا السؤال بالذات كان شاغلى فى كل اللقاءات التى شاركت فيها فى ٤ ولايات أمريكية فضلا عن العاصمة «واشنطن»، وفى كل هذه اللقاءات أتيح لى مناقشة عدد من أساتذة الجامعات والباحثين فى مراكز بحوث متخصصة، كما أتيح لى إجراء حوارات مع مواطنين أمريكيين من مختلف المستويات والثقافات..

وكان التحليل السياسى للموقف من زاوية المصالح أقرب إلى العقلية الأمريكية التى تحسب كل خطوة بمقدار ما تكلف وما تحقق من مكاسب.

خلاصة هذه الحوارات أن الولايات المتحدة حققت حتى الآن مكاسب بالغة، ولابد أن تعترف بأنها مدينة بالشكر للرئيس العراقى صدام حسين لأنه أعطاها الفرصة لتحققها، فقد جاءت خطوته فى التوقيت المناسب تماما من زاوية المصالح الأمريكية.. فى وقت إنتهت فيه الحرب الباردة، وتراجع الإتحاد السوفيتى خطوة إلى الخلف، ونفض يده عن كثير من المشاكل المحلية، وتخلى عن أوروبا الشرقية، وسحب قواته وصواريخه، وأصبحت مشكلته الإقتصادية لها الأولوية عن كل ما عداها من مشاكل العالم.. فى هذا الوقت بالذات كانت الولايات المتحدة محتاجة إلى تأكيد حقائق بعينها :

كانت الولايات المتحدة محتاجة إلى تأكيد أن العالم الآن قد تغير عما كان عليه منذ سنوات، ولم تعد فيه غير قوة واحدة، وكل حديث عن قوى أخرى هو حديث عن المستقبل المجهول وإحتمالاته، فأوروبا لم تتوحد بعد، وألمانيا لم تصل بوحدتها إلى أن تصبح قوة سياسية عالمية حاكمة، واليابان بكل قوتها الإقتصادية لابد أن تعترف بأنها محتاجة إلى المساندة الأمريكية لكى يصل إليها البترول الذى يمثل شريان الحياة بالنسبة لها، وجاءت خطوة الرئيس العراقى لتعطى أمريكا هذه الفرصة.

وكانت الولايات المتحدة تريد موقفا عمليا محددا شديد الصعوبة، لكى تختبر فيه مدى جدية الأيديولوجية السوفيتية الجديدة، وإلى أى

حد يمكن آن يقف الإتحاد السوفيتى معهافى خندق واحد ويعمل معها كتفا إلى كتف فى نفس الخندق، ولو كان ذلك على حساب أصدقائه التقليديين.

حتى فى لحظة الغزو العراقى للكويت كان العملاقان يعملان معا، وفقا لما تكشف مؤخرا فى واشنطن، ففى يوم أول أغسطس كان وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر فى أيركوتسك فى سيبيريا للقاء نظيره السوفيتى إدوارد شيفارنادزه، وفى منتصف النهار إنتهز فرصة وجوده مع شيفرنادزه وحدهما فى سيارة ليموزين وأبلغه أن المخابرات الأمريكية تراقب الحشود العراقية على الحدود الكويتية، وأنها تتوقع غزوا عراقيا وشيكا، وقال له: «إننا نرجو أن تحاول إيقاف هؤلاء الناس»، لكن شيفرنادزه أكد له أن الرئيس العراقى، كصديق قديم للسوفييت، لن يقوم بأى غزو، وأنه أبلغهم بذلك.. وفى يوم ٢ أغسطس الساعة ٧,٤٥ صباحا فى سيبيريا، إتصل وكيل وزارة الخارجية الأمريكية من واشنطن بوزير خارجيته جيمس بيكر، مستخدما الشفرة فى الحديث ليبلغه أن المخابرات الأمريكية أخطرته الآن بأن الغزو سيتم خلال ساعات.. وقام بيكر مرة ثانية بإخطار شيفرنادزه. لكن الوزير السوفيتى أجابه بما يفيد بأن الرئيس صدام حسين لن يهاجم.. وحين بدأت القوات العراقية عملية الغزو وإقتحمت الحدود سارعت واشنطن فى ذات اللحظة بإخطار بيكر وكان على وشك الظهور مع شيفرنادزه فى مؤتمر صحفى، لكن

شيفرنادزه قال له: «أننا لم نسمع قط هذه الأنباء وليس لدينا معلومات حتى الآن» وطلب من كبار مساعديه بحث الأمر على وجه السرعة، وتأجل المؤتمر الصحفى، وغادر بيكر الإتحاد السوفيتى إلى منغوليا، ولكنه ترك مساعده لشئون التخطيط السياسى، ومن منغوليا عاد بيكر - بعد أن قطع زيارته لها - إلى الإتحاد السوفيتى بتعليمات من الرئيس بوش. . فى نفس اليوم كانت الولايات المتحدة قد بدأت فى إرسال السفن لمحاصرة العراق إقتصاديا، وكان مجلس الأمن قد إتخذ قرارا بمطالبة العراق بالإنسحاب. وخلال زيارة بيكر للإتحاد السوفيتى أبلغ السوفييت بخطة بوش لإرسال القوات الأمريكية لحماية السعودية، كما أخطره بما لدى المخابرات الأمريكية من معلومات عن تحركات وإستعدادات العراق العسكرية. . وإتفقا على إستخدام أشد عبارات الإدانة للغزو العراقى «لكى يظهر أمام العالم كيف أننا نقف معا موقفا واحدا» على حد تعبير الوزير الأمريكى جيمس بيكر!

هكذا كسبت الولايات المتحدة نقطة بالغة الأهمية، وهى أنها جعلت الإتحاد السوفيتى يعمل معها ضد صدام حسين. . والفضل للرئيس العراقى. !

وكسبت الولايات المتحدة إقتصاديا، فى ظروف كان إقتصادها يحتاج إلى دفعة قوية. . العجز فى الميزانية، والعجز الهائل فى ميزان المدفوعات، وركود صناعة السلاح، وإنتهاء التوتر فى أوروبا بما يعنى عودة القوات الأمريكية. . جاءت الأزمة الجديدة لتحرك أرصدة

البترول الراكدة لتمويل العمليات العسكرية، فتحركت آلة الإقتصاد الأمريكى تحركا ملحوظا وعلى حد تعبير أستاذ فى العلوم الإقتصادية والسياسية فى إحدىٰ الجامعات الأمريكية. . أصبحت الولايات المتحدة تحقق التوازن فى ميزان المدفوعات عن طريق تصدير صناعة جديدة هى صناعة «الحماية». . فهناك ٢٥٠ ألف أمريكى يعيشون فى الصحراء على بعد آلاف الأميال، يحتاجون إلى طعام وملابس وخيام وأجهزة تكييف وغسالات وثلاجات وسيارات وأحذية وكوكاكولا، ولبان، وشيكولوته. . ! وجاء الفرج للشركات لكى تعمل بقوة لتموين «أبنائنا الصغار الذين يجب أن يعيشوا فى أفضل ظروف ممكنة».

يضاف إلى ذلك ما يلمسه الزائر لولاية «لويزيانا» حيث تتركز آبار البترول من إنتعاش ملحوظ، لم يتردد أحد المسئولين فيها عن أن يقول لى بأن هذه أفضل أيام «لويزيانا»، فبعد أن أغلقت آبار البترول منذ إنخفاض أسعاره، عادت الآن للعمل من جديد بعد إرتفاع الأسعار بسبب الأزمة مما أدى لإنتعاش سوق البترول الأمريكية، وسوق البترول السوفيتية أيضا.

هكذا إستطاع الرئيس العراقى، بضربة واحدة، أن يحقق أهدافا أمريكية متعددة، يستحق عليها بحق أن تقدم له أمريكا ما تعبر به عن عرفان بالجميل، ومع إستمرار الأزمة وقتا أطول فإن المكاسب على الجانب الأمريكى تضاعفت. ماذا كسب العراق من هذه الخطوة التى

لم يسبق لها مثيل.. خسائر.. خسائر.. ثم كلام رنان وضجيج لا يمكن حسابه.. توقف ضخ البترول من العراق والكويت.. توقفت عملية التعمير الهائلة التى كان العراق قد بدأها لبناء ماتهدم خلال حربه مع إيران.. هربت الأيدى العاملة من العراق بما يعنى توقف صناعات وخدمات أساسية، توجيه البقية الباقية من الإقتصاد العراقى للمجهود الحربى.. بقاء العراق فى حالة إستنفار دائم، قد يكون له آثاره الإيجابية فى توحيد الرأى العام خلف قيادته بدافع الشعور بالخطر، ولكن مع الوقت لابد أن يتحول الرأى العام نتيجة إدراكه أن هذا الخطر بسبب سلوك قيادته غير الرشيد ومسئولية قيادته عن كل ما يلقاه من هوان، كما خسرت القيادة العراقية التعاطف الشعبى العربى معها ومع قضاياها، وفقدت مصداقيتها، وكشفت عن وجه قبيح كان مستترا وراء أقنعة الشعارات القومية.. من الذى يكسب.. ومن يخسر؟ هذا هو السؤال الذى يطرح فى كل دول العالم قبل إتخاذ أى قرار، أو الإقدام على أى خطوة، ولكنه لا يطرح أبدا فى العالم العربى، لأنه عالم، فيما يبدو، لم تعد تهمه الخسائر، بعد أن إعتاد فى السنوات الماضية على الخسائر والقفزات غير المحسوبة.

حسابات خاطئة .. ونتائج مدمرة

أخطأ الرئيس صدام حسين قراءة الأحداث المتلاحقة، بما تحميه من خطار بالغة على الحاضر والمستقبل، مثلما أقام تقديراته للموقف منذ لبداية وحتى النهاية على حسابات خاطئة، وهناك أسباب عديدة جعلته لا يرى الأمور على حقيقتها وبحجمها الطبيعى.. يرجع عضها إلى طبيعة شخصيته، وبعضها الآخر إلى الضغط العصبى الذى عاش فيه خلال الأزمه وجعله لا يرى الأمور على حقيقتها وبحجمها الطبيعى وأولها أنه محاصر عالميا وعربيا وعراقيا، وعلى العكس من ذلك بلغ به خداع النفس والحياة فى الوهم أن رأى أنه إنتصر على العالمين، وأقام الدنيا وحده وانه بذلك دخل التاريخ كواحد من بنى هاشم سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام! وإن كانت حكاية نسبه الشريف هذا حكاية أخرى من حكايات التزييف والخداع.

أخطأ الرئيس صدام حسين فهم نداء مبارك الأخير له بما فيه من إشارات بالغة الخطورة لم يلتقطها.. كما أخطأ فى فهم إعلان الولايات المتحدة التعبئة العامة وإستدعاء قوات الإحتياطى، وما سبق هذا القرار من إجراءات الحشد العسكرى والسياسي آخرها زيادة القوات الفرنسية فى الخليج وإجتماع وزراء الخارجية والدفاع فى أوروبا وإتفاقهم على سياسة موحدة، وبذلك توشك مرحلة الإستعداد على النهاية بما فيها إزدياد قوة الرأى العام الأمريكى والدولى المؤيد لموقف الرئيس بوش بإستخدام القوة العسكرية ضد العراق.

أخطأ الرئيس صدام حسين أيضا فى حسابه لورقة الرهائن الغربيين فى العراق، وتصور أن ما حدث فى إيران عام ١٩٨٢ قابل للتكرار حين إحتفظت إيران بإثنين وخمسين من الرهائن الأمريكيين فإهتزت إدارة الرئيس كارتر وجعلت الأمر يبدو وكأن الولايات المتحدة ذاتها هى التى أصبحت رهينة فى يد الإيرانيين.. ومفهوم طبعا أن حياة الفرد الأمريكى والأوروبى لها قيمة تستحق أن تهتز من أجلها دولة، لكن الزمن إختلف.. بوش ليس كارتر.. والعراق ليس إيران.. والإتحاد السوفيتى الذى كان يساند إيران فى هذه اللعبة فى ظل الحرب الباردة بين العملاقين ويهمه أن يساعد على توريط الولايات المتحدة وهزيمتها سياسيا فى أزمة الرهائن.. له دور مختلف فى الأزمة.. الإتحاد السوفيتى أعلن إدانة العدوان العراقى على

الكويت، ووافق على فرض العقوبات الإقتصادية، وقرر منذ البداية حظر تصدير الأسلحة إلى العراق.. ثم إن إدارة بوش واجهت أزمة إحتجاز الدبلوماسيين والعاملين الأمريكيين والأوروبيين واليابانيين.. إلخ كرهائن فى قبضة صدام حسين ورقة للضغط بأعصاب هادئة نسبيا وسارعت بمناشدة الأمريكيين بأن يهيئوا أنفسهم للتضحية، دون أن تبدو فى الأفق أية بادرة تشير إلى أن هذا الموضوع مهما تصاعد يمكن أن يوجه غضب الأمريكيين إلى بوش، أو يهدد مستقبله السياسى أو مستقبل حزبه، بل إن الإتجاه فى الرأى الأمريكى تحول فأصبح يطالب بألا يتحكم موضوع الرهائن فى السياسة الأمريكية، لأن الرهائن ضحايا سياسة صدام حسين، والغضب الأمريكى يجب أن يوجه إليه أساسا، وأن القوات الأمريكية المرابطة فى صحراء السعودية أولى بالرعاية.

وقد ساعد على ذلك الموقف الجديد مؤتمرات وحلقات بحث عديدة تمت فى أمريكا فى الأعوام الماضية لتحديد أنسب الوسائل لمواجهة عمليات إختطاف الرعايا الأمريكيين كرهائن بعد تزايد عمليات الإرهاب الموجهة إليهم. هل من الأجدى التسليم بمطالب الإرهابيين لإنقاذ حياة الرهائن أم أن إتباع هذه السياسة دائما سيمثل دعوة للإرهاب بمختلف صوره للتوسع فى إستخدام سلاح الرهائن وتصبح كرامة وهيبة القوة العظمى فى العالم فى يد حفنة من المغامرين.. وفى العالم أكثر من مليونى أمريكى منتشرون فى مختلف الأنحاء هم

جميعا صيد سهل لمثل هذه المغامرات. وتبلورت المناقشات عن حقيقة أن هيبة أمريكا ومصالحها وسياساتها يجب أن تغلب فى معظم الأحيان، وأن التضحية قد تكون ضرورية لكى يفقد الإرهاب أهم أسلحته، وهناك مواقف لابد أن تكون المصالح العليا للدولة فوق أى إعتبار آخر.

أخطأ الرئيس صدام حسين أيضا حين أقام حساباته على أن الوقت لصالحه، لأنه لن يستطيع هو وقواته العيش فى حالة إستنفار كامل لفترة طويلة، وكان لابد أن يصيبهما الإرهاق.. وأخطأ حين تصور أن شيئا لن يحدث.. وهذه هى الغلطة التى تعطى للقوة الأمريكية عنصر المفاجأة، بعد أن إستكملت عنصر الحشد العسكرى والسياسى.

أخطأ الرئيس صدام حسين أيضا حين أقام حساباته على أن مجرد تحدى الولايات المتحدة يكسبه بطولة وشعبية فى العالم العربى ويجعل منه بطلا قوميا تاريخيا، وتصور أنه يمثل «ناصرية جديدة» ولم يضع فى إعتباره إختلاف الزمان والظروف، فقد جاء عبد الناصر فى ظروف إشتداد الصراع بين العملاقين وحاول الإستفادة من ذلك، كما حاول أن يلعب لعبة التوازن، وإن كان فى النهاية لم يحقق أحلامه، الآن يظهر الرئيس صدام حسين على مسرح دولى مختلف، وفى ظروف إقليمية مختلفة، ولو أن عبد الناصر عاد الآن لكان عبد الناصر جديدا غير الذى كان فى الخمسينات والستينات، لأنه لابد أن يكون مستوعبا للتغيرات التى جاءت بها رياح الثمانينات.

أخطأ أيضا الرئيس صدام فى حساباته إذ تصور أن كل الحشود الأمريكية فى البر والخليج، والتى لم يسبق لها مثيل يمكن أن تكون مجرد مظاهرة لشن حرب نفسية عليه، لأن القوات الأمريكية فى السعودية كانت كلها قوات قتالية، مدربة على حروب الصحراء ولم تكن أمريكا محتاجة لكل هذا الكم الهائل من القوات والسلاح إذا كان الهدف مجرد التأثير السياسى أو النفسى.

لقد ساعد العرب الرئيس صدام حسين على تكوين جيش قوى ليكون درعا للعرب لحمايتهم من مخاطر عديدة تحيط بهم، ولم يكن يطوف بخيال أحد منهم للحظة أن يتحول هذا الجيش إلى قوة لتهديد العالم العربى إلى حد أن يقوم بما لم يجرؤ على القيام به أشد أعدائها. وقد أخطأ أيضا لأنه لم يضع فى حساباته تأثير ذلك على الجيش العراقى ذاته. الذى كان مطلوبا منه أن يقاتل ويموت فى حرب ليست عادلة، وبغير قضية مقنعة، ويوجه سلاحه إلى أشقائه دون أن يعتدى عليه.أحد منهم.

ليس غريبا فى عالمنا العربى أن يصل زعيم إلى درجة من الشعور بالقوة تعميه عن رؤية الأمور بأحجامها الصحيحة، ويصل به الغرور إلى حد إرتكاب أخطاء قاتلة. ولا يدفع وحده الثمن. ولكن يدفعه شعبه والشعوب العربية كلها.. وما يعانيه العرب من نكبات ونكسات ليست إلا آثاراً لمثل هذه الأخطاء.

ومع ذلك فقد ظل باب الأمل مفتوحا لفترة طويلة لو أراد صدام حسين إنقاذ «الكيان» و «الإنسان». لكنه لم يرد وظل فى غيبوبته، وإن بقى أمل فى أن يعود إلى صوابه لإنقاذ ما تبقى من شعبه وأرضه وكرامته وسيادته.. بعد كل ما جرى وكان..!

هل جاء وقت المحاكمة ..؟

منذ يوم ٢ أغسطس، وفور إعتداء الرئيس صدام حسين على دولة الكويت. ظهرت دعوة لمحاكمة الرئيس العراقى، وإختلف النظر فى نوع وطبيعة هذه المحاكمة كما إختلف حول أسس إختيار القضاة الذين يمكن أن يتولوا هذه المحاكمة وإصدار الأحكام ونوعية هذه الأحكام وسندها التاريخى والفقهى والقانونى.

وإن كانت محاكمات نورمبرج هى أشهر المحاكمات فى التاريخ إلا أن تكرارها يحتاج إلى إعادة نظر، فقد سارع الحلفاء فى أعقاب إنتهاء الحرب العالمية الثانية إلى عقد هذه المحاكمة فى مدينة «نورمبرج» الألمانية واستغرقت ١١ شهرا من نوفمبر ١٩٤٥ حتى أكتوبر ١٩٤٦ أمام «المحكمة العسكرية الدولية» التى تألفت بإتفاق سلطات دول الحلفاء الأربع الكبرى من أربعة قضاة أولهم أمريكى، والثانى

بريطانى والثالث روسى والرابع فرنسى، كما تألفت هيئة الإدعاء من أربعة يمثلون نفس الدول، وكانت قائمة الإتهامات حافلة تشمل «التآمر على شن حرب عدوانية واقتراف جرائم ضد السلام، وإرتكاب جرائم حرب مثل: القتل، وإساءة معاملة المدنيين وأسرى الحرب، وتهجير المدنيين لأعمال السخرة، وقتل الرهائن، وجرائم أخرى ضد الإنسانية تشمل قتل أو إساءة معاملة المعارضين السياسيين.. إلخ.

السابقة التاريخية والسياسية فى هذه المحاكمات أن الإتهام وجه إلى أشخاص معنويين، مثل مجلس الوزراء فى ألمانيا النازية، والقيادة العامة للجيش النازى وأركان حربه، والتنظيمات النازية لجيش العاصفة والجستابو وغيرها. كما وجهت الإتهامات إلى أشخاص طبيعيين هم ٢١ من زعماء الحكومة النازية سياسيين وعسكريين كان من بينهم جورنج، وهيس، وروز نبرج، وشاخت، إلخ.

دخلت هذه المحاكمة تاريخ الفقه والقانون الجنائى الدولى، وأصبحت جزءا من مفاهيم الإتفاقات الدولية الخاصة بحروب الإعتداء أو جرائم الحرب والجرائم ضد السلام، وإن كان الفقه فى القانون الدولى مازال يثير الجدل فيمن يخضع لمثل هذه المحاكمات: رؤساء الدول المسئولون عن هذه الجرائم وحدهم، أم أعوانهم ومساعدوهم أيضا بإعتبارهم شركاء فى الجريمة، ولكن بعد أن قامت الأمم المتحدة عام ١٩٤٦ بتشكيل لجنة لإستخلاص المبادئ القانونية

التى قامت عليها هذه المحاكمة، وبعد أن كلفت لجنة القانون الدولى بالأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ بوضع تقرير عن الجرائم ضد السلام أو ضد الإنسانية وصياغتها فى قواعد عامة، أصبحت السابقة مبدأ يمكن تكراره، وإن كان فقهاء القانون الدولى يضيفون إلى ذلك شرطا هو أن تتم هذه المحاكمات أمام محكمة محايدة. وليست من الدول المشاركة فى الحرب، حتى لايكون الطعن عليها بأنها إنتقام المنتصرين.

كل هذه الحقائق معروفة فى كتب القانون الدولى والفقه، وفى الموسوعات وكتب التاريخ، والأهم من وقائعها أن هذه المحاكمة تحولت فى الضمير الإنسانى على حد تعبير «نيقولاى باجانوف» نائب رئيس النيابة العامة السوفيتى فى عام ١٩٨٥، إلى «رمز لمعاقبة الذين يقترفون جرائم ضد السلم والبشرية»، وأنها أرست مبدأ جديدا هو واجب الحرص على فضح كل من يرتكب جرائم حرب فى أى وقت وأى مكان.. ليدرك جميع المسئولين فى كل زمان ومكان أن هذه الجرائم البشعة لن تمر بغير عقاب ولن تسقط بمضى المدة، ولن يصلح الخداع السياسى فى تجميلها، أو إستخدام الإعلام للتضليل وتغطية هذه الجرائم.

ترددت دعوات للإعداد لمحاكمة من هذا الطراز لكل من شارك فى مسئولية الإعتداء على حرمة الأرض والإنسان والعرض فى الكويت، وتحمس كثيرون لجمع الأدلة على الوقائع والجرائم التى إرتكبت

تفصيلا فى حق المدنيين وأملاكهم من أبناء الشعب الكويتى، بالإضافة إلى جرائم الإرهاب التى إستهدفت الإعتداء على المدنيين فى أنحاء متفرقة من دول العالم بإدعاء أن ذلك «جهاد فى سبيل الله»، يشنه المسلمون على الكفار من المدنيين والآمنين والعزل الذين لا شأن لهم بالحرب ولا بالسياسة.!

ولكن المثقفين - كعادتهم - لا يتفقون على رأى واحد.. فيطرح بعضهم صيغة «محكمة برتراند راسل» التى دعا إليها الفيلسوف البريطانى الكبير، وعقدت جلساتها فى «استكهولم» عاصمة السويد فى ٢ مايو ١٩٦٧ ورأس جلساتها المفكر الفرنسى المعروف جان بول سارتر وأسموها «محكمة جرائم الحرب الدولية الشعبية» وكان المتهم أمامها هو الرئيس الأمريكى جونسون، والتهمة هى إرتكاب جرائم حرب ضد الشعب الفيتنامى. وإلقاء الأكاذيب «كسيل من المطر» لتغطية وتبرير هذه الجرائم على الشعب الأمريكى وشعوب العالم، وطالب راسل هذه المحكمة بتحقيق كل واقعة حتى تتأكد فكرة «مقاومة المجرمين».. وكانت المحاكمة فى حقيقتها «محاكمة أخلاقية وسياسية» لأن القضاة الأربعة فيها كانوا من الفلاسفة، والشخصيات الدولية العامة: فيلسوف بريطانى، وآخر فرنسى، ومؤرخ يوجسلافى ورئيس جمهورية مكسيكى، وشهود أمريكيون، وضحايا آسيويون، ولم يكن فيها قفص إتهام، ولا كان المتهم حاضرا، ولذلك وضعت سابقة لنوع آخر من المحاكمات هى «محاكم الضمير الإنسانى».

وأدى حكم هذه المحكمة بإدانة العدوان الأمريكى إلى تكوين «ضمير إنسانى دائم» لتعقب جرائم الحرب إينما تكون، فجاءت لجنة تضم خمسة من رجال «مؤسسة برتراند راسل للسلام بلندن» إلى منطقة الشرق الأوسط للتحقيق فى جرائم الحرب الإسرائيلية ضد الفلسطينيين فى أراضيهم المحتلة..

ماذا يمكن القول عن إغتصاب دولة الكويت، وإرتكاب جرائم بشعة على شعبها، وتشريدهم، وحرق بترولهم، ونهب ثرواتهم، وهدم مبانيهم المدنية، وإستخدام الأجانب دروعا بشرية، وتعذيب الأسرى، ووضع المدنيين داخل أهداف عسكرية.. إلخ.

ألا ينطبق على «حالة الكويت» القول بأن جرائم الحرب فيها قد إرتكبت وإستكملت أركانها، وتوافرت أيضا جريمة «إلقاء الأكاذيب كسيل المطر» يرددها «المغتصبون»، ألا ينطبق عليها أيضا هدف «حماية الشعب العراقى ذاته من نتائج العدوان على الدولة الجارة الصغيرة».. ألا ينطبق عليها القول بأنها لم تكن إلا الخطوة الأولى لإقامة امبراطورية همجية واسعة قائمة على الإبادة والتخريب؛ والجرائم الوحشية وإذلال الشعوب لتحقيق السيطرة الإجرامية..»..؟!

هل آن الأوان لفتح الملف، وإعداد عريضة الإتهام، وإفساح المجال أمام كافة الأصوات التى تريد الدفاع عن غزو الرئيس صدام حسين للكويت وما فعله بها لكى تقول كل ما عندها، أمام قضاة

عدول، محايدين «إن أمكن»، أم علينا بالإنتظار حتما بعد أن تلاشى دخان الحرائق وتحولت الكويت إلى رماد.. ثم إكتفينا بالبكاء على أطلالها كما تعودنا أن نبكى على كل ما ضاع منا وكان فى أيدينا..؟!

عريضة إتهام..!

انشغل الرأى العام فى مصر وخارجها، بكيفية حساب الرئيس صدام حسين على الجريمة التى إرتكبها، والتى تسببت فى كارثة لم يسبق لها مثيل للعالم العربى. حتى يكون عبرة لمن يأتى بعده من القادة الذين تصور لهم أطماعهم أن بإمكانهم أن يدمروا ما حولهم دون أن يخسروا شيئا، مادامت مقاييس الربح والخسارة عندهم مقاييس شخصية، ولا يعنيهم ما يصيب شعوبهم وشعوب المنطقة من خسائر يصعب، وقد يستحيل، تعويضها.. وهذه قضية بالغة الأهمية لتصفية أوضاع الحاضر، وحماية المستقبل.

كان مؤشرا له دلالته أن تكون المبادرة من إحدى الجماعات التى تضم عددا من المثقفين والشباب والتى يقودها الدكتور محمد شعلان صاحب الدراسات المعروفة فى علم النفس السياسى، فتعقد جلسة لمحاكمة الرئيس صدام حسين يحتشد فيها جمع من الصفوة والعامة

على السواء، تكونت منهم هيئة المحكمة، وهيئة المحلفين، وهيئة الدفاع، وهيئة الإتهام، وإحتدمت الجلسة وحفلت بمناقشات تعكس جو الحرية، ومدى إتساع دائرة الخنق على الجريمة ومرتكبيها.

وكان مؤشرا آخر أن يجمع صفوة شيوخنا الأفاضل الذين كرسوا حياتهم لإعلاء كلمة الله ـ من أمثال الشيخ محمد الغزالى، والدكتور محمد السيد طنطاوى، والدكتور عبدالمنعم النمر، والدكتور أحمد عمر هاشم، وغيرهم كثير لبيان حكم الشريعة فيما فعله الرئيس صدام حسين فى الكويت محتميا وراء ستار كاذب من الشريعة، والشريعة براء من كل فعل فيه ظلم، وإعتداء على حقوق العباد، وإشاعة الإغتصاب والدمار فى أرض المسلمين.

كذلك كان موشرا بالغ الدلالة أن تكتمل صياغة قرار الإتهام بإحالة الرئيس صدام حسين إلى محكمة خاصة بمجرمى الحرب على نحو ما فعل الدكتور محيى الدين عشماوى الخبير فى القانون الدولى، وعضو مؤتمر جنيف الدبلوماسى لتطوير القانون الدولى المطبق فى المنازعات المسلحة. وبدأه بتحديد «واقعة الجريمة» بأنه بتاريخ الثانى من أغسطس ١٩٩٠ شن الرئيس صدام حسين بصفته رئيسا للعراق وقائدا عاما لقواته المسلحة هجوما مسلحا ضد دولة الكويت وأراضيها وشعبها، وإحتل بذلك جميع أراضيها بهدف الإستيلاء عليها وضمها بالقوة، منتهكا بذلك قواعد القانون الدولى التى تحرم إستخدام القوة المسلحة فى غير حالة الدفاع الشرعى،

ومخالفا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة التى تحرم إستخدام القوة أو التهديد بإستخدامها ضد سلامة الأراضى، أو الإستقلال السياسى لأية دولة، أو على أى وجه، لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة، ومنتهكا لأحكام الشريعة الإسلامية التى تحرم العدوان، وتحمى دار الإسلام وتحرم الظلم، وتحترم حقوق الإنسان فى الحياة، وتأمر بالقصاص فى حالات القتل، والتخريب، والتدمير، وتعريض أمن البلاد والعباد لأخطار العدوان.

قائمة الإتهام مليئة بالجرائم التى يمكن أن تكون أساسا جديا لهذه المحكمة.

ومبادئ القانون الدولى أقرت المسئولية الدولية للقادة الذين يبدأون بإشعال نار الحرب، وإعتبارهم مجرمى حرب، ومذنبين فى جريمة إشعال حرب الإعتداء.

وميثاق الأمم المتحدة يبدأ فى مقدمته بالنص على إنقاذ الأجيال من ويلات الحروب، وفى مادته الأولى إلتزام بأن يتضافر المجتمع الدولى على قمع أعمال العدوان، وفى مادته الثانية التزام آخر للدول بفض منازعاتها بالوسائل السلمية، وتحريم إستخدام القوة أو التهديد بإستخدامها، وقد أصبح هذا الإلتزام مبدأ قانونيا يتعرض من يخالفه للمسئولية الجنائية الدولية ولتوقيع العقوبات عليه بإقرار وتضامن جميع أعضاء الأمم المتحدة.

تقوم «عريضة الإتهام» على تأكيد المبدأ القانونى المعروف: أن

الخطأ لا يرتب حقا، والحرب خطأ جسيم فلا يعطى للدولة التى تشنها حق إحتلال أراضى دولة أخرى، وعلى «نظرية البطلان» ومؤداها أن ما بنى على باطل فهو باطل، فالحرب عمل باطل وغير مشروع، وكل ما يبنى على الحرب من إحتلال الأراضى وتدمير أرض الغير باطل وغير مشروع.. وإن «العدوان لا يولد حقوقا ولا ثمارا للمعتدى».

وللجمعية العمومية للأمم المتحدة قرار أصدرته فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٦ يقرر مبدأ المسئولية الجنائية الدولية عن إستعمال القوة غير المشروع وما يترتب عليه من إحتلال غير مشروع. وهذا القرار يمكن أن يكون الأساس لأى محاكمة قادمة.

فى عريضة الإتهام البالغة الدقة التى صاغها خبير القانون الدولى الدكتور محيى الدين عشماوى استفاضة فى شرح جريمة الإعلان والشروع فى ضم أراضى الكويت المحتلة. وهى جريمة من جرائم الحرب، بقدر ما هى جريمة ضد السلامة الإقليمية والسيادة للدولة المحتلة يستوجب مسئولية مرتكبها وفقا للمبدأ المستقر منذ صدور لوائح لاهاى بقواعد الحرب البرية لسنتى ١٨٩٩ و ١٩٠٧ التى قررت أن دولة الإحتلال لا يجوز لها التعرض للنظام السياسى والإدارى والتشريعى لهذه الأراضى.

وما يعنينى الآن هو أن أشير إلى الظاهرة فى ذاتها التى تؤكد أن الضمائر الحية، والعقول المستنيرة، وكبار علماء الشريعة المتخصصين

رس ذوى القدر والعلم والمكانة كلهم متفقون على الإدانة والمطالبة بالحساب حتى لا تمر جريمة دون عقاب، ويكون ذلك عبرة للأجيال القادمة بالعمل على حماية المستقبل العربى من تكرار هذه الجريمة، لأنها جريمة قابلة للتكرار مادام الوطن العربى متخلفا وبعيدا عن قيم الحضارة الحقيقية، وتسمح تربته بظهور دكتاتور دموى لا يرعى للإنسانية والإخوة حرمة.

ثم كم يحز فى النفس أن يكون العراق قوة إحتلال، وتكون الكويت وطنا محتلا.. وكم يحز فى النفس أكثر أنه لم يكن فى العالم من يرتكب مثل هذه الجرائم الجنائية الدولية إلا إسرائيل، فأصبحت العراق بقيادة الرئيس صدام حسين تنافس إسرائيل فى هذا المجال.. وأصبح العرب الآن لا يعرفون كيف يمكن معايشة هذا الواقع المر، هل بالمطالبة بحساب قادة إسرائيل عن الجرائم التى يرتكبونها فى حق الوطن والمواطن الفلسطينى وإغماض العين عما يرتكبه الرئيس صدام حسين من جرائم فى حق الوطن والمواطن الكويتى، أم الإنسياق مع منطق المضللين الذين يريدوننا أن نقبل بأن عدوان الشقيق ليس كعدوان العدو، والعدوان فى الحقيقة هو العدوان، وهو من الشقيق أكثر إيذاء وإيلاما.. أم نسكت عن جرائم إسرائيل بمنطق أنه مادام الشقيق يفعل ذلك فكيف نلوم العدو؟.. أم نحكم على الإثنين بقانون واحد فنجد فى قفص الإتهام إثنين أحدهما منا ويدعى قيادتنا، ويتساوى الرئيس صدام حسين مع

جلادى إسرائيل، وتتساوى العراق بإسرائيل، ويكون العرب ضحايا الإثنين فى زمن واحد..؟!

أليست هذه مأساة تدمى القلوب، وتدمر مغان وأحلاما جميلة عاش عيها العرب زمنا طويلا..؟!

محاولة لفهم ما جرى..!

قد يستغرق الأمر عشرات السنين لينكشف المستور والخفى حول الملابسات والأسباب والدوافع الحقيقية التى جعلت صدام حسين يقود جيشه وشعبه إلى الهلاك، ويدفع جميع الدول العربية إلى هذا المأزق الغريب. ولكن ما هو ظاهر حتى الآن يكفى لمحاولة أولية لفهم ما جرى، بحثا عما يجب عمله لضمان عدم تكراره مرة أخرى.

لو تركنا للحظة ما فعله بالكويت وشعبها، هل سمعتم عن زعيم يقتل شعبه بالنابالم والغازات السامة والقنابل الفسفورية والعنقودية كما فعل صدام حسين بعد إنتهاء المعارك مع قوات التحالف..؟ هل سمعتم عن قائد ملهم مثله قتل ٢٠ ألفا من أبناء شعبه العزيز فى شهر واحد، بعد أن جر على بلده الخراب، وجعله أنقاضا، وبدد ثروته الطائلة فى مغامرة لفرض الزعامة، ومع ذلك فمازال حتى هذه

اللحظة يتحدث عن دوره التاريخى كمبعوث العناية الإلهية للعرب برسالة خالدة، ومازال المنافقون حوله، وسط الخراب والدمار، يرددون دون خجل أنه بفضل زعامته التاريخية التى جاءت على موعد مع القدر إستطاع أن يحقق المجد والإنتصار لهذا الجيل وللأجيال القادمة. (!)

كيف إستطاع مثل صدام حسين أن يستمر ممسكا بمصير شعبه طوال ١٢ عاما كاملة؟ هناك مشاهد صغيرة إذا جمعناها فى صورة واحدة فسوف نجد الإجابة المؤلمة.

خلال الأيام الماضية توقفت الصحف العالمية عند لحظة ذات دلالة. ففى ذات الوقت الذى كان فيه الرئيس الأمريكى جورج بوش يذيع بيانه الرسمى بأن الكويت تحررت وقوات التحالف إنتصرت وعشرات الآلاف من الجنود العراقيين استسلموا، كان راديو بغداد يفتتح إذاعته بصوت قوى مجلجل يقول: «هنا بغداد.. صوت العزة والكرامة.. صوت القوة والعدالة.. من بغداد المنتصرة.. من بغداد مقبرة الغزاة.. صباح الخير!!» ثم أعقب ذلك فاصلا من الموسيقى العسكرية الحماسية وأغانى النصر.. و«أنت حبيبنا يا صدام».. وبعدها ألقى صدام حسين بعد أن قدمه المذيع بأنه الزعيم الملهم المنتصر بالله دائما بيانا قال فيه أنه يحمد الله أن وفق جيش العراق على تحقيق كل هذا الإنتصار على قوات البغى والعدوان، ويكفى صموده فى وجه قوات ثلاثين دولة، وتكفى الخسائر الفادحة من

القتلى والجرحى وتدمير المعدات والآليات التى أنزلها بقوات التحالف وبخاصة قوات «الشيطان الأكبر» «أمريكا». . أما «الشيطان الأكبر» فكان قد أصدر إحصائية رسمية بخسائر جيشه فى جميع المعارك وجملتها ٩٠ قتيلا بينما كان قتلاه فى لبنان من سنة ١٩٨٢ حتى ١٩٨٤ ـ ٢٦٤ قتيلا، وفى فيتنام كان القتلى الأمريكيون ٧٤ ألفا و ٣٥٨ قتيلا. . بما يعنى أن نسبة الكذب فى أقوال وبيانات الزعيم العراقى الملهم وصلت إلى درجة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ.

وبينما كان الجنرال شوارتزكوف قائد العمليات الذى واجه مخططات «عبقرية» صدام حسين العسكرية يقول عنه بسخرية لاذعة: «أنه ليس إستراتيجيا. . ولا تعلم فنون العمليات الحربية. . كما أنه ليس بارعا فى التكتيك. . ولا هو جنديا. . أما فيما عدا ذلك فهو رجل عظيم فى العسكرية (!)».

كان على الجانب الآخر صوت قائد عربى يقول ـ دون أدنى شعور بالخجل ـ «إن الرئيس صدام حسين نموذج البطل فى العصر الحديث، وسوف أسانده وأدافع عنه دائما (!) وبعدها دوت فى العالم كلمات مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة بعد زيارته للعراق: «لقد تم تدمير العراق وعاد مائة عام إلى الوراء». !

هل شهد التاريخ زعامة إستهانت بالشعوب وبالعقول كهذه الزعامة. . ؟!

وكانت هناك نقطتان سجلهما التليفزيون الأمريكى وعرضتا فى

جميع أنحاء العالم.. الأولى قبل المعارك والرئيس صدام حسين يتفقد قواته فى الكويت على الحدود السعودية وأحد الضباط يتقدم ليسلم عليه وينحنى ليقبل يده وصدام حسين واقف ورأسه فى السماء وكأننا فى عصور الوثنية الغابرة.. والثانية أثناء المعارك البرية وعشرات الآلاف من الأسرى العراقيين يتزاحمون للإستسلام، وواحد من الضباط الأسرى يتقدم إلى ضابط من قوات التحالف ليقبل يده (!) وحين عرض المشهدان فى إحدى قاعات الأمم المتحدة إنتفض أحد أعضاء وفد دولة إسلامية وصاح: هذا حرام.. هذا لا يجوز حتى مع الأنبياء.. وقال آخر: هذا طبيعى.. مادام الزعيم إرتضى لشعبه الهوان والخضوع.

قبلهما كان هناك مشهدان آخران.. أحدهما للزعيم الملهم صدام حسين فى المجلس الوطنى (البرلمان العراقى الشكلى بلا سلطات) يعلن أنه إختار الحرب والإستيلاء على الكويت والويل لجيوش ثلاثين دولة مما ستلاقى منه إذا وقفت أمام إرادته، ولم يكن قد تشاور فى قراره قبل تتنفيذه مع أى مؤسسة، لأنه ليست فى العراق مؤسسات دستورية أو سياسية بالمعنى الحديث لهذه العبارة، ولكن فردا واحدا يأمر ويقرر وما على الجميع إلا السمع والطاعة.. وشاهد العالم على شاشات التليفزيون أعضاء المجلس جميعا. ـ دون إستثناء ـ مثل الأراجوزات يقفزون فى الهواء ويصيحون، وكل واحد منهم حريص على أن يظهر فى الصورة عسى أن تقع عينا الزعيم عليه وهو يفنى نفسه صياحا «بالروح.. بالدم.. نفديك ياصدام»، أما المشهد الثانى

فيصور عشرات الإجتماعات التى عقدها الرئيس الأمريكى بوش لكى يحصل على موافقة الكونجرس على تفويضه بإتخاذ قرار الحرب ويضع الكونجرس قيداً على الرئيس بأن يكون ذلك عند الضرورة بأغلبية تزيد على النصف بقليل (وليس بالإجماع)، ثم شاهد العالم بعد ذلك أعضاء مجلس الشيوخ وهم يعترضون بقوة، وبعضهم يتساءل، وبعضهم يطلب ضمانات. والرئيس يوضح ويناقش ويرد ويدافع ويحاول كسب مؤيدين لوجهة نظره.. (!)

هذا هو الفرق بين التقدم والتخلف!

فى الملف صفحات سوداء كثيرة، وصور يمكن أن تقودنا إلى فهم حقيقة ما جرى، وتدلنا على إمكان تكراره ما لم يتغير المناخ العام فى العالم العربى، فصدام حسين لم يسقط علينا من كوكب آخر ولكن جاء نبتا فى تربة صالحة لإستمراره ونمو جرائمه بدليل بقائه فيها، والتربة التى تنبت الفساد والطغيان يجب أن توضع فى الإعتبار عند محاولة الفهم. فلولا خضوع الخاضعين لما كان طغيان الطغاة، ولولا جوقة السوء التى تزين لكل طاغية طغيانه وتجبر الشعب على طاعته لما ظهر على الأرض ديكتاتور واحد. وإذا كانت أسلحة الطاغية الثلاثة فى كل العصور هى: الكذب، والقمع، والرشوة، فإن المناخ الذى لا يعيش إلا فيه يستلزم ظهور ثلاث خصال فى شعبه: النفاق، والخضوع، والإنتهازية (!). ظهور الطغاة لا يتوقف على إرادة الطاغية وحده، ولكنه يستلزم قبول شعبه للطغيان.

فقولوا لنا كيف ظهر رجال دين فى العراق وخارجه يقولون أن إغتصاب الكويت حلال، وأنه من الأمور التى ترضى الله ورسوله، وأن تحريرها حرام، وإن الإستعانة بمن يستطيع المساعدة على تحريرها حرام شرعا (١).. أى شرع ذلك..؟

لقد أثبتت تجربة صدام حسين أن بناء القوة بدون الديمقراطية يحولها إلى قوة غاشمة تدمر أصحابها، وأن الحكم الفردى مهما حقق من إنجازات، ومعجزات، فلابد أن ينتهى إلى الخراب.

هل كانت ـ نقط ـ مؤامرة ؟ !

كشف الرئيس حسنى مبارك فى حديث إلى الأستاذ إبراهيم نافع عن أن صدام حسين حاول تكوين خلايا لحزب البعث فى مصر، وقبل ذلك أعلن الرئيس مبارك أن صدام حسين حاول من خلال مجلس التعاون العربى إحتواء مصر، وإختراق أجهزة الأمن المصرية، ليحقق أطماعه فى السيطرة على مصر! وفى الأيام الأخيرة توالت تصريحات وزير الداخلية المصرى عن عملاء للبعث أو للمخابرات العراقية تسللوا إلى البلاد ومعهم تكليفات بالقيام بعمليات تخريب وإرهاب وإغتيال . . لكن ذلك كله ليس إلا حلقات جديدة أضيفت إلى سلسلة قديمة من المحاولات والمؤامرات جاء الوقت لتعريتها، حتى لا يلدغ المؤمن من جحر عشر مرات!

هناك أكثر من دليل على المخطط السرى لحزب البعث العراقى للتسلل إلى مصر بهدف السيطرة عليها وبها تتحقق الإمبراطورية التى

تنقل صدام حسين من زعيم دولة من دول الأطراف العربية، إلى زعيم لقلب الأمة العربية، ويجسد الهوس الذى سيطر عليه وهو أن يكون عبد الناصر بدون أخطاء عبد الناصر كما كان يقول (!)..

والبداية فى الأساس الفكرى للبعث العراقى ذاته، فهو يعتبر نفسه الحزب الوحيد المؤهل لتحقيق أهداف النضال العربى، وأن كل الأحزاب والقوى الأخرى فى العالم العربى تفتقد الرؤية الصحيحة، والفكر الثورى، والإمكانات التى تحققت للبعث بعد وصوله إلى السلطة في العراق، وبوجود زعامة تاريخية لن يجود الزمان بمثلها (!) ولهذا أنشأ الحزب مكتبا داخل القيادة القومية بإسم «مكتب مصر» مهمته العمل على إنشاء تنظيم واسع وقوى لحزب البعث داخل مصر وبخاصة بين الشباب والطلبة والفئات محدودة الثقافة التى يسهل التأثير عليها بشعارات الحزب البراقة الغامضة، وإختار صدام حسين الرجل الثانى الذى يليه شخصيا فى الترتيب القيادى البعثى ليكون المشرف على هذا المكتب. وبدأ هذا المكتب فعلا فى تجنيد عدد من المصريين الذين ذهبوا إلى العراق بحثا عن فرصة عمل وعدداً آخر من الكتاب والصحفيين، والمثقفين، الذين تجاوبوا لأسباب عديدة، يعلمها الله، ويعلمها بعض الناس.!

ومن داخل جهاز التآمر ذاته هرب سليمان فرحات إلى مصر بعد قصة طويلة من العمل فى حزب البعث تدرج فيها من أول الدرجات (درجة صديق للحزب) إلى أن أصبح عضوا فى القيادة القومية

والإعلامية الموجهة فى السر لإختراق مصر، ومسئولا عن الإذاعة السرية التى أنشأها البعث العراقى للهجوم على السياسات والقيادات المصرية، وأصدر مؤخرا كتابا بعنوان «مذكرات بعثى سابق» ذكر بعض ما يمكن أن يقال من أسرار المؤامرة الكبرى. ومن قراءة الكتاب يمكن أن نصل إلى مجموعة حقائق هامة:

١ - إن إستراتيجية صدام حسين تعتمد على ثلاثة مرتكزات أساسية: الجيش، والحزب، والإعلام، لتحقيق حلمه فى أن يكون زعيم الوطن العربى من المحيط إلى الخليج، وبالنسبة لهذه الأنشطة فإن لها ميزانيات مفتوحة بغير حساب، ويدخل فيها بالطبع أنشطة المخابرات التى تتداخل مع هذه المجالات وتعمل فيها ومن خلالها.

٢ - وإن المشرف على مكتب تنظيم مصر فى الحزب - طه ياسين رمضان - كان يبذل الأموال بغير حساب لتجنيد عناصر مصرية، ولإقامة علاقات بمختلف القوى السياسية وبعض الشخصيات، وتصدير فكر البعث (دون ذكر أنه فكر البعث) لكى يكون (خميرة) لتحقيق هدف الحزب فى تحقيق الإنقلاب الثورى وتسلم السلطة فى مصر كهدف نهائى، وكان العمل يجرى تحت ستار الإخوة العربية، ودعم المنظمات الوحدوية، ومساعدة الشخصيات ذات الفكر المستقل، وتشجيع الفكر و.. و.!

٣ - لم يستطع طه ياسين رمضان ومكتبه تحقيق الهدف كاملا، فلم ينشأ تنظيم بعثى قوى فى مصر لتحقيق وصول صدام حسين إلى

حكم مصر. ولكنه إستطاع أن يجند ويجذب عدة أشخاص ومنظمات. وكان يخصص لتنظيم مصر عددا من كبار المسئولين الحزبيين في العراق وفي بعض دول العالم وبعض موظفي السفارة العراقية في مصر، ويأخذ هذا التنظيم شكلا هرميا، ويراعى إحتياطات الأمن فلا يعرف كل مسئول إلا المنظمات التابعة له فقط دون غيرها من المنظمات التابعة لغيره، ويحمل كل واحد إسما حركيا ومحظور عليه كشف إسمه الحقيقي، وعليه أن يخفي تماما حقيقة إنتماءه إلى البعث العراقي، ويتحرك بين الناس بفكر وسلوك ومبادئ البعث دون أن يذكر إسم البعث على لسانه، وهناك دائما مسئول أمني يراقبه في ذلك، وتتعاون جهات الأمن المختلفة في مراقبته وتسهيل مهمته!

٤ ـ وفي مكتب مصر يوجد «مسئول الإعلام» وهو قيادة كبيرة في الحزب مسئول عن الإعلام الموجه إلى مصر والمصريين في أي مكان، ومتابعة توجيهات الإعلام المصري داخل مصر، وتجنيد أي عدد ممكن من المثقفين المصريين لصالح الحزب إعلاميا وتنظيميا إن أمكن. كما يوجد في نفس المكتب مسئول للعلاقات العامة مسئول عن توثيق علاقات البعث العراقي ببعض القوى السياسية داخل مصر وخارجها. وجذب بعض شخصيات مصرية، وتمويل مجلات وصحف ومؤسسات بحثية، لكي تعمل ضمن أهداف الحزب على أن يكون معلوما لكل مسئولي القيادة البعثية أن هذه العلاقات «تكتيكية» ومرحلية، تنتهي حين يتمكن تنظيم البعث العراقي في مصر من ملء

الفراغ السياسى على الساحة المصرية (!) ويعمل مكتب تنظيم مصر أيضا من مقار للبعث العراقي في المحافظات العراقية «الولايات» ومن مقار البعث في بغداد، ومقار الفرقة العربية، ومقر إذاعة صوت العروبة، ومن السفارات العراقية بالخارج، ولكن بشكل مستقل.

٥ ـ وكان من بين الوسائل العراقية للسيطرة إعلاميا على العقل العربى (والمصرى بشكل خاص) ما يسمى بالإتفاقيات الإعلامية مع بعض أشخاص فى أحزاب المعارضة المصرية، وهى إتفاقات يلتزم فيها البعث العراقى بدعم نشاطهم فى إطار ما سمى «علاقات الصداقة والتعاون السياسى والإعلامى». بالإضافة إلى جذب عدد من الصحفيين والإذاعيين والفنانين والشعراء.. كل ذلك بهدف التمهيد للزحف البعثى بإبراز صدام حسين كقائد يتحتم أن يقود الوطن العربى من أقصاه إلى أقصاه، والأفضل فى هذه المرحلة التركيز على أفكار وأهداف ومبادئ حزب البعث بإستخدام ما يعرف بالإعلام غير المباشر للتأثير على الرأى العام فى مصر وتهيئة المناخ.. (!)

وكان صدام حسين يتابع بنفسه النشاط الإعلامى وتوجهاته، ونشاط بعض الإعلاميين والفنانين العرب (والمصريين بالذات) ويحفظ أسماءهم، ويسعى إلى أن يلتقي بهم، ويسأل عن مشاكلهم ويحلها، فهؤلاء من وجهة نظره مقدمات.. «فيالق البعث وجيوشه».. وكانت الخطط الإعلامية وتنفيذها مهمة المكتب الثقافى فى القيادة القومية. وكان طارق عزيز هو المسئول الأول، يليه وزير الإعلام (!)

٦ - فى إجتماع حزبى قال طه ياسين رمضان: «إن لدينا الآن بعثيين مصريين فى بغداد والمحافظات الأخرى، وتم تجنيد شباب مصريين فى بلاد عديدة عن طريق المنظمات الحزبية فى الخارج» وقال أيضا: «إننا نؤمن إيمانا راسخا أن مستقبل مصر هو حزب البعث، وأن مستقبل البعث هو فى مصر، ومن مصر..» (!).

ألا يجيب ذلك، ولو إجابة مبدئية على تساؤل كان يشغل كل مصرى وإن لم يصرح به هو: ماذا كان يجرى بالضبط وراء العناق والقبلات وأناشيد الحب والمؤتمرات التى تعقد لمناسبات تافهة وبدون مناسبة..

الآن نتعرف بعض الإجابة على الأقل..!

ونعرف إلى أى حد وقعنا فى شرك المبادئ المزيفة المعلنة والأطماع الشريرة الخفية..!

مصدر الخطر
أن نرسى مبدأ القوة فى المنطقة

كان الفيلسوف الألمانى «كانط» يقول: إفعل ما شئت، بشرط أن تقبل أن يكون عملك مبدأ عاما، يتبعه سائر الناس.

ولقد طرح هذا المبدأ نفسه من جديد أمام حدث هز الأمة العربية، بغزو القوات العراقية الكويت، ومحاولة تغيير نظام الحكم فيها بالقوة. وحرق آبار بترولها وتشريد أهلها، ونهب ممتلكاتهم وبيوتهم والإعتداء على حرماتهم.

هل يمكن أن يكون هذا هو الأسلوب الأمثل لحل الخلافات الدولية، خاصة إذا كانت خلافات بين الأشقاء. تربطها إطر متعددة يمكن من خلالها تسوية الخلافات، فهناك الجامعة العربية، وميثاقها يحدد كيفية تسوية المنازعات بين أعضائها سلميا، وهناك الإتصالات

الثنائية التى نشطت فى الفترة الأخيرة، وكان لها دور كبير فى تنقية الأجواء العربية، ثم هناك - أخيرا - ميثاق الأمم المتحدة الذى ينص على أن يكون حل الخلافات الدولية دون اللجوء إلى إستخدام القوة.

لقد فوجئ الشعب المصرى، ومازال يعيش لحظة الذهول حتى الآن لما جرى فى الكويت، بعد أن تابع إنفراج الأزمة، وإستبعدت إحتمالات الغزو العراقى للكويت التى كانت الصحف العالمية ووكالات الأنباء تتحدث عنها بقوة، ولكننا لم نكن نصدق، إلى أن وقعت الواقعة، وأصبحت القضية معقدة: إذا كان الأشقاء يحلون مشاكلهم فيما بينهم بقوة السلاح فماذا يمكن أن يفعل بنا العدو؟ وإذا كان فرض الأمر الواقع يمكن أن يكون مقبولا من الآخرين، وطالما شكونا وتحملنا من الآلام من جراء سياسات فرض الأمر الواقع، وإذا كنا نحن - فيما بيننا - لا نلتزم بالقانون الدولى ومبادئ الشرعية الدولية، بأى صورة من الصور.. فكيف نطالب دولة معتدية (إسرائيل) بالإلتزام بها..؟

ليس الوقت وقت عتاب، ولا هو وقت حساب، هو وقت لإنقاذ ما تبقى للأمة العربية من حد أدنى للتنسيق والتقارب وإعتبارات الأخوة والمصير المشترك.. لا نتحدث الآن* عمن أخطأ، ومن

* المقال منشور فى أعقاب الغزو حين كان هناك أمل فى أن يعود النظام العراقى إلى صوابه.

أصاب. . ولا نتحدث عما حدث وما كان يمكن أن يحدث بصورة أفضل، بل وليس هذا هو الوقت المناسب للحديث عمن له إستحقاقات. . ومن عليه. . وكم. . فقط هذا وقت العقل، ليعود إلى مكانه، لحقن الدم العربى المستباح فى ساحات كثيرة، وحفظ الأرواح العربية التى تنتهك فى أماكن كثيرة، والإبقاء على الكرامة العربية التى يتربص بها كثيرون.

ولو إرتضينا أن يكون ما حدث فى الكويت هو الوسيلة العربية المعتمدة والمقبولة لحل المنازعات المثارة، فسوف تكون هذه فرصة لا تعوض لأعداء الأمة العربية ليفعلوا بنا ما شاءوا، أو على الأقل نعطيهم فرصة الإنتظار إلى أن يضرب بعضنا بعضنا، ويتهاوى العالم العربى تحت سنابك الخيول العربية.

لا مبادئ الدين الإسلامى، ولا مبادئ الأخوة العربية، ولا القانون الدولى تسمح بإستمرار الوضع. . وكل ساعة تمضى تكرس أوضاعا يصعب تداركها. أخشى أن يكون أولها إهتزاز إيمان الجماهير العربية بجدوى ما يقال عن التضامن العربى والوحدة العربية وأجزاء الجسد الواحد التى تتداعى له سائر الأجزاء بالسهر والحمى إذا أصابها مكروه. .

سنوات الكلام الطويلة أصبحت فى إختبار صعب حين جاء وقت العمل، ومصادر الخطر أمامنا كثيرة وإحتمالات المستقبل مليئة بالمخاطر، ليس فقط لما أصاب شعب الكويت ومنشآتها والشرعية

فيها، بل الأخطر من ذلك كله هو أن نرسى مبدأ القوة لحل المنازعات فى المنطقة وبين الدول العربية «الشقيقة» بالذات. وهو مبدأ شديدة الخطورة. يمكن لأى قوة أن تبدأ به، ولكن لا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن ينتهى إليه.

ولعلنا مازلنا نذكر حين حدث الإنفصال فى سوريا وتحركت بعض السفن المصرية متجهة إلى ميناء اللاذقية وكان هناك سند من القانون الدولى بأن الإنفصال خروج على الشرعية وتمرد على سيادة الدولة، ومع ذلك أمر عبد الناصر بعودة السفن وقال أنه يدرك أن إهدار الدم العربى فى هذه اللحظة سيكون سابقة لن ينساها التاريخ، وأنه لا يسمح بأن يشرع السلاح المصرى فى وجه السوريين مهما تكن الأسباب. وكان فى هذا القرار من الحكمة ما حقن الدماء وأبقى للوحدة الزخم القومى، ولم يلوثها بدم أبنائها..

لكن صدام حسين لم يستوعب درس التاريخ، ومارس اللعبة الخطرة، ووضع العالم العربى فى مأزق ليس له مثيل وليست له سابقة، وباع تاريخا طويلا من محاولات السعى الجادة إلى تحقيق الوحدة العربية بالأسلوب الحضارى المناسب.. عن طريق الرضا والإتفاق، وبإرادة شعبية حرة حرية كاملة.

أسوأ ما فعله صدام حسين فى التاريخ العربى إنه أرسى مبدأ القوة، ولو أن هذا المبدأ أصبح قاعدة للتعامل بين الدول العربية، لكان معنى ذلك أن العرب سائرون إلى الإنتحار القومى الجماعى.

فقه العدوان..؟!

أسوأ آثار العدوان العراقى أنه بعد تدمير دولة الكويت وإصابة التضامن العربى فى مقتل، توجه عن عمد للإغارة على العقل العربى بهدف إغتصابه هو الآخر، وتدميره، فأصبحت الأزمة بالغة التعقيد، لأنها لمْ تعد أزمة سياسية أو عسكرية فقط، بل أيضا أزمة فى الضمير والعقل.

يكفى أن الرئيس صدام حسين بدأ غارته على العقل العربى بنظرياته الديماجوجية التى تجعل منه مفكرا ومنظرا وقائدا وزعيما وملهما تاريخيا للأمة العربية كلها، ثم بعدها جعل العقل المسلم هدفا لغاراته، فصور نفسه أماما للمسلمين من سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصدر أمرا بكتابة عبارة «الله أكبر» على علم العراق ليجتذب مشاعر العامة والبسطاء، وأخيرا دعا إلى مؤتمر إسلامى

شعبى فى بغداد دعا إليه حشدا كبيرا من علماء العالم الإسلامى فى وقت إشتداد الأزمة فلم يحضره إلا قلة معروفة من حسنى النيات أو من ذوى الأغراض على السواء، بينما إحتشد العلماء من سائر العالم الإسلامى فى مؤتمر إسلامى آخر عقد فى السعودية فى نفس الوقت تقريبا.

فى مؤتمر بغداد ترددت مغالطات بالغة الخطر على العقل المسلم، قيل مثلا إن العراق وهى دولة مسلمة حين تضم إليها دولة الكويت وهى دولة مسلمة صغيرة فإنها تكون محققة لهدف من أهداف الشريعة، لأن دار الإسلام دار واحدة، والعمل على توحيد الوطن الإسلامى بعد أن نجح الإستعمار فى تجزئته واجب شرعى وطنى لمن يحققه حسن الجزاء من الله..!

وهكذا وصل الأمر ببعض أصحاب الفقه والمعرفة بالعلوم الشرعية إلى أن يسخروا علمهم فى خدمة الأطماع والعدوان، ويلجأوا إلى منطق ملتو لا ينطلى إلا على قوم فقدوا عقولهم، وهم لا يدركون أن التوحيد القائم على الإكراه والإغتصاب لا يمكن أن تقره مبادئ العقل والإنسانية، ولا يمكن أن يتفق مع منطق العدالة، فكيف يتفق مع شريعة الإسلام؟

وفى مؤتمر بغداد المشبوه أيضا قيل أن ما فعله العراق بغزو الكويت كان مقصودا به أن يخرج به الإسلام من الضعف إلى القوة، ومن الفرقة والإنقسام إلى الوحدة..!

قيل أيضا أن إستعانة دولة مسلمة بقوات غير مسلمة لرد العدوان الواقع عليها (من دولة مسلمة أخرى) هو إعتداء على الشريعة، لأن الإسلام لا يقر إستعانة المسلم على محاربة المسلم بغير المسلمين (!) وكأن شريعة الإسلام وفقا لهذا المنطق، تطلب من المسلم الضعيف إذا لم يجد بين المسلمين من ينتزع له حقه الذى إغتصبه أخوه المسلم، فليس أمامه إلا الإستسلام والرضا بالمذلة والتشريد وضياع الوطن، وكأن الإسلام دين لا تعرف شريعته إلا قانون الغاب، ومنطق القوة، وليس للحق والعدل عنده حساب (!).

كان من الممكن إعتبار هذا المؤتمر عملا من إعمال الدعاية السياسية الفجة التى تقوم بها الأجهزة العراقية دون مراعاة ما تسببه بها من إساءة للإسلام والمسلمين بإعتبار أن القاعدة المطبقة هناك منذ سنوات طويلة هى أن الغاية تبرر الوسيلة، وكل شئ مباح من أجل تحقيق الأطماع، وكل ما يبرر ويحقق هذه الأطماع فهو مشروع وشرعى، ولكن الأمر الذى يجب عدم السكوت عليه هو تأثير هذه الأكاذيب، بل هذه السموم الفكرية، على العقل، وعلى شريعة الإسلام..

هل يمكن أن ندع للأطماع أن تضع لنا قواعد شرعية جديدة لما يمكن تسميته «فقه العدوان»..؟ هذا هو السؤال الذى أراه أشد أهمية من تتبع الأحداث والمعارك، لأنه يتصل بتكوين الشخصية والعقل والمفاهيم فى العالم العربى، ولا أظن أحدا يسمح بتشويه كل ذلك أمام عيوننا ويدع المستقبل نهبا لمنطق الشيطان يسود على أنه

منطق الشريعة السمحاء العادلة. . لا أظن أحدا يرضى بإستخدام الإسلام على هذا النحو لتكريس العدوان ولو كان من مسلم على مسلم، وطرح مقولات مغلوطة (وما أكثرها فى الساحة) ظاهرها الحرص على الشريعة، وباطنها الإستهانة بها.

وفى مؤتمر السعودية كان علماء المسلمين يدافعون عن الشريعة السمحاء.

أكدوا أن الإسلام دين العدل، وكل من يخرج على مبدأ العدل يكون خارجا على الإسلام.

وأكدوا إن الإسلام دين الأمان، وكل من يهدد أمان الآخرين بغير حق فهو معتد يجب شرعا على المسلمين جميعا ردعه إلى أن يفئ إلى حكم الله.

وأكدوا أن الحرب فى الإسلام محرمة، وأن العدوان والإغتصاب لا يبررهما إلا ذفع ظلم أو إعتداء. وقال الدكتور محمد السيد طنطاوى مفتى مصر إن أول آية فى القرآن نزلت فى القتال تحدثت عن مشروعيته من أجل رد الظلم: «إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق. . إلخ» فقد أعطت الآية، رخصة للمسلمين بأن يقاتلوا الظالم لنصرة المظلوم، وكل من يموت دفاعا عن حقه فى الحياة الآمنة ودفاعا عن وطنه وبيته وماله فهو شهيد. . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم صريح.

وقالوا أن شريعة الإسلام حرمت الغدر والخيانة ونقض العهود «إن الله لا يحب الخائنين» حتى مع غير المسلمين والإسلام يرفض رفضا قاطعا أن تغير دولة غير مسلمة على دولة مسلمة أخرى لتحتل أرضها دون إخبارها بتحللها من العهود، فما بالك بدولة مسلمة تربطها عهود فى الجامعة العربية والدفاع المشترك ومعاهدات عدم إعتداء. .

وإذا لم يكن العدوان العراقى هو الغدر بعينه فماذا يكون. . ؟

وقالوا إن آداب الحرب فى الإسلام تلزم بحماية حقوق الذميين والمعاهدين والمستأمنين الذين يعيشون داخل البلد المسلم أو لا يعشيون فيه، فكيف يخالف العراق هذه القاعدة الشرعية ويتخذ الأجانب رهائن ويعرضهم للإيذاء المادى والمعنوى ويخرج بذلك على الشريعة؟

وقالوا إن أمر الله صريح فى تجمع المسلمين لقتال الفئة الباغية إلى أن ترجع إلى الحق «فقاتلوا التى تبغى. . إلخ» فإن كانت قوة المسلمين غير كافية لردع العدوان فلابد من الإستعانة بغير المسلمين لأن الرضا بالظلم هوان، والإسلام لا يرضى لأبنائه الهوان. ومن القواعد الشرعية أن الضرر يزال ـ وإن الضرورات تبيح المحظورات، وأن الضرورة تقدر بقدرها، والذين يقدرون حدود الضرورة هم أولو الأمر، وبأمر الله: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء. .» وإن كان فى الإستعانة بالأجانب خطر فإن الذى يتحمل نتائجه هو المتسبب فى وجودهم بعدوانه، والذى لولا عدوانه لما تمت

الإستعانة بهم.. واذن يجب أن نرفض المقدمة التى استوجبت وجود النتيجة وليس العكس.

جدل غريب.. فى عالم ينطلق إلى افاق مذهلة من التقدم والحضارة وتعميق القيم الإنسانية والحضارية.. ثم نجد من بين المسلمين من يريد أن يفرض علينا قيما بربرية متخلفة ويلصقها بالإسلام..

أليس حراما كل هذا العدوان على العقل المسلم، بعد العدوان على أراضى وأعراض وأموال المسلمين.؟!

توظيف الإسلام..!

لماذا أصبح الإسلام مطية كل طامع وكل محتال..؟

ولماذا يعمل البعض على إفساد الصحوة الإسلامية بتقديم الإسلام فى صورة مشوهة، وكأنه دين ليست له دعوة إلا إلى التخلف والعودة إلى نظم الحياة البدائية، وليست له رسالة إلا تكريس الإستبداد، وليس له هدف إلا إستخدام العنف ومواجهة الرأى بالقتل والقهر، وليست له قضية إلا مساندة الظالم على المظلوم، وليست له دعوة إلا قتل أدمية المرأة..؟ وكأنه شريعة عصابات وليس دينا راقيا ساميا متصلا بإرادة الله الذى هو الحق والعدل.

هل هذا هو الإسلام حقا؟

القضية بالغة الدقة والخطورة.. وهى ليست جديدة.. وفى التاريخ الإسلامى صفحات سوداء يمكن جمعها فى كتاب تحت عنوان

«إستغلال الإسلام» أو «توظيف الإسلام» لخدمة أهداف أعدائه حينا، ولخدمة أطماع الحكام أحيانا أخرى، وفى كل حين من الزمان هناك فئة من رجال الإسلام جاهزون بأسلحة الفقه للإفتاء: قال الله تعالى.. قال سيدنا رسول الله.. ولا يخشون حساب الله يوم القيامة فيما يقترفون من ذنوب بالإدعاء والإساءة إلى شريعة الله، أصغرها تفسير أحكام الله على غير مراد الله، وإستخدام مبادئ الشريعة فى غير موضعها، ومحاولة التغرير بالعامة من المسلمين بإستغلال عواطفهم النقية ومشاعرهم.

وآخر فصل فى كتاب «توظيف الإسلام» عشنا ونعيش سطوره بالدم والدموع بدءا من إعتداء الرئيس العراقى المسلم على دولة الكويت المسلمة، وإنتهاء بتدمير مدن المسلمين وثرواتهم وحرق آبار بترولهم، وتبديد ثروة فى أرض الإسلام لحساب الشيطان، وكل ذلك يتم تحت شعارات إسلامية، على أنها جميعا (إغتصاب دولة مسلمة - وإغتصاب الأعراض المسلمة - ونهب الثروات فى الأرض الإسلامية وحرقها وتدميرها - وقتل المدنيين المسلمين) إنما تتم تقربا إلى الله تعالى ومرضاة له وطاعة لأوامره.. وتذهلنا هذه الجوقة الغريبة المريبة التى ظهرت لتدق الطبول وتبشر بأن الرئيس صدام حسين لا يفعل ما يفعل إلا من أجل رفعة الإسلام (!!).

والرئيس صدام حسين صاحب التاريخ الطويل فى العمل السياسى المرتكز على فكر علمانى محض معروض ومنشوره أراد أن يركب منذ

سنوات موجة الصحوة الإسلامية ويستغلها لحسابه، ويستخدم مفردات إسلامية لأول مرة منذ تولى الحكم، وآخر بياناته نداء بعد غزوه للكويت يدعو فيه المسلمين إلى الجهاد معه (!) وسبقه قرار بكتابة عبارة «الله أكبر» على العلم العراقى، وفى تملق ساذج للمشاعر الإسلامية.

هل يمكن أن يسمح الإسلام - حقا - للمؤمن القوى بأن يقتل ويسلب أموال المؤمن الضعيف؟

هل يمكن أن يمنع الإسلام المسلم المظلوم من الإستعانة بمن يعينه على إستعادة حقه المغتصب إذا عجز المسلمون عن ذلك؟

ألم يعاهد الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود للدفاع عن المدينة.

ألم يستعن الرسول بواحد من المشركين ليكون دليله وموضع سره فى أخطر عمل فى حياة الرسول والإسلام وهو الهجرة من مكة إلى المدينة؟

أليس رب الإسلام هو الذى حرم الظلم (ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وحرمته بينكم، فلا تظالموا) كما جاء فى الحديث القدسى.

ثم من الذى يعلن «الجهاد»؟ الغاصب المعتدى، أم المعتدى عليه الذى إغتصبت أرضه..؟ أليس رسولكم صلى الله عليه وسلم هو

الذى شرع لكم بأن «من مات دون أرضه، ومن مات دون ماله، ومن مات دون عرضه، فهو شهيد». . أم فيكم من لديه شريعة أخرى.

إن ابن خلدون يتحدث فى مقدمته الشهيرة عن العدوان وكأنه يبعث إلينا - فى عصرنا - برسالة لينبه العقول الغافلة، ويكشف العقول المتآمرة، فيقول «إن العدوان لا يقوم إلا بين الأمم الوحشية، الساكنين بالقفر، لأنهمْ جعلوا أرزاقهم فى رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم، ومن يدافع عن متاعه أذنوه بالحرب، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما فى أيديهم، أما ما يسمى فى الشريعة بالجهاد فهى حرب عدل. .»

الجهاد حرب عدل. . والمسلمون لا يحاربون إلا من أجل قضية عادلة. . لأن دينهم جاء لإقرار العدل، ولأن ربهم هو العادل. .

ثم ألم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر قادة جيوشه: «أزروا ولا تغلوا. . ولا تغدروا. . ولا تمثلوا. . ولا تقتلوا وليدا. .» طبقوا ذلك على ما فعله «أمام المسلمين» و «إمام المجاهدين» صدام حسين.

ألم يحرم الإسلام «الغدر»، وقرر أن «الإنذار» شرط لازم قبل القتال وهو ما يسمى الآن «إعلان الحرب». . حتى مع الكفار «وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ اليهم على سواء» وليس لكلمات الله

العزيز معنى إلا ضرورة إعلان نقض العهود المبرمة قبل البدء بضرب أول سهم.. ولذلك قال الفقهاء: «إن علم المسلمون يقينا أن القوم لم يأتهم خبر (نية الحرب) فالمستحب لهم ألا يغيروا عليهم حتى يعلموهم، لأن هذا شبيه بالخديعة. روى أبو داود والترمذى وغيرهما أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد، وسار نحو بلادهم لغزوهم، فجاء رجل على فرس وهو يقول: «الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا هو عمرو بن عيسة السلمى، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فليشهد عقده، ولا يحلها، حتى ينقض أحدها، أو ينبذ اليهم على سواء» فرجع معاوية بالناس.. (السير الكبير ج ٣).

إن كان ذلك مع الكفار، ومع غير المسلمين، فماذا فعل إمام المسلمين وإمام المجاهدين الرئيس صدام حسين مع الكويت وشعبها.؟ ألم يأمر خليفة رسولنا (أبو بكر الصديق) أسامة بن زيد حين بعثه على رأس جيش لحرب الكفار (لا تخونوا.. ولا تغدروا.. ولا تمثلوا.. ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا ولا إمرأة.. ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه.. ولا تقطعوا شجرة مثمرة.. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لماكله.. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. إلخ».

أنظروا.. لا تقطعوا شجرة..!

فما بالكم بمن حرق آبار البترول ودمر دولة..؟ ليس جهادا إذن، ولكنه غدر.

لكن أهل الهوى أو الغفلة لم يفرقوا، أو هم لا يريدون أن يفرقوا بين الإثنين.

والله أعلم إن كان ذنبهم هذا من الذنوب المغفورة، أم أن الأرواح التى أزهقت، والدماء التى سفكت والثروات التى تبددت ستظل فى أعناق كل من دافع وبرر إلى يوم القيامة ليلقوا عليها الجزاء العدل..

إزالة العدوان على العقل المسلم

عندما يأتى اليوم الذى تنتهى فيه الآثار المباشرة لحرب تحرير الكويت، ويصبح الشغل الشاغل للجميع هو إزالة آثار العدوان وإعادة بناء ما خربته الحرب سيكون ذلك بداية لمرحلة صعبة أخرى تستنزف فوق ما استنزفت المعارك.. ولكن الأصعب منها سيكون محاولة إزالة آثار العدوان على العقل المسلم الذى تعرض للتخريب خلال هذه الأزمة، وأغارت عليه أسراب من الفكر المضلل أصابته فى الصميم.. ويعلم الله كم من السنين، أو من القرون، سوف يحتاج إعادة بنائه وفقا لمنهج الله، وبعيدا عن هجمات الزيف والتضليل التى تعرض ولا يزال يتعرض لها.

فليس غريبا أن يرتدى القاتل والمقتول رداء الإسلام، وأن تسفك دماء المسلمين تحت شعارات وإدعاءات إسلامية، فتلك أمور قديمة

عرفها الإسلام منذ بدايات نشأته، ولكن الغريب أن تطل مرة أخرى «الشعوذة السياسية» مرتدية عباءة الإسلام لتتحدث بالكتاب والسنة فى حرب الخليج لتبرر عدوان العراق على الكويت بحجج شرعية (!).

وغريب أيضا أن يكون مبدأ «التقية» الشيعى قد تغلل، وأسئ إستخدامه إلى هذا الحد فأصبح ستارا لإنتشار ظاهرة «النفاق العقائدى»: القول غير الفعل، والظاهر غير الباطن، والدفاع اليوم عن نقيض القضية التى كانت موضع اتهام بالأمس.

يضاف إلى ذلك الجهد العظيم الذى يبذله البعض لتلبيس المبادئ الإسلامية على سلوك سياسى يتعارض مع أبسط هذه المبادئ، وإسباغ الطابع الإسلامى لقيادات سياسية لم يشغلها يوما تطبيق الإسلام فى سلوكها، أو فى نظام حكمها، أو فى تشريعات بلدها، أو فى علاقات الداخل بشكل عام، فلما حانت لحظة تفجر إطماع الخارج وجدت فى حديث الإسلام وسيلتها لجذب العامة والسذج، وفقهاء «التفصيل» لكل حاكم بما يريد. وفتاواهم دائما حسب الطلب..!

يستغلون ما يعانيه المسلمون من تمزق بين إنضمامهم لقضية الحق مع الكويت، والأسى الذى يملأ قلوبهم، لأن تصلب الرئيس العراقى فى إستمساكه بالعدوان لا يدفع ثمنه إلا الشعب العراقى وهو شعب شقيق له مكانة خاصة فى القلوب. الدم العراقى يهمنا بقدر ما أن أرض الكويت تهمنا، والأمر الإلهى صريح: «فإن بغت إحداهما

على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله». . ولكن فقهاء العدوان يريدون تعطيل أمر الله ليدخلوا فى روع العامة أن مساعدة البغى هو الواجب. . يتحذون من وجود القوات الأجنبية ذريعة لقلب الحقائق، ووجود هذه القوات شر بالتأكيد، تسبب فيه الإعتداء العراقى، وكان الرئيس العراقى يستطيع أن يسلب هذه القوات الأجنبية مبرر وجودها بأن ينسحب من الكويت ويكف عن إحتلالها.

كيف يستسيغ العقل المسلم القول بأن من حق العراق أن يغتصب الكويت لأن إسرائيل تغتصب الضفة الغربية وغزة والجولان، وأن العراق له شرعا أن يدمر الكويت لأن إسرائيل تدمر المسجد الأقصى. . هل مثل هذا الهراء الذى يقال وينشر بغوغائية نادرة يمكن أن يكون حقا لصالح الإسلام والمسلمين. . أم أنه يشوه ويدمر ويفسد. . ؟.

ثم يقولون أن عدوان العراق على الكويت جاء من أجل العدل الإجتماعى. . وأنه صرخة لإعادة توزيع الثروات البترولية الإسلامية على أسس عادلة. . وأن هذا هو الإسلام. . والعراق ليس بلدا فقيرا، ولكنه من أغنى دول البترول فى العالم، وهو ثانى دولة عربية فى إحتياطى البترول، وتأتى دولة الكويت بعده فى المركز الثالث، فماذا أعطى العراق من أموال البترول للإسلام والمسلمين، وأين ذهبت مئات المليارات من الدولارات التى حصل عليها من بتروله

ومن بترول الآخرين.. هل أنفقها جميعا فى أوجه الإنفاق الشرعى التى ترضى الله ورسوله؟ فكروا، وحاسبوا أنفسكم على ما تقولون قبل أن يحاسبكم الله عليه.. ومن يدرى فقد يكون يوم الحساب قريبا..

ويقولون إن الغرب يريد تدمير الصحوة الإسلامية، وفى هذا القول حق، ولكن هل الصحوة الإسلامية أن يدمر العراق دولة صغيرة مسلمة مثل الكويت..؟

ويلقون الخطب يشيدون فيها بالرئيس صدام حسين لأنه ألقى بصواريخه على القدس وتل أبيب والظهران والرياض، وهل يبلغ الخلط والخلل فى العقول إلى حد أن تتساوى الرياض وتل أبيب..؟! لا أحد منهم يذكر أن هناك معاهدات تربط بين العراق ودولة الكويت عليها توقيع الرئيس صدام حسين.. من بينها معاهدة دفاع مشترك تلزم العراق بأن يدافع عن الكويت من أى خطر يتهدده (!).. هل على الأرض مسلم ينكر أن الوفاء بالعهود والمواثيق من أهم مبادئ الإسلام..؟ ألم يأمركم ربكم فى محكم آياته «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم..» ليس فقط مع المسلمين، بل ومع المشركين «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا، ولم يظاهروا عليكم أحدا، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحب المتقين» وفى هذه الآية بالذات نص يلزم المسلم بإحترام أرض كل دولة يرتبط معها بميثاق، وهناك من الله أمر آخر يجعل إحترام المواثيق مقدم على

نصرة الإخوان فى الدين. . «وإن إستنصروكم فى الدين فعليكم النصر، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق».

ألا ترون أن الإسلام دين يقيم دولته على أسس عادلة وأخلاقية، وأنه يعتبر الإنقضاض على دولة داخلة فى عهد أو ميثاق «غدرا» محظورا، وللغدر باب فى الفقة الإسلامى فيه تفصيلات كثيرة، ولفقهاء المسلمين مبدأ يرفض الغدر حتى لمواجهة الغدر، ويقولون «وفاء بغدر خير من غدر بغدر». ؟!

ثم يقولون إن الكويت هى التى تسببت فى الحرب لأنها إستنجدت بغير المسلمين لإستعادة حقها المسلوب. وهم بذلك يناصرون الظالم على المظلوم، ويؤيدون من أفسد فى أرض المسلمين وينسون قول ربهم الأعلى: «والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون فى الأرض، أولئك لهم اللعنة، ولهم سوء الدار»، ولعلهم يعودون إلى سورة الرعد فقد يثوبون إلى الرشد، أو إلى سورة الأعراف ليروا أمر ربهم: «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها. . ».

ما يحدث فى ساحة الجدل الإسلامى فتنة، إشعلتها إطماع الساسة ومناورات السياسة، وأنساق فيها خطباء كل مناسبة، كانوا بالأمس يهاجمون العراق ويهتفون للإمام الخمينى لأنه إمام المسلمين ويدعون له بالنصر على صدام حسين ممثل العلمانية، واليوم يهاجمون الكويت والسعودية ومصر، ويدعون بالنصر لصدام حسين لأنه إمام المسلمين

والمدافع عن شريعة الإسلام. . ولا أعرف ماذا سيقولون غدا. . والإسلام فى أيديهم لعبة كل يوم.

ألا ترون أن العقل المسلم فى محنة. وأن العدوان عليه شديد، وأنه مهدد بالتدمير، وأن إزالة العدوان عليه ـ بعد الحرب ـ ستكون بالغَة الصعوبة، وقد تكون مستحيلة. .

ثم ألا تسمعون نداء ربكم وتراجعون أنفسكم: «وإتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، وأعلموا أن الله شديد العقاب».

وهل يمكن أن يتعارض أمر الله مع مقتضيات العقل السليم. .؟

ما تبقى من المؤامرة ..!

لا يستطيع أحد أن يحدد لنا الحجم الحقيقى لآثار وبقايا المؤامرة الكبرى التى قام بها الرئيس صدام حسين، لأن الآثار تفوق الحصر من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ما ندركه منها حتى الآن ليس إلا جانبا ظاهرا بينما المصائب الكبرى مازالت بعيدة عن العيون ستظهر تباعا وعلى مدى سنوات طويلة وسوف تتكشف مدى خطورتها على المستقبل العربى. . لكن شيئا واحدا شديد الخطورة لا يحتاج إلى إنتظار لتفهم أبعاده ولا إلى وقت طويل لإدراك جسامته، وهو ما حدث قبيل وأثناء المؤامرة من عدوان متعمد على الإسلام. وتشويه مع سبق الإصرار والترصد لمبادئه وروحه.

وإذا تلمسنا العذر لأخطاء وخطايا بعض السياسيين فى هذه المؤامرة فهل يمكن تلمس عذر للذين أساءوا إستخدام الإسلام

وحولوه إلى سلاح للدفاع عن قضايا الباطل.. وهل كان هؤلاء يجهلون أن منهاج حزب البعث العراقى الذى يحفظه جميع أعضائه ظهرا عن قلب يقرر أن الدين من الموروثات القديمة البالية التى يجب التخلى عنها كلية كشرط أول لإكتساب العضوية والترقى.

ولا أظن أحدا من هؤلاء كان يخفى عليه أن إذاعة وتليفزيون بغداد كانا لسنوات طويلة ـ ومازالا حتى الآن ـ يسيران على سياسة صارمة هى عدم الإرتباط بتوجهات دينية إلا فى إطار ما يراه الحزب فى بعض الأوقات من إستخدام الدين إستخداما إنتهازيا كسلاح إعلامى للتأثير على من يسميهم الحزب فى مؤلفاته العقائدية الأساسية: «الأغبياء والمخدوعين».، أو لمحاربة «النزعات الدينية وما فيها من موروثات بالية»! ولذلك فإن البرامج تبدأ بدون إذاعة القرآن الكريم كما هو متبع فى جميع الإذاعات فى العالم الإسلامى، وفى القاهرة الآن كتاب تضمن إعترافات «بعثى سابق» يروى فيه ما كان يجرى فى مدرسة الإعداد الحزبى لإعداد المرشحين لشغل المناصب القيادية، وما يلقيه فلاسفة الحزب فيها من محاضرات لهدم الأسس الدينية إبتداء من ميشيل عفلق وإنتهاء بالياس فرح ونزار الحديثى! وفيه أن عضوا فى الحزب كتب تقريرا رفعه إلى قيادته عن ظاهرة زيادة عدد المترددين على المساجد فى حى الثورة ببغداد، وأنه لاحظ أن المسجد المجاور لمنزله يضم ١٠ مصلين دفعة واحدة، ويقترح العمل على تحجيم هذه الظاهرة تنفيذا لتوصيات المؤتمرات القطرية. ويشرح الكتاب شروط الترقى فى المناصب الحزبية للأكثر قدرة على

التجسس على رفاقه وكتابة التقارير عن تحركاتهم وعلاقاتهم وهمساتهم، وترك الدين والإبتعاد عن كل ما يتعلق به، بإعتبار أن ذلك هو «تخطى الموروثات المتخلفة فى المجتمع العربى والتأكيد على علمانية الحزب، والتخلى عن الظاهرة الدينية من أساسها وعن مفاهيمها وطقوسها. ويشير الكتاب إلى عضو رفع تقريرا إلى قيادته يسأل فيه عن سبب عدم تغيير مواعيد الإجتماعات الحزبية فى شهر رمضان لتناسب ظروف الصيام لأن الإجتماعات تتم دائما فى لحظة آذان المغرب بالضبط، فقام المسئول الحزبى بالتأشير على هذا التقرير بمتابعة صاحبه لمدة ثلاثة شهور، وفصله إذا ثبت تمسكه بهذه الأفكار المتخلفة.. والفصل يعنى التصفية الجسدية فى معسكر اعتقال، أو حادث سيارة مجهولة مندفعة، وهكذا جزاء البعث العراقى لمن يصوم رمضان..!

ويعرف الذين استخدموا الإسلام لعبة لخدمة مؤامرة صدام حسين أن الصحافة العراقية تخلو من أى مساحات مخصصة للدين، بينما تفرد صفحات للهجوم على خصوم الحزب من أنظمة وأحزاب وشخصيات على إمتداد الساحة العربية ممن لهم توجهات إسلامية من قريب أو بعيد! ويعرفون أن كثيرا من القيادات الإسلامية قتلت أو إختفت بقرار من «الرئيس القائد» شخصيا، وأن قوائم الممنوعات فى المطارات العراقية تشمل حظر إدخال الصحف والمجلات والكتب ذات الطابع الدينى، والويل لمن يعثر على بعض هذه المطبوعات فى حقائبه! وكل من يكتشفون أن له توجهات دينية فإن الإتهام الجاهز له

كمبرر لتصفيته هو أنه عميل لأمريكا حتى وإن كان مشهورا بالعداء لأمريكا، وبينما يمنح صاحب كل قصيدة فى مدح «القائد» سيارة.. أوألف دينار.. أو كليهما ـ بحسب أهميته ـ يمنح المتدينون رصاصة من مسدس كاتم للصوت!

لكن ذلك كله لم يمنع البعض من أن يشمروا عن سواعدهم ويجتهدوا فى تنفيذ القرار الذى أصدرته «القيادة» بعد ذلك بإستخدام الدين ضمن وسائلها الإعلامية، فأصبح صدام حسين بفضل بلاغتهم و «إخلاصهم فى العمل» وليا من أولياء الله الصالحين، وسليل الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن نسل سيدنا الحسين بالذات! كما أصبح بفضل أكاذيبهم حامى حمى الإسلام، ومقدساته، وجنديا فى حزب الله فى مواجهة حزب الشيطان!

وهؤلاء بالذات يعلمون أنه بعد تنفيذ قرار صدام حسين بإعدام الإمام آية الله محمد باقر الصدر وشقيقته العالمة نبت الهدى قال الرئيس العراقى فى إجتماع حزبى للكوادر تعليقا على ذلك: «يدعون أننا لا نعرض هؤلاء الخونة على محاكمة عادلة، فهل سيكون فى العراق من هم أعدل من البعثيين وقادتهم..؟ ردوا عليهم.. قولوا لهم أن صدام حسين سيقطع ذراعه إذا خانته، وأن وقت الحزب والثورة لن يضيع هباء وسط إدعاءات دفاع وإدعاءات إتهام ومداولات قضاة، قولوا لهم أننا سنسحق عملاءهم كلما وجدناهم..» وظل «الرئيس القائد» بعدها يوجه إنذاره، ويطلق زبانيته على كل من يعلو صوته بكلمة الله، لا يهمه أن يكونوا من السنة أو الشيعة.

وليس خافيا على أحد أنه حين قرر البعث العراقى فى الفترة الأخيرة مهادنة «الظاهرة الدينية» لإتخاذها جسرا لإختراق العالم العربى ألقى فيلسوف الحزب ميشيل عفلق محاضرة نشرت بعنوان «ذكرى الرسول العربى» تحدث فيها عن الرسول صلى الله عليه وسلم بإعتباره باعثا للأمة، وقائدا للنهوض العربى. ولم يتحدث عنه كمبعوث من الله برسالة للعالمين وبكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم بدأ تدريس الموضوع فى مدارس الحزب على أساس رفض المفاهيم غير العلمية كالوحى، والغيب، والقضاء والقدر.

وبينما كان صدام حسين يتحدث فى العلن عن الرسالة الإسلامية بإعتبارها رسالة إنسانية عظيمة، كان يعلم كوادر الحزب من سموم كتابه المعروف عن «الدين والتراث» وكتابه الآخر وعنوانه «حول كتابة التاريخ» عن ضرورة تجاوز الظاهرة الدينية، وإن إلتزام البعثيين الأساسى بالعقيدة البعثية دون «أية عقائد أخرى». . !

لا نعرف إذن كيف تقدم البعض ـ متطوعا أو غير متطوع ـ للدفاع عن مؤامرة صدام حسين من منطلق إسلامى، وأدعوا أنه المنقذ من الضلالة. . والمهدى المنتظر لقيادة المسلمين ضد الكفار، ورفع ألوية الإيمان على قلاع الملاحدة، ومبعوث العناية الإلهية لإعادة العقيدة إلى نقائها الأول كما كانت فى صدر الإسلام.

إن آثار تدمير المبانى والمنشآت سوف تزول اليوم أو غدا، ولا أحد يعرف إن كانت ستزول آثار الأحزان على الشهداء الذين سقطوا فى معركة بلا قضية، أما آثار التدمير الذى حدث فى الساحة الإسلامية فمن المؤكد أن علاجه لن يكون سهلا ولن يكون سريعا. فهو أخطر ما تبقى من المؤامرة.

أسرار ترسانة صدام!

عندما تحرك ١٠٠ ألف جندى عراقى ليلة ٢ أغسطس ١٩٩٠ لإحتلال الكويت لم يكن سرا أن صدام حسين كان يبنى ترسانته العسكرية منذ ١٥ عاما، ولم تكن أطماعه التوسعية، ولا نزعته إلى الزعامة والسيطرة على المنطقة أمرا خافيا، كذلك لم يكن مفاجأة ما أذيع عن الصناعات الحربية والأسلحة الكيماوية والنووية التى أنشأها، ولا كانت الحقيقة غائبة من إفلاس الخزانة العراقية لإستنزاف موارد البترول الهائلة فى إعداد آلة الحرب لتحقيق أوهامه فى فرض سيطرته على المنطقة.

ومع ذلك فإن السؤال ـ اللغز ـ مازال قائما بعد مرور أعوام دون أن نصل إلى حل طلاسمه: من الذى ساعد صدام حسين على إمتلاك كل هذه الأسلحة التى جعلته يتحول من مجرد حاكم ديكتاتور

إلى مصدر تهديد، ومن قائد يعانى من تضخم الذات إلى مسيطر على آلة حرب قالت عنها أمريكا أنها القوة العسكرية الرابعة فى العالم.. بل وتقول أيضا أنه أصبح قوة إقليمية عظمى..!

ربما يساعدنا على الفهم كتاب جديد صدر فى لندن هذا العام بعنوان «لوبى الموت» من تأليف كينيث آر تيمرمان، وهو كاتب متخصص فى الدراسات الأمنية والعسكرية، وقد ركز دراساته فى الفترة الأخيرة على شبكات الأسلحة بالسوق السوداء والحرب بين إيران والعراق وتكوين القوة العسكرية العراقية، وقد بدأ الإعداد لهذا الكتاب منذ عام ١٩٨٦ وظل ست سنوات يحدد ويحلل أنواع الأسلحة التى صنع بها صدام حسين ترسانته العسكرية ومصادرها المعلنة والخفية، وإنتهى من بحثه إلى حقيقة أن «فرانكشتين» لم يتكون فى يوم وليلة ولكنه تكون خلال سنوات، وبمساعدة من جهات ظاهرة وجهات تعمل فى الخفاء وهى فى النهاية يجب أن تتحمل نصيبها من المسئولية، لأن العراق طوال السنوات الماضية كان سوقا ضخمة للسلع الحربية الفرنسية، الألمانية والإيطالية والبريطانية والنمساوية والأمريكية. ولذلك فإن المؤلف يقصد بعنوان الكتاب «لوبى الموت» الشركات الغربية والبنوك التابعة لها وأنصارها فى الحكومات الذين شكلوا فيما بينهم جماعة مصالح قوية ساهمت فى بناء «آلة الموت» فى يد صدام حسين ثم إحتاج تدميرها بعد ذلك إلى ما يقرب من نصف مليون جندى وحشود عسكرية أمريكية وغربية لم

يسبق لها مثيل، وقوات نيران، وأجهزة تكنولوجية شديدة التعقيد ظهرت للعلن لأول مرة، وإجراءات تفتيش وتحليل وبحث وتنقيب بالغة الغرابة، شارك فيها خبراء دوليون وتدخل فيها مجلس الأمن..!

يكشف الكتاب عن أن العلاقة العسكرية الوثيقة بين فرنسا والعراق بدأت بزيارة صدام حسين لباريس فى ٥ سبتمبر عام ١٩٧٥ بعد أن فرض السوفييت حظرا على تصدير السلاح إلى العراق، وخلال الأعوام الخمسة عشر التالية أنفق صدام حسين ٢٠ بليون دولار على شراء أسلحة فرنسية شملت كميات ضخمة من الأسلحة المتطورة وتكنولوجيا نووية، وفى هذه الفترة كانت أجهزة الإعلام الفرنسية تطلق على العلاقة بين البلدين «زواج العقل». وإشترى صدام من فرنسا أول مفاعل للأبحاث النووية أسماه «تموز (١)» ثم اشترى من فرنسا أيضا المفاعل الثانى الذى أسماه «تموز (٢)» وعقدت معاهدة تعاون نووى فرنسى عراقى فى بغداد فى ١٨ نوفمبر عام ١٩٧٥ وبتكلفة قدرها ثلاثة بلايين دولار، وجاء فى هذه المعاهدة أن فرنسا ستقوم بتدريب ٦٠٠ فنى نووى عراقى.

يكشف الكتاب أيضا أن فرنسا أمدت العراق بكميات ضخمة من اليورانيوم المخصب، وأصبح جاك شيراك رئيس الوزراء الفرنسى فى ذلك الوقت معروفا باسم «مستر العراق».. ومع بداية عام ١٩٧٦ كان العراق قد أصبح خامس أكبر دولة مستوردة للسلاح فى العالم،

خاصة بعد أن إكتشف صدام حسين أن هناك دولا فى العالم الثالث يمكنها تزويده بتكنولوجيا عسكرية لا تقل عما يقدمه الإتحاد السوفيتي والغرب بأسعار أقل كثيرا، وهكذا توثقت علاقته بمصادر السلاح في يوجوسلافيا، ولعبت البرازيل دورا رئيسا فى ذلك مقابل حصولها على الدولارات البترولية التى أعطت دفعة كبيرة لصناعة الأسلحة البرازيلية.

وفى عام ١٩٧٧ عقدت فرنسا صفقة ضخمة مع العراق بمبلغ ١,٧ بليون دولار لتزويده بطائرات (ميراج اف ـ ١) وتدريب فنيين عراقيين. وساعدت ألمانيا الشرقية صدام حسين على إنشاء أول مصنع عراقى لإنتاج الغازات السامة. وبعد أن قامت إسرائيل بنسف المفاعل النووى العراقى عام ١٩٧٩ إستمرت العلاقة النووية بين فرنسا والعراق وباعت فرنسا مزيدا من الطائرات (اف ـ اس) للعراق مقابل الحصول على ربع إنتاجه من البترول!

وإبتداء من عام ١٩٨٠ بدأت الولايات المتحدة الإنحياز للعراق ليكون ثقلا معادلا ومضادا للخمينى، وإستهدف صدام من تحسين علاقته بأمريكا الحصول على التكنولوجيا العسكرية المتقدمة منها، وحصل منها بالفعل على كميات كبيرة من الأسلحة المتقدمة والمواد اللازمة لتصنيع الأسلحة.

وتعاون الألمان الغربيون مع صدام حسين خلال الثمانينات لبناء واحدة من أكثر ترسانات العالم تنوعا بالأسلحة غير التقليدية، وكانت

هناك أكثر من ١٠٠ شركة ألمانية تتعامل مع صدام حسين تعاقدت إحداها على بناء مصنع «سامرا» للمبيدات الحشرية ثم أدخلت عليه ستة خطوط لتصنيع أسلحة كيماوية، وكان يعتبر من بين أكبر مصانع إنتاج الأسلحة الكيماوية فى العالم. . وأقام الألمان الغربيون قبل ذلك مصنعا لغاز الأعصاب فى منطقة ما بالعراق، وبدأ صدام فى يونيو ١٩٨٢ برنامجا باهظ التكاليف لبناء شبكة من المخابئ تحت الأرض وأشرفت شركة ألمانية على بناء قصر فاخر تحت قصر الرئاسة بأكثر من ٣٠٠ قدم، كما بنى صدام ٣٠٠ مخبأ مسلح للطائرات ومثلها لطائرات هيكلية للخداع! وحصل كذلك على ٦٠ طائرة هليوكوبتر أمريكية، وقدمت له وزارة الزراعة الأمريكية إئتمانات وضمانات وقروضا ببلايين الدولارات وزودته الأجهزة الأمريكية بمعلومات سرية عن أنشطة السلاح الجوى الإيرانى، وعمل صدام مع الأرجنتين على تنفيذ برنامج سرى لإنتاج صاروخ موجه يحمل إسم «كوندور» وإشترى أسلحة متطورة من حكومة جنوب إفريقيا. . وظلت فرنسا تورد للعراق طائرات ميراج المقاتلة حتى يوليو ١٩٩٠، أى قبل غزو الكويت بأيام. . !

ويكشف الكتاب كيف استمرت المساعدات الغربية لبناء ترسانة صدام حتى بلغت ديون العراق ٧٠ بليون دولار فى هذه الصفقات. وحين افتتح صدام أول معرض دولى للإنتاج الحربى فى بغداد اشتركت فى هذا المعرض ١٤٨ شركة من ٢٨ دولة عرضت فيه أحدث أسلحتها مع أسلحة من إنتاج ١٩ مصنعا عراقيا. .

هل يمكن أن تفيدنا هذه المعلومات فى معرفة بعض ما كان خافيا؟!

وهل يساورنا شك بعد أن أصبحت مثل هذه المعلومات الموثقة فى أيدينا، فى أن «القائد الملهم».. «المنتصر بالله».. لم يكن إلا لعبة القوى العظمى. أعدته لدور لم يفطن إليه، فعمل لحسابها وهو يظن أنه يعمل لحساب نفسه ولتحقيق مجده الشخصى. وفى إعتقادى أن هذا الكتاب - وأمثاله - إذا أحسنا قراءتها وفهم ما بين سطورها، فإنها تفيدنا أعظم فائدة فى إدراك طبيعة «الفخ» الذى ينصب «للقادة الملهمين» على وجه الخصوص، لأنهم فى حقيقتهم يحكمون بعقلية الدكتاتور، وينفردون بوضع السياسات وإتخاذ القرار، ويظنون أنهم لا يخطئون أبدا، ولا يكتشفون أن كل حياتهم أخطاء إلا بعد أن يكونوا قد دفعوا بلادهم إلى الهاوية.

أما الديقمراطية.. درع الحماية الحقيقية من النكسات والكوارث والهزائم.. فما أبعدها - بصورتها الحقيقية - عن أذهانهم.. ولا يستطيع أمثال هؤلاء الحكام أن يعيشوا فى مناخ الحريات والديمقراطية.

أوان التفكير بصوت عال

بعد أن إنتهت المأساة التى سببها الرئيس صدام حسين للأمة العربية، لن تدع لنا الأحداث القادمة فى المستقبل القريب جدا فرصة للبكاء على الأطلال، ومهما يكن حجم المرارة والدموع والخسائر فى العالم العربى نتيجة هذه الحرب المجنونة فليس أمامنا إلا أن نحتفظ بقدرتنا على التعامل مع الأحداث بيقظة ووعى، ونبادر بوضع تصور لمستقبلنا ومستقبل المنطقة قبل أن تفرض علينا تصورات وضعها غيرنا منذ وقت ليس قصيرا.

صحيح أن حجم النكسة التى سببها الرئيس العراقى للعالم العربى أكبر من جميع النكسات التى مرت به من قبل، ولكن هذه الأمة قادرة برغم ذلك على إستيعاب الصدمة، وتجاوز آثار المأساة، وإعادة بناء مستقبلها على أسس جديدة، ولعل هذه المأساة تكون بداية عصر

عربى جديد ليست فيه أطماع الزعامة، ولا ممارسات القوة، ولا الإصرار على الإنفراد بالسلطة.

ولعل جو الكآبة والحزن القومى العميق الذى يمر بالأمة العربية اليوم هو أنسب وقت للتفكير القومى الجماعى بصوت عال لإعادة فحص قضايا تبدو مستقرة، وأفكار تبدو بديهية، لكن الأزمة كشفت عن أنها مازالت تحتاج إلى إيضاحات كثيرة. مثل مفهوم الزعامة فى الأمة العربية، ومفهوم الوحدة العربية ذاته، وعلاقة الدول العربية بعضها ببعض، وقيمة المواثيق التى يوقعها القادة وتتخذ شكلا دستوريا وتظهر الممارسات جديتها، ثم تكشف الأحداث عدم مصداقيتها، بل ونحتاج إلى إعادة فحص علاقتنا بأنفسنا، إلى أى مدى يجرى العمل على تحقيق شعارات الوحدة والإخوة والتعاون والتقارب والتكامل العربى... وماذا حقق بالضبط فى أرض الواقع، وماذا حقق على الورق وفى الخطب، وإلى أى مدى استشرى الزيف فى الخطاب العربى حول القضايا العربية المصيرية - مثل قضية فلسطين - حتى أصبحت قضية تستغل وقت اللزوم للإستهلاك المحلى، أو لإكتساب شعبية زائفة بإثارة المشاعر، أو كورقة ضغط فى لعبة خطرة ليس لها هدف إلا فرض الهيمنة والتوسع الإقليمى كما فعل الرئيس صدام حسين.

أشياء كثيرة فى حياتنا، وسلوكنا، وأفكارنا، ومعتقداتنا السياسية والإجتماعية والثقافية تحتاج إلى مراجعة وإلى إعادة فحص وغربلة.

ولا أظن أن مهمة مراجعة مكونات العقل المصرى والعربى مهمة السياسيين وحدهم، ولكنها مسئولية المثقفين أولا، وحق للجميع دون إستثناء، لأننا رأينا بأعيننا، كيف أنه حين يرتكب مجنون خطأ ما، فإن الثمن لا يدفعه هو ولكن يدفعه شعبه أولا، ثم يدفعه العرب جميعا، الذين أيدوه والذين عارضوه على السواء، الخسارة تلحق الجميع، ولذلك فإن البداية الصحيحة للإنقاذ - فيما أتصور - هى إدارة حوار قومى واسع إلى أبعد مدى، يشارك فيه الجميع دون إستثناء، ودون مصادرة أو إدانة أو تشكيك فى ولاء أو إخلاص شخص أو تيار، وأيضا دون إدعاء استئثار بالحكمة والصواب، وقبل ذلك دون مزايدة رخيصة من كذابى الزفة، فالمسألة تتعلق بالمصير، وبالمستقبل الذى سيأتى بعد أن يموت كل من هم على الأرض العربية وتبقى سيرتهم، - بالخير أو بالسوء - وتمتد آثار أعمالهم وتصرفاتهم لتحدد مصير أجيال قادمة.

هذا الحوار المفتوح حول قضايا المستقبل لا ينبغى أن يدور فى إطار الأحزاب، ولكن يجب أن يعلو على الإنتماء والولاء الحزبى، لكى تطرح فيه جميع القضايا القومية دون إستثناء ودون حساسية أو محاذير، ودون إلتزام بخط حزب أو فئة... إبتداء من: من نحن، وماذا نريد، ومن فى العالم معنا، ومن ضدنا، وأين مصالحنا، وما هى بالضبط هذه المصالح، وأين الخطر علينا وممن بالضبط سيجئ غدا أو بعد غد، وكيف يمكن إدارة العلاقات العربية فى حدود الممكن دون إغراق الأمة فى الأحلام والوهم... ثم ينتهى الحوار فى آخره

بتحديد استراتيجية واضحة المعالم للمستقبل العربى. . استراتيجية. . وليست كلمات جميلة وشعارات قديمة جوفاء. . ولا ترديدا لهذا النوع من المخدرات الفكرية التى أدمنها بعض السياسيين والمثقفين. . استراتيجية أساسها فكر واقعى يرى الحاضر بكل ما فيه. . ويقدر على طرح رؤية تستشرف وتتوقع وتضع ملامح المستقبل القريب والبعيد. . وتحدد كيف نحمى أنفسنا من تكرار مأساة صدام حسين مرة أخرى. . كيف نجعل الأرض العربية غير صالحة لغرس الأفكار المدمرة التى تجيد المراوغة وتلعب على كل الحبال. . . نحتاج إلى استراتيجية حقيقية قابلة للتطبيق وليست تمنيات. . استراتيجية نابعة من تحت. . من القاعدة. . من آراء وتطلعات الشعوب وليست مفروضة من فوق من صنع القادة وحدهم، تمثل الحد الأدنى الممكن من الإتفاق العربى، ومسموح بالإختلاف فيما عداها دون إستخدام الأسلحة العربية التقليدية من إتهامات العمالة والخيانة. . . وباقى القائمة الجاهزة.

من الممكن أن يكون هذا الحوار بداية مرحلة جديدة للشعوب العربية، يوقظ وعيها، ويجدد حماسها، ويقنعها بمواصلة الجهاد والعمل، ومن الممكن أن يكون وسيلة لهروب هذه الشعوب إلى قوقعة السلبية المعهودة. . يتوقف الأمر على مدى الجدية والحرية. . سوف يساعد هذا الحوار على إطلاق البخار المحبوس فى الصدور ولكن هذا لا يكفى. . سوف يعطى فرصة للصراع الفكرى، وهذا شئ عظيم يلزمنا الآن لبلورة الرأى وتوضيح الرؤية فى مختلف

الشئون المصيرية... سوف يسمح بسماع أصوات جديدة لم تجد من قبل فرصة لإعلان رأيها، أو إختبار أفكارها بالإحتكاك مع أفكار الآخرين... وسوف تظهر عقول وأفكار جديدة يمكن الإستفادة بها فى إثراء العمل الوطنى وتجديد دمائه، وهذا مطلوب بقوة.

سوف يساعد هذا الحوار فى إنقاذ العالم العربى من حالة الإنقسام التى أحدثها الرئيس صدام حسين، سواء بمناوراته التى سبقت وصاحبت عدوانه على الكويت، أو بالشعارات الكاذبة التى خدع بها كثيرين، أو بالنزعات الإنتهازية التى آثارها فى بعض الدوائر..

ليس هذا وقتا للزهو، أو التشفى، أو تصفية الحسابات.. فهذه أمور صغيرة لن تفيد إلا أعداء العرب... ولكنه وقت للعمل... وأول العمل السعى إلى تنقية الأجواء من جديد، وإحتواء آثار الأزمة فى العالم العربى، بحكمة بالغة، وخصوصا آثارها النفسية التى يمكن - إذا تركت بغير علاج - أن تؤدى إلى تصدع الشخصية العربية، والعودة بها إلى فترة التراجع التى إنقطعت فيها صلاتها بالحاضر والمستقبل.

المستقبل هو ما يجب أن يشغلنا، وهو الأولى الآن بتفكيرنا، والأحق بجهدنا، قبل أن نصبح خارج التاريخ..!

وقت الإختيار..!

عقلاء الأمة يجمعون الآن على أن هذا وقت المصالحة العربية، يدعوهم إلى ذلك شعورهم الصادق بأن الموقف دقيق، والزمن إختلف.. ذهبت السكرة وجاءت الفكرة.. وإذا لم يلتئم بسرعة الشرخ العربى الذى أحدثه صدام حسين فسوف يواجه العرب أسوأ مصير، وسوف تلعنهم الأجيال تلو الأجيال.. لكن فى أعماق الشارع العربى شعور بأن المصالحة هذه ا'رة لا يمكن أن تكون مثل المرات السابقة، لقاءات وتبادل للقبلات وتعبيرات تقليدية عن المشاعر الأخوية، وإلا فسوف تكون نوعا من التضليل يفسد الحاضر ويجهض المستقبل، فإما أن تكون مصالحة حقيقية قائمة على أسس موضوعية سليمة تضمن لها البقاء والنمو، وإما فليبق الحال على ما هو عليه إلى أن يأتى جيل أفضل وأكثر إخلاصا وفهما ومقدرة ليحققها.. فإن دقة الظروف تقتضى المصارحة قبل المصالحة، وفتح الجراح قبل

إلتئامها . . تماما كما يفعل الجراح لكى يضمن عدم تكرار ظهور الأورام من جديد .

لابد من المصارحة بأن الشعوب العربية أصبحت أكثر نضجا من بعض قادتها ، ولم تعد تنطلى عليها الأكاذيب أو الحيل القديمة ، لقد تعلمت الشعوب من مآسى الماضى ، وبعض القادة لم يتعلموا ، يظنون أن وسائل الدعاية والتضليل الإعلامى تكفى لتغطية الحقائق إلى الأبد . لقد قيل فى تبرير غزو الكويت أنه الطريق إلى تحرير فلسطين ، ولم يصدق طفل فى أى بلد عربى هذه التخاريف .

لكن بعض القادة رددوها ، ولم يرق فهمهم إلى إدراك ما حدث وهو أن غزو الكويت كان الطريق إلى تحويل الصراع العربى الإسرائيلى إلى صراع عربى - عربى وتفوز بالغنيمة إسرائيل . لابد من المصارحة بأن غزو صدام حسين للكويت تسبب فى إهدار القوة العربية فى مجملها ، والقوة العراقية بوجه خاص وهذا كسب جديد أهداه الرئيس العراقى لإسرائيل . . وفى مواجهة الشعار الزائف والمراوغ الذى رفعه بالربط بين غزو الكويت وتحرير فلسطين رفع شعارا آخر هو عدم وجود رابطة ، فإستفادت إسرائيل سياسيا من الجانبين . ! كما أن هذا الغزو ، أرسى سابقة عربية لما كانت تنفرد به إسرائيل من ضم الأراضى بالقوة ، وإخفاء أطماعها وراء ادعاءات الحقوق التاريخية ، وسوف نواجه متاعب كثيرة فى المستقبل نتيجة هذين المبدأين الخطرين . وقد تفتح هذه المتاعب أبواب جهنم على العالم العربى ، وقد لا يعرف أحد بعد ذلك كيف يغلقها . فما

اكثـر الذرائع التاريخية، وما أكثر السلاح والأطماع فى أرض العرب. !

ولابد من المصارحة بأن حالة التخلف الحضارى فى العالم العربى هى البيئة التى تنبت القلاقل، والزعامات المجنونة، ويمكن فهم ذلك من متابعة ما يجرى فى بلاد أخرى مثل البانيا، آخر دولة شيوعية إنهارت فيها دكتاتورية الحزب الواحد وحكم الفرد بحركة شعبية داخلية كان دافعها الأول الرغبة الجماهيرية فى التخلص من الفقر وتحقيق الديمقراطية. كما يمكن فهم الواقع العربى أفضل بعد تحليل الثورات الشعبية التى تفجرت فى شرق أوروبا، وكان دافعها الحقيقى العميق هو إرادة الشعوب فى اللحاق بالعصر، وكسر حواجز التخلف، ورفض الإستبداد والسيطرة السياسيةوأساليب القمع المفروضة عليها، والشعور الجارف بأن هذه الشعوب وصلت إلى درجة تستحق فيها أن تشارك فى المسئولية والقيادة، وإختيار الحكومة إختيارا حرا، وممارسة سيادة القانون بحق.

إذا كان عام ١٩٨٨ هو عام التحول العظيم فى دول شرق أوروبا فإن عام ١٩٩١ سيكون علامة وبداية تحولات فى العالم العربى بعد الحرب المجنونة التى تسبب فيها صدام حسين.

ومن الأفضل أن تكون المبادرة بأيدينا، لكى تتم هذه التحولات بطريقة، هادئة وسلمية، ولعل ما يجرى داخل الإتحاد السوفيتى يعطى صورة أوضح، فالإتحاد السوفيتى واجه مأساة الإنهيار، ليس

بسبب الأزمة الإقتصادية فقط، ولا بسبب النزعات القومية الإستقلالية فقط ولكن أيضا - وبالإضافة إلى كل ذلك - بسبب الحقيقة التى إكتشفها الشعب السوفيتى فى لحظة تاريخية تراجيدية، وكان قادته يخفونها عنه طوال سبعين عاما، وهى أنه متخلف عن الغرب بكثير. هذه اللحظة نزعت أستار الأكاذيب، وأسقطت أقنعة الزيف، هى لحظة إن جاءت لابد أن يتحرك فيها الشعب بالتمرد على الأوضاع القائمة، وعلى قادته السابقين والحاليين، وبالسعى لتحقيق القوة والحماية لنفسه من داخله.. لذلك حسم الشعب السوفيتى فى عام ١٩٨٨ الصراع الطويل الذى إستغرق ٢٠٠ عام حول الشكل الأمثل للحكم، وكيفية بناء السلطة، ووسائل تنمية الإقتصاد القومى على أسس سليمة، وتحقيق العدالة الإجتماعية دون تزييف..

أصبحت قضية الديمقراطية قضية حياة أو موت فى الإتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا بعد سنوات ظن فيها قادتها أن شعوبهم إستسلمت لما كانوا يروجونه من أنها لم تصل إلى الدرجة التى تصبح فيها الديمقراطية السياسية من ضرورات حياتها، وإن لقمة العيش وحماية الأمن القومى أهم من هذا الترف الغربى، وحلت الدكتاتورية ٧٠ عاما بالحزب الواحد والرأى الواحد والزعيم الواحد.. وقيل أن هذا ضرورى لمرحلة توحيد الأمة وحشد طاقاتها بدلا من تبديدها فى الخلافات السياسية، ولكى توفر الشعوب طاقة الجدل لتحقيق الإنجاز والوصول إلى القوة.. وكانت نتيجة هذا

المنطق المغلوط إن خسرت الشعوب فى النهاية كل شئ: الحرية، والإنجاز، والقوة (!).

سقطت هذه الأفكار فى الإتحاد السوفيتى وشرق أوروبا وأخيراً فى ألبانيا. . ثم سقطت سقوطا مدويا فى بغداد. . وبدأت التعددية الحزبية فى قلاع الدكتاتورية فى غرب إفريقيا، وظهرت حتى فى هايتى، وإنتهت الحكومات العسكرية فى أمريكا اللاتينية مع عام ١٩٨٩، وكان لابد أن تسقط فى العالم العربى أخيرا، حيث ظهر أن النظام الذى حكم العراق بشعارات براقة ـ آخرها شعارات الإسلام ـ هو حكم يقوم على القوة والتسلط والكذب والتضليل وهو أسوأ صورة للحكم المتخلف.

المصارحة هنا واجبة، ماذا سيختار العالم العربى لغده، هل سيختار إستمرار النظم المتخلفة وإن رفعت شعارات جميلة، أم يختار عصرا جديدا من الديمقراطية تفتح له الأبواب على القرن الحادى والعشرين قبل أن يطويه النسيان مع مخلفات التاريخ. . هل ستكون محنة الشعب العراقى والكويتى بداية مرحلة عربية جديدة من العدل والحرية أم سيبقى الوضع وكأن شيئا لم يكن؟ هل ستظهر قيم سياسية حضارية جديدة فى الوطن العربى، أم ستظل نفس القيم القديمة التى تكرس الإستبداد السياسى بمختلف صوره؟

المصارحة حول ذلك كله طريق لابد منه.

القسم الرابع

القدس .. لامساومة

«الإنحياز» فى الكونجرس [١]

هل هذه حقائق غائبة..؟!

فى عام ١٩٩٠ فى مناسبة ذكرى قيام إسرائيل، وجه إسحق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلى فى ذلك الوقت من الإذاعة ما أسماه «تحذيرا» إلى القادة العرب قال فيه: «ليكن معلوما تماما أن إسرائيل سوف تعرف كيف تدافع عن نفسها، وتهزم مخططاتهم..!» ولعله أراد بهذه العبارة الواحدة أن يوجه ثلاث رسائل فى وقت واحد. أولاها: أن إسرائيل أصبحت فى موقف يسمح لها بأن توجه «التحذير» إلى القادة العرب، وثانيتها: أنها تعرف كيف تشن «العدوان» على العرب، (وفى القاموس الإسرائيلى ـ كما فى التاريخ والإستراتيجية ـ فإن «الدفاع» يعنى «العدوان»). أما الرسالة الثالثة فهى أن إسرائيل تعرف أيضا كيف تهزم مخططات العرب، أما المخططات الإسرائيلية العدوانية فلم يتعرض لها السيد شامير، وفى

مقدمتها الآن المخطط البالغ الخطورة عن «القدس الكبرى» الذى نال فى ذلك العام مباركة وتأييدا إضافيا من مجلسى النواب والشيوخ الأمريكيين.

ومشروع القدس الكبرى، كسائر مشروعات إسرائيل العدوانية والتوسعية، ليس جديدا، وليس سرا مخفيا. ولو فتحنا العيون لحظة، وسعينا إلى تنشيط الذاكرة قليلا فسوف نجد ما يلى:

أولا ـ إن هذا المشروع بتفاصيله نشر على الملأ منذ أكثر من عشرين عاما فى صحيفة إسرائيلية ـ هى صحيفة معاريف يوم ٢٦ مارس ١٩٦٩ ـ وتناقلته أيامها وكالات الأنباء وعلقت عليه الصحف العربية، فكيف يكون مجهولا، وكيف يطويه النسيان.؟ وفى هذه الخطة ضم عدد من المدن إلى القدس وضمها إلى إسرائيل بحيث تتكون «القدس الكبرى» من مدن رام الله، والبيرة، وبيت لحم، وبيت جالا، وبيت ساحور، وقرى أخرى بينها وبين القدس، مع فرض الإعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل على العالم.. وطبعا ليس فى الحسبان مسألة الشرعية، أو الإرادة الدولية، أو مدى أخلاقية أو جواز تنفيذ ذلك بإغتصاب أراضى الغير.

ثانيا ـ أن هذه الخطة جرى تنفيذها علانية على مرأى ومسمع من العرب ومن العالم قبل وبعد نشر هذه الخطة، ولم يكن حريق المسجد الأقصى إلا حلقة من سلسلة أعمال التنفيذ، وكان هذا الحريق على بشاعته الوسيلة لإختبار رد الفعل العربى والدولى،

وللتمهيد، وتهيئة الأذهان لأعمال أخرى أكثر هولا، تتم خطوة خطوة وفق مخطط جاهز.

ثالثا - قبل ذلك بسنوات كانت هناك أصوات مدوية تعلن وتنذر بالخطر المترتب على تنفيذ هذه الخطة، ولكن كانت أيضا على الجانب العربى والدولى والأمريكى بالذات آذان لا تريد أن تسمع، فى أوائل الثلاثينات أعلن وزير بريطانى يهودى هو اللورد ميلشيت عن حقيقة النوايا بالنسبة للمسجد الأقصى فقال: «إن يوم إعادة بناء هيكل سليمان قد إقترب.. وسأصرف حياتى فى السعى إلى إعادة بناء الهيكل على أنقاض الأقصى»! وقبله - فى عام ١٩٢٩ - أعلن رئيس جمعية الدفاع عن حائط المبكى «كلاونز»: «أن المسجد الأقصى القائم على قدس الأقداس فى الهيكل إنما هو ملك اليهود» (!) وفى أعقاب حرب ٦٧ - بالتحديد يوم ١٢ أغسطس ١٩٦٧ - حين إجتمع وزير الأديان الإسرائيلى مع رؤساء حاخامات أمريكا وبريطانيا وفرنسا وغيرها، وجه إليهم عبارة فيها من التحريض ما لا يخفى على عقول متوسطى الذكاء حين قال: «إن الحرم القدسى (يقصد المسجد الأقصى ومسجد الصخرة) هو قدس الأقداس بالنسبة لليهود، لكنه لا يزال مقدسا لدى ديانة أخرى (يقصد الإسلام) وإن الإسرائيليين لا يعتزمون فى المرحلة الحاضرة إعادة بناء هيكل سليمان، وإنه من الجميل إرجاء هذه الفكرة فى الوقت الحاضر، ولكن هذا لا يعنى أن يمتنعوا (اليهود) عن القيام بعمل ما يستطيعون عمله».. وكانت هذه الكلمات إيذانا ببدء تنفيذ الخطة، فقد قام الجميع بما يستطيعون عمله

تحت ستار الجماعات المتطرفة أو بسلطات الإحتلال مباشرة.. من طرد العرب، وهدم بيوتهم، والإعتداء بمختلف الصور على بيت المقدس.

لا يحق للذاكرة العربية - أو حتى ذاكرة القادة السياسيين الكبار فى الكونجرس الأمريكى - أن تنسى البيان الذى نشرته جريدة نيويورك تايمز الأمريكية يوم ١٦ يونيو ١٩٦٨ من «لجنة صهيون» ومعه خريطة للقدس القديمة إختفى منها المسجد الأقصى ومسجد عمر وقبة الصخرة، وفى نفس الوقت أذاعت وكالة الأنباء الفرنسية أن الحكومة الإسرائيلية سوف تخصص ٢ مليون دولار لإعادة بناء الهيكل (مكان المسجد الأقصى!)..

ولا يحق أيضا نسيان ما نشرته صحيفة معاريف الإسرائيلية فى ٢٢ يوليو ١٩٦٩ من أن رئيس حاخامات إسرائيل أصدر نداء لليهود يطالبهم فيه بالمحافظة على الحداد فى يوم ذكرى خراب الهيكل (٩ أغسطس من كل عام) وعدم التوقف عن هذا التنفيذ إلى أن يتمكنوا من إعادة بناء الهيكل. (على أنقاض المسجد الأقصى).

وما جرى عام ١٩٦٧ بعد ثلاثة أيام فقط من إحتلال إسرائيل للقدس، حين فاجأ الجيش الإسرائيلى سكان المدينة العرب بجرافات صباح ١١ يونيو ٦٧ تنذر السكان بمغادرتهم منازلهم فورا، ثم شرعت فى هدم هذه المساكن وشردت سكانها، وفاضت الصحف العالمية وقتها فى وصف حالة الهلع والرعب التى عاشها أصحاب البيوت

العرب. وفى خلال ثلاثة أيام فقط أزيلت معالم الحى بأكمله، كل دار وكل شارع أو زقاق فيه يحمل إسما من تاريخ العرب والإسلام فى المدينة المقدسة، فضلا عن معالم دينية أبرزها مسجد البراق الشريف الذى يرتبط دينيا بإسراء الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم واصلت السلطات الإسرائيلية بعد ذلك هدم جميع الأبنية الواقعة غربى شارع الأنبياء، وعشرات من الأبنية الملاصقة لسور المدينة ما بين باب العمود وباب الخليل بحجة التنظيم والتجميل، كما نسفت عشرات الأبنية العربية بحجة المحافظة على الأمن، وأزالت من الوجود كثيرا من آثار وتاريخ العرب من القدس.

بل ـ أكثر من ذلك ـ ومصدرنا الرئيسى هو الصحف الأمريكية فى معرفة تفاصيل ما نفذته إسرائيل من عمليات التخريب تحت ستار أنها حفريات أثرية، منذ عام ١٩٦١ ـ فقد بدأت الجامعة العبرية بإجراء حفريات واسعة على إمتداد الجدار الجنوبى للحرم، وإمتدت الحفريات إلى حيث تهدد المسجد الأقصى والجدار الغربى للحرم الشريف، وهل يمكن نسيان البيانات والمذكرات والإحتجاجات التى قدمتها المنظمات والهيئات الدولية ومنها اليونسكو لتحذير إسرائيل بأن كل ذلك التخريب مخالف لأحكام إتفاقية لاهاى عن الآثار، إلى أن بدأت وزارة الأديان الإسرائيلية هى الأخرى فى نوفمبر ١٩٦٨ بإجراء حفريات تحت الطرف الشمالى من جدار البراق حتى باب العمود وباب الخليل وأصبحت هذه الحفريات تمثل خطرا كبيرا على المنشآت التاريخية الإسلامية المقدسة.. وبقرارات من الحكومة الإسرائيلية

نزعت ملكية البيوت المحيطة بجنوب وغرب سور الحرم الشريف وتم هدمها، وجاء حريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ فى مكان كان يمثل حاجزا بين الحفريات الجارية إلى يمين السور والحفريات الجارية إلى يساره. وليس هناك صحيفة أمريكية لم تنشر تقارير عن هذه الحفريات إلا وقالت أنها تهدد الآثار والمقدسات الإسلامية وخاصة المسجد الأقصى ويمكن أن تؤدى إلى إنهياره.. والملف ضخم جدا يبدأ من صحيفتى هيرالد تريبيون فى ١٥ يونيو ١٩٦٩ ونيويورك تايمز فى ١٧ يونيو ١٩٦٩ حتى اليوم.!

هل يجهل القادة السياسيون الكبار فى مجلسى الكونجرس أن سلطات الإحتلال الإسرائيلى ماضية فى تنفيذ مخططها عن «القدس الكبرى» بإصرار، وأن إسرائيل بعد أن أصدرت قرارها فى ٢ يونيو ١٩٦٧ بضم القدس الشرقية وعدد من القرى العربية الأخرى إليها، أصدرت بعد يومين قرارها بضم القسم العربى كله إلى الحكم الإسرائيلى المباشر وتطبيق القوانين الإسرائيلية على سكانه.. وهل يجهل مجلسا الكونجرس قرارات الرفض والإدانة التى صدرت من أمريكا وهى قرارات لا حصر لها ومن كل المستويات..؟ وظلت قرارات الرفض والإدانة الأمريكية تصدر عقب كل عمل تقوم به إسرائيل من أعمال الهدم والنهب والضم والإستيلاء على الأراضى.

وهل يجهل الكونجرس أن وزير المالية الإسرائيلى أصدر فى ٨ يناير ١٩٦٨ قرارا بمصادرة ٨١٨ فدانا يملك اليهود ١٧٪ ويملك العرب ٨٣٪ منها، وفى ١٤ أبريل ١٩٦٩ أصدر قرارا ثانيا بمصادرة

٥٠ فدانا أخرى، والقطعتان تشكلان طوقا حاجزا بين عرب القدس وإخوانهم فى الشمال وقسم من الشرق، ومساحتهما ثلث ما بقى بأيدى العرب من المدينة بعد نكبة ١٩٤٨، أما الأرض جنوبى القدس التى تضم جبل المكبر - المرتبط تاريخيا بدخول الخليفة عمر بن الخطاب المدينة - فقد عرضت الحكومة الإسرائيلية على سكانها العرب تعويضات مقابل تخليهم عنها، فلما رفضوا وأصروا على أن أراضيهم جزء من الوطن الفلسطينى إستولت عليها بالقوة، وأقامت مبان جديدة شوهت تنظيم المدينة وطابعها التاريخى، كما أقامت فى هذا الحى عددا من العمارات وأسمته «حى أشكول» رئيس وزرائها الأسبق، ثم ضمت بعد ذلك مساجد، ومدارس، وزوايا إسلامية، وأسواقا أثرية عربية، وصادرت أوقاف المسلمين، وطردت سكانها.. وكل هذه الوقائع منشورة بتفاصيلها وتواريخها بلغة الأمريكان وفى صحفهم.

هل كان الكونجرس يجهل قرارى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٤ يوليو ١٩٦٧ و ١٤ يوليو ١٩٦٧ تدعو فيهما إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التى إتخذت فى القدس والإمتناع عن إتخاذ أى عمل من شأنه تغيير وضع القدس، أو قرارى مجلس الأمن فى ٢١ مايو ١٩٦٨ و ٤ يوليو ١٩٦٩ بإعتبار كافة الإجراءات الإسرائيلية لتغيير وضع المدينة كأن لم يكن..؟

هل يحتاج الأمر إلى أن نضع نصوص هذه القرارات - وغيرها

كثير ـ أمام السادة أعضاء مجلس النواب والشيوخ الأمريكيين، وهى بالفعل لديهم، فقط عليهم أن يفتحوا الملف.. ويفتحوا العيون والعقول والضمائر.!

لست أعرف كيف يجد البعض القدرة على أن يقول أعذروا أعضاء المجلسين فإن الحقائق حجبت عنهم، ووقعوا فريسة التضليل وجماعات الضغط الصهيونية.. ولو صح ذلك لكان القلق أكبر. لصدور قرارات على هذا المستوى من المسئولية والخطورة الدولية تحت تأثير الجهل أو الضغط، والعذر أقبح من الذنب! وكيف يقال أن القرار غير ملزم للرئيس الأمريكى وقد كشفت السلطة التشريعية الأمريكية عن موقف معاد للعرب وللحقائق الثابتة المؤكدة، حتى لو كان ذلك فى شكل توصية. ألا يدل ذلك على أن «الإنحياز» إلى إسرائيل الذى كنا نشكو منه ويمسك بنا يوشك أن يمسك بخناقنا..

القضية تحتاج إلى وقفة. ويبدو أن إقتراح عقد قمة عربية طارئة يجرى الإعداد لها بدقة هو الحل الوحيد لبحث هذه التطورات وما يمكن أن يتلوها فى المستقبل القريب أو البعيد. فإن المستقبل البعيد مهما يكن بعيدا سوف يأتى، وإن لم نعان نحن منه، فسوف نترك معاناته لجيل قادم سوف يذكرنا ويحاسبنا.

«الإنحياز» فى الكونجرس [٢]

أصوات الضمير الأمريكى

عقب صدور قرار مجلس الشيوخ الأمريكى فى عام ١٩٩٠ بإعتبار القدس عاصمة لإسرائيل جاءتنا أصوات أمريكية ـ ترددت أصداؤها كثيرا ـ تلتمس الأعذار بأنه وليد الجهل السائد بين أعضاء الهيئة التشريعية الأمريكية، ولم ينس البعض أن يلقى باللوم على العرب ـ كالعادة ـ ويحملهم المسؤولية، لأنهم لم يشرحوا قضيتهم بالشكل الكافى، وكأن الأمور السياسية العليا تدار دائما ـ هناك ـ بالعلاقات العامة والدعايات السياسية، ومع ما فى هذا القول من إستهانة بالعقول وجد من صدقه.. إلى أن صدر قرار مجلس النواب هو الأخر بإعتبار القدس عاصمة لإسرائيل، فأصبح من نصيب إسرائيل قراران من الكونجرس، إن لم تكن لهما قوة تنفيذية فإن لهما بالتأكيد قوة سياسية لابد أن يكون لها تأثيرها فى القرار الأمريكى فيما

بعد، أي أن اقرار غرس بذرة إذا تركت يمكن أن تتحول مع الوقت إلى شجرة يصعب إقتلاعها. وإذا أبتلع العرب هذا القرار ـ وتقبلوا أى تبرير له ـ فعليهم أن يهيئوا أنفسهم لقرارات أخرى أشد إيلاما فى المستقبل. أما النكتة الخاصة بجهل القادة السياسيين الأمريكيين الكبار فليس من السهل قبولها، وأكثر إستهانة منها بالعقول ما قيل من أن القرارين لا يعبران عن الضمير الأمريكى وإنما يعبر عنه رسائل القراء فى بريد الصحف الأمريكية الكبرى.. !

قبل ذلك كانت تتردد كثيرا أصوات الضمير الأمريكى فى غير بريد الصحف، ولكن فى القرارات والوثائق.. ولم يكن يبتعد كثيرا عن أصوات الضمير العالمى والشرعية الدولية وموازين الحق والعدل.

أصوات الضمير الدولى جاءت فى قرارات عديدة للأمم المتحدة، ومجلس الأمن. أبرزها قرار الجمعية العامة فى ٤ يوليو ١٩٦٧ (رقم ٢٢٥٣) أعلنت فيه دول العالم شعورها بالقلق الشديد للموقف السائد فى القدس نتيجة الإجراءات التى إتخذتها إسرائيل لتغيير وضع المدينة، وسجلت أن هذه الإجراءات غير مشروعة، ودعت إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التى إتخذتها، والإمتناع عن إتخاذ أى عمل من شأنه تغيير وضع القدس.. إلخ ولم تعترض أمريكا على هذا القرار! وكذلك عندما صدر القرار الثانى من الجمعية العامة فى ١٤ يوليو ١٩٦٧ رقم (٢٢٥٤) وسجلت فيه دول العالم الأسف والقلق الشديدين لعدم التزام إسرائيل بالقرار السابق، وإستنكرت

فشل إسرائيل فى تنفيذ ذلك القرار، وكررت دعوتها إلى إلغاء جميع الإجراءات التى أتخذت، والإمتناع عن إتخاذ أى عمل من شأنه تغيير وضع القدس، وطالبت السكرتير العام بتقديم تقرير إلى مجلس الأمن والجمعية العامة حول الموقف وحول تنفيذ هذ القرار.. لم تعترض أمريكا أيضا على هذا القرار..! وقلنا يومها أن أمريكا عبرت عن إنحيازها لإسرائيل بالإمتناع عن التصويت (!) فى ذلك الوقت لم يكن الضمير الأمريكى يسمح بالتصويت بالموافقة على ما تفعله إسرائيل فى القدس ويعتبره إنتهاكا صارخا للحقوق العربية الثابتة والمشروعة.

ثم صدر أول وأشهر قرار لمجلس الأمن خاص بالقدس فى ٢١ مايو ١٩٦٨ (رقم ٢٥٢) سجل خرق إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة وإتخاذها إجراءات وأعمالا جديدة، وأكد مجلس الأمن أن الإستيلاء على أراض عن طريق الغزو العسكرى أمر لا يمكن السماح به، وأعتبر كافة الإجراءات والخطوات التشريعية والإدارية التى إتخذتها إسرائيل، بما فى ذلك نزع ملكية الأراضى والأملاك التى تهدف إلى تغيير الوضع القانونى فى القدس لاغية ولا يمكن أن تؤدى إلى تغيير هذا الوضع، ودعا إسرائيل فورا إلى إبطال الإجراءات التى إتخذتها فعلا.

ثم جاء بعد ذلك قرار ثان لمجلس الأمن لا يقل قوة ووضوحا فى ٣ يوليو ١٩٦٩ سجل فيه أن إسرائيل إتخذت إجراءات أخرى لتغيير

الوضع القانونى لمدينة القدس، وأعاد القرار تأكيد المبدأ الوطيد بأن إكتساب الإراضى بالغزو العسكرى أمر لا يمكن الإعتراف به، وأن كل الإجراءات والأفعال التشريعية والإدارية التى إتخذتها إسرائيل بما فى ذلك مصادرة الأرض والممتلكات، غير مشروعة، ودعا القرار إسرائيل إلى الرجوع عن كل ما إتخذته من إجراءات وأن تمتنع فى المستقبل عن كل الأفعال التى من شأنها أن تؤدى إلى مثل هذه النتيجة.

وكان هذا أيضا صوت الضمير العالمى دوى فى كل مكان، وكانت أمريكا حاضرة، وشاهدة.

قبل صوت الضمير العالمى، إستمع العالم إلى صوت الضمير الأمريكى مبكرا ومدويا ـ بعيداً عن الكونجرس والبيت الأبيض! ـ حين أعلن عالم الآثار الأمريكى المعروف الأستاذ «لاب» المدير السابق لمدرسة الآثار الأمريكية للأبحاث الشرقية بالقدس، والذى كان يقيم بالقدس أثناء إحتلال إسرائيل لها عام ١٩٦٧ وأتاحت له ظروفه التجول والإطلاع على دقائق ما يجرى، ورفع مذكرة إلى ممثل حكومته فى القدس موضوعها «الإعتداءات الإسرائيلية على الآثار العربية والإسلامية بالقدس» وتاريخها ٧ ابريل ١٩٦٨. نبه فيها إلى أن إسرائيل لا تحترم المواثيق الدولية الخاصة بالمحافظة على الآثار فى المناطق التى تقع تحت الإحتلال، مثل توصيات المؤتمر العام لعلماء الآثار فى دورته التاسعة فى نيودلهى فى ٥ ديسمبر ١٩٥٦، والميثاق

الذى أقره المؤتمر الدولى المنعقد فى لاهاى عام ١٩٥٤ لحماية الآثار الثقافية فى النزاعات المسلحة، الميثاق الأول يلزم الدولة التى تحتل أراضى غيرها بالإمتناع عن القيام بأى حفريات أثرية وإذا عثرت على آثار بالصدفة تتولى حمايتها، وتسلمها سليمة بعد إنتهاء الإحتلال، ويحظر الميثاق الثانى إزالة أى أماكن أثرية دون إشراف مندوب معتمد من منظمة اليونسكو، والوثيقتان تعبران عن الضمير الحضارى الإنسانى ولهما قوة دولية بإعتبارهما ميثاقا دوليا ملزما.

ودوى صوت الضمير الأمريكى على لسان هذا العالم الكبير بحقائق مفزعة.

- إن إسرائيل تسرق مقابر أثرية فى الوقت الحاضر (ابريل ٦٨ وما بعده) وسمحت بإجراء حفريات رغم الإعتراضات الدولية، وبخاصة فى القسمين الجنوبى والشرقى لحائط الحرم الشريف فى منطقة تعتبر ذروة فى التاريخ الإسلامى والمسيحى واليهودى بالنسبة لأى موقع آخر فى العالم.

- إن إنتهاكات إسرائيل للمتحف الفلسطينى بلغت حدا لا يمكن السكوت عليه، إقتحمته جنودها يوم ٦ يونيو ١٩٦٧ وعرضت مقتنياته لخطر الحرب والخراب، وإعتبرته واحدا من المتاحف الإسرائيلية (!) وسرقت مخطوطات أثرية لا مثيل لها تسمى مخطوطات «لاشيش» وخرقت بذلك خرقا فاضحا ميثاق لاهاى الدولى.

ـ سرقت إسرائيل مخطوطات البحر الميت، ومخطوطات الهيكل وغيرها مما يعتبر أملاكا ثقافية للعرب نهبت بالقوة. .

ثم يسجل العالم الأمريكى إنزعاجه الشديد مما شاهده من إعتداءات إسرائيلية. .

ـ تدنيس الشابات والشبان الإسرائيليين للمساجد والكنائس بدخولهم إليها فى أوضاع غرامية فاضحة لا تليق بقدسية وجلال هذه الأماكن وبملابس غير محتشمة كأنهم فى حدائق عامة (!) الأمر الذى دفع بطريرك اللاتين بالقدس لإصدار أمر بإغلاق ثلاث من كنائسهم الكبرى فى القدس إحتجاجا على هذا التدنيس. (وهذه الإعتداءات مستمرة منذ ١٩٦٧ وحتى هذه اللحظة).

ـ إحتقار عام للمساجد والكنائس بأصطحاب الكلاب، والتدخين فى داخلها، مما سبب الكثير من الحوادث والمعارك أبرزها ما جرى بين راهب من الفرنسيسكان أسمه الأب روك، وشاب وفتاة قرب القبر المقدس فى كنيسة القيامة بالقدس.

ـ سرقة تاج العذراء مريم المصنوع من الذهب المرصع بالجواهر من كنيسة القيامة، وهو تاج أثرى وتاريخى، بالإضافة إلى قيمته المادية، وقد حاولت سلطات إسرائيل تغطية الحادث بتمثيلية من المحاكمة، وإعادة قسم من التاج، ولم يظهر لبقيته أثر. (!)

ـ تحويل كنيسة يوحنا المعمدان إلى وحدة مراحيض عامة، وقد

أعلن ذلك للعالم لأول مرة بصوت مدو على لسان مطران الروم الأرثوذكس بعمان فى شهادته أمام لجنة جمع الحقائق التابعة لهيئة الأمم المتحدة أثناء زيارتها لعمان فى أغسطس ١٩٦٩ .

ـ سرقة محتويات كنيسة مار إلياس وقامت بذلك قوات الجيش الإسرائيلى كما جاء فى شهادة مطران الروم الأرثوذكس أمام نفس اللجنة والدولية.

ـ إغتصاب مفاتيح أحد أبواب الحرم الشريف (باب المغاربة) وفتح بالباب بالقوة لجموع الإسرائيليين رجالا ونساء ليدخلوا المساجد الإسلامية لإحداث ضوضاء والتشويش على المصلين والتعرض لهم بالشتائم فى كثير من الأحيان (!).

إقامة الصلوات اليهودية داخل ساحات الحرم الشريف.. من رجال الجيش الإسرائيلى ورجال الدين والمنظمات الصهيونية المتطرفة المدعومة من السلطات.

ـ وأخيرا تدبير حريق المسجد الأقصى فى عام ١٩٦٩ الذى أعلنت إسرائيل أنه وقع نتيجة ماس كهربائى، بينما إجتمعت الهيئة الإسلامية بالقدس المحتلة فى أعقاب الحريق مباشرة وشكلت لجنة من المهندسين وإدارة كهرباء القدس وأثبت الفحص عدم وجود أى خلل يمكن أن يؤدى إلى الحريق، ووجدت الأسلاك الكهربائية سليمة لم تتعرض لأى إحتراق نتيجة ماس كهربائى، وقررت اللجنة الفنية إن مركز

الحريق الرئيسى كان فى السقف على إرتفاع يزيد على ثمانية أمتار من تلك الأسلاك، ولا توجد فى السطح أسلاك بتاتا، أما ثريا القبة فتأتيها الكهرباء عن طريق سلك هوائى لا يزيد إرتفاعه على أربعة أمتار، ووجد المهندسون مفاتيح الكهرباء سليمة، وأثبتوا أنهم لم يجدوا ما يدعوهم للشك بوجود أى ماس كهربائى فى المسجد من الممكن أن يكون قد أدى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لحدوث الحريق (!) وأتمنى أن تتاح فرصة لإعادة نشر تقرير هذه اللجنة المدعم بالحقائق العلمية والوثائق لأنه هو ذاته وثيقة تاريخية بالغة الأهمية يجب أن تودع مكتبة الكونجرس ـ ولعله فيها بالفعل ـ ليرجع إليه السادة الأعضاء إن كانوا يجهلون حقيقة من هم أصحاب القدس الحقيقيين، وكيف دخلتها إسرائيل، وماذا فعلت فيها.

كانت هذه الأمور فى الماضى تقلق الضمير الأمريكى وترتفع أصوات الإستنكار الأمريكية من الهيئات السياسية والعلمية والدينية، ثم بدأت أصوات الإستنكار تخفت.. ثم ها هو الكونجرس بمجلسيه لا يكتفى بالصمت ولكنه يتكلم.. ويكون صوته هذه المرة ضد الحق، وضد الشرعية الدولية، وإقرارا لمبدأ الإغتصاب بالقوة كشريعة يريدها أن تكون قانون العالم..

هل تكون لإسرائيل قرارات الكونجرس، وتكون للعرب بقايا أصوات الضمير فى بريد القراء فى الصحف الأمريكية..؟!

المسألة هذه المرة ليست ككل مرة..!!

هذه المرة تتعلق المسألة بثالث الحرمين الشريفين وأول القبلتين، ومسرى الرسول صلى الله عليه وسلم، وبكنائس الأقباط العرب.. وهذه أماكن لا يمكن أن تكون موضع مساومة، أو تفريط.

«الإنحياز» فى الكونجرس [٣]

ضد التاريخ!

السنوات التى مرت على صدور قرارى مجلس النواب والشيوخ الأمريكيين بإعتبار القدس عاصمة لإسرائيل، لم تخفف من حدة الغضب والقلق العربيين. لأنهما كشفا حقيقة بالغة السوء. هى أن النخبة السياسية فى الهيئة التشريعية الأمريكية لها موقف ضد المبادئ الأمريكية المعلنة، وضد الشرعية والمبادئ الدولية، وضد التاريخ والمستقبل معا..!

وهناك مشهدان سجلهما التليفزيون الأمريكى وعرضا فى دول كثيرة فى العالم نهديهما إلى السادة أعضاء الكونجرس لأن دلالتهما تتجاوز الحدث فى ذاته، وهما وحدهما يكفيان رمزا ومثالا للمبادئ والقيم التى أعلن الكونجرس إنحيازه لها. المشهد الأول لجنديين إسرائيليين إقتادا شابا فلسطينيا أعزل من شباب الإنتفاضة، لكن

الكاميرا الأمريكية كانت تسجل من بعيد، وأمسك أحدهما بذراع الشاب وظل يضربه بقطعة حجارة كبيرة مدببة، والشاب يصرخ، إلى أن خلع الذراع وطوح بها بعيدا، ثم إنصرف الجنديان والشاب ملقى فى بركة من الدماء، ونافورة الدم تندفع من بقايا الذراع. . (!).

أما المشهد الثانى فقد عرض فى كل العالم فى عام ١٩٩٠ لبطريرك الروم الأرثوذكس فى القدس ملقى على الأرض فاقد الوعى، وبجانبه سقط أيضا رئيس الأساقفة والمطران، بينما جنود الإحتلال الإسرائيلى يضربونه ويحطمون أيقونته أثناء هجومهم على دير مار يوحنا. .

كل مشهد من هذين يمثل رمزا ونموذجا مليئا بالمعانى. . ولأن الإعتداءات الإسرائيلية على المقدسات المسيحية والإسلامية فى القدس لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية حتى فى أشد العصور ظلاما، فقد قرر رجال الدين المسيحى والإسلامى - لأول مرة فى التاريخ - إغلاق كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس وإغلاق المسجد الأقصى والمساجد الأخرى، إعلانا عن الإحتجاج بأعلى صوت وقد تابع العالم ذلك كله على شاشات التليفزيون وسمع صرخات المسلمين والمسيحيين تتصاعد إلى السماء.

إذا أضفنا المشهدين إلى قرارى الكونجرس فلن نجد أبلغ مما قاله العضو الديمقراطى فى مجلس النواب الأمريكى ديفيد بونبار عن ولاية ميتشجان بأن هذا القرار سيئ وشرير، وغير مناسب، ويمثل

تحديا للمجتمع الأوروبى والمسيحى وللكنيسة الأرثوذكسية، وللعرب والمسلمين!

إلا يمثل ذلك إنحيازا لما تردده إسرائيل من أكاذيب وأساطير مثل أن اليهود هم شعب الله المختار، ومثل أن القدس ـ وفقا لنبوءة الكتاب المقدس ـ ستصير عاصمة لدولة إسرائيل ثم تصير عاصمة للعالم، ومثل أن إستيلاء اليهود على القدس تحرير لها من الوجود العربى..؟! ولقد كنا نتصور أن هذه الأقوال وأمثالها ليست إلا نوعا من الفلكلور الدينى، أو أحلام اليقظة السياسية، حتى صدمنا موقف الكونجرس وكشف أن هذه الأساطير إخترقت عقول الصفوة وأنها أصبحت تتفاعل مع العوامل الأخرى من المصالح.. والعلاقة الإستراتيجية الخاصة بين إسرائيل وأمريكا.. إلخ.

ولابد أن نعترف بأننا لم نقدر مدى تسلل فكرة أن اليهود هم شعب الله المختار فى العقل الأمريكى الحديث، متصورين أن الذكاء والعقل والعلم الأمريكى كفيل بوضع هذه الأسطورة فى حجمها الصحيح بين الأساطير، إلى أن أعلن قداسة البابا شنودة بطريرك الأقباط فى مصر أنه حين إلتقى بالرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر فى البيت الأبيض عام ١٩٧٧ بادره كارتر بسؤال عن موقف الكنيسة المصرية من أن اليهود ليسوا شعب الله المختار.. وأفاض البابا فى شرح التفسير المسيحى لما ورد فى العهد القديم، وملخصه أن اليهود كانوا فى العهد القديم ـ حين نزلت التوراة ـ هم شعب الله

المختار، ليس لأنهم يهود، ولكن لأنهم كانوا الشعب الوحيد الذى خرج منه الأنبياء وأولهم النبى موسى وقت أن كان العالم كله وثنيا، ولكن الأمر إختلف بعد أن إنتشر الإيمان بالله بين شعوب أخرى، وملأ الإيمان العالم كله، وصار من غير المنطقى أن يختص الله اليهود ويترك آلاف الملايين من المؤمنين به فى العالم كله.. والعدل الإلهى يقضى بأن يكون شعب الله المختار هو كل المؤمنين بالله وليس اليهود فقط.

ولأن مواقف الكنيسة المصرية معروف، فقد وجد البابا شنودة فى أكثر من لقاء من يسأله أمام أجهزة التليفزيون وممثلى الصحافة الأمريكية عن نبوءة الكتاب المقدس التى تقول أن القدس سوف تصير عاصمة إسرائيل وعاصمة العالم (!) ونشرت الصحف الأمريكية كما أذاع التليفزيون أكثر من مرة رد البابا شنودة بأن الكتاب المقدس (العهد الجديد) ليس فيه أية واحدة تقول بهذا، ولكن هناك نبوءة فى العهد القديم (التوراة). عندما حدث السبى الأشورى لليهود فى القرنين السادس والثامن قبل الميلاد وعدهم الله بالعودة إلى أورشيلم (القدس) وصدقت النبوءة. وتحقق الوعد وإنتهى الأمر، وأصبحت المسألة كلها واقعة تاريخية قديمة، فقد جاء الوعد وتحقق فى الماضى، ولم يعد منه الآن إلا الذكرى، ولا علاقة له بزماننا، الحاضر أو المستقبل، ومن الكذب الإدعاء بأن الله وعد اليهود بأن تكون القدس عاصمة لهم فى القرن العشرين، لأن ما لديهم من وعود ونبوءات تتعلق كلها بالزمن الذى كانوا يعيشون فيه وقت نزول التوراه وقد تحققت وإنتهت وليس لها أية صلة بفترة زمنية تالية..

وإذا قيل أن موقف الكونجرس كان وليد الجهل، فهل يجهل السادة أعضاؤه أن القدس لها خصوصية لا تشاركها فيها أية بقعة فى العالم. . ؟ وأنها تضم أماكن مقدسة للأديان الثلاثة وإليها تتجه قلوب المؤمنين بالله فى مختلف أنحاء العالم. . هل يجهلون أن القدس أسسها الكنعانيون العرب وكان إسمها (أورسالم) أى مدينة السلام. . وأن تاريخها كله يشهد بأنها كانت على إمتداد العصور للعرب والمسلمين، وليس لليهود من تاريخها كله على إمتداد آلاف السنين إلا سبعون عاما؟

سبعون عاما فقط هى كل الفترة التى إحتل فيها اليهود القدس كانت أقل الفترات عمرا فى تاريخ الغزوات التى تتابعت على فلسطين، كما كانت أقلها أثرا فى المدينة التى كانت عربية قبلهم، وعادت عربية بعدهم، والتاريخ يشهد أن المدينة تتابعت عليها ـ أكثر من أى مدينة أخرى فى العالم ـ موجات من الغزو إستمرت حتى دخلت فى عصرها الإسلامى. نبوخذ نصر إستولى على القدس (سنة ٥٩٩ قبل الميلاد) وقام بعملية السبى اليهودى التاريخية ودمر هيكل سليمان (ولم يدمره العرب ولا المسلمون كما تردد الأكاذيب اليهودية) وظلت المدينة طوال القرنين السادس والخامس وحتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد بين أيدى الفرس والكنعانيين. . إستولى عليها الإمبراطور قورش الفارسى (٦١٤ قبل الميلاد) وإستولى عليها الإسكندر المقدونى عشر سنوات (من سنة ٣٣٢ قبل الميلاد) وإستولى عليها البطالمة، والسلوقيون. .

تاريخ طويل . .

لماذا لا يدعى أحفاد الآشوريين أو الفرس أو اليونان أو الرومان أن لهم حقوقا تاريخية فى القدس . . المسألة أن تزييف التاريخ، وتزييف الوعى . . أصبحت صناعة صهيونية رائجة . .

والتاريخ يسجل أن الحكم الرومانى أزال ما كان باقيا فى القدس من معالم أثرية لليهود والمسيحيين بعد الحاكم الرومانى تيطس (٧٠ ميلادية) ولم يعد لليهود فى القدس منذ ذلك العهد إسم يذكر!

ثم إن التاريخ المعروف والمسجل - وفى مكتبة الكونجرس مئات الكتب عنه - يشهد بأن الخليفة عمر بن الخطاب دخل القدس (٦٣٦ ميلادية) وأعطى أهلها آمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، ألا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا يكرهون على دينهم، وأقام المسلمون مسجد عمر بجوار كنيسة القيامة، ونشروا مبادئ التسامح الدينى، وحتى عندما جاءت الحملة الصليبية وإحتلت القدس مائة عام ظلت الصفة العربية ملازمة للمدينة المقدسة.

المسجد الأقصى ومسجد الصخرة بناهما عبد الملك بن مروان (٦٤١ م) وإعتمد لبناء مسجد الصخرة خراج مصر لمدة سبع سنوات. وبعده إتجه لبناء المسجد الأقصى.

إسم القدس اقترن بإسم صلاح الدين الذى إنتصر على الصليبيين وإسترجعها (١١٨٧ م) وأكرم رجال الدين المسيحى، وكان

للمسيحيين مواقف مشهودة فى تأييده.. وحكمها المماليك، ثم الأتراك العثمانيون حتى الحرب العالمية الأولى. وكرمز لاحترام المسلمين للمقدسات المسيحية فان مفتاح كنيسة القيامة منذ عهد عمر بن الخطاب وحتى اليوم مسئولية أسرة فلسطينية مسلمة!

القدس أكثر مدن العالم تكدسا بالمساجد والمدارس والتكايا والزوايا والآثار الإسلامية، عروبتها حقيقية قائمة فى كل العصور والأحوال حتى أثناء الحروب الصليبية وأربعة قرون بعدها.. ولم يعرف أهلها إلا اللغة العربية..

القدس التى أسرى الله إليها برسوله صلى الله عليه وسلم.

مدينة المسجد الأقصى الذى ظل قبلة المسلمين فى صلواتهم ـ قبل الكعبة ـ سبعة عشر شهرا.

القدس: مسجد الصخرة، وحائط البراق الذى ربط عنده الرسول صلى الله عليه وسلم براقة ليلة الإسراء.. ومقبرة الرحمة التى تضم رفات أكرم الصحابة الذين إستشهدوا فيها.

القدس كلها مسجد..

والقدس كلها كنيسة..

فيها كنيسة القيامة ودير السلطان التابع للكنيسة القبطية المصرية والذى طردت السلطات الإسرائيلية منه رجال الدين المصريين، وأصدرت المحكمة الإسرائيلية العليا حكما نهائيا بإعادته إلى الكنيسة

المصرية ومازالت الحكومة الإسرائيلية ترفض تنفيذ الحكم القضائى رغم مرور سنوات ورغم أنه حكم نهائى. . !

وعشرات الكنائس والأديرة والمزارات يصعب حصرها وأماكن إرتبطت بحياة السيد المسيح عليه السلام، ودرب الآلام، وحديقة القبر المقدس، وكنيسة سيدتنا مريم والجمسانية والقديسة حنة. . و. . و. .

هل يجهل السادة أعضاء الكونجرس كل هذا؟

وإن كانوا يجهلون مكانة القدس عند العرب (المسلمين والمسيحيين على السواء) فكيف نستطيع أن نعلمهم بما هو معلوم. . ومكتبة الكونجرس مكتظة بالكتب والدراسات والوثائق وفى أمريكا عشرات المعاهد والمراكز المتخصصة فى دراسة الإسلام وتاريخه. . ؟

هل يمكن أن تقف أمريكا ـ فى آخر الزمان ـ ضد حقوق الإنسان إذا كان هذا الإنسان فلسطينيا عربيا. . ومع الإنسان اليهودى ولو كان مغتصباً للحقوق. . حتى ولو كانت هذه الحقوق مجرد إدعاءات وأباطيل. . ؟!

هل يمكن أن تقف أمريكا ـ بكل قوتها ـ ضد المنطق. . وضد القانون. . وضد التاريخ؟! هذا هو السؤال!

وإذا كانت قرارات الكونجرس هى قرارات الجاهلين المتسرعين ـ كما قيل لنا ـ أليس لنا الحق أن نطالب العقلاء والعالمين بأن يحددوا موقفهم ويصححوا ما أخطأ فيه الجاهلون.

وهل ندعو السادة الأعضاء إلى مشاهدة ما سجله التليفزيون الأمريكى فى لحظتين من لحظات التاريخ المعاصر كل منهما ملئ بالدلالات.. ليعرف من لايعرف منهم كيف تعتدى اسرائيل على حقوق الإنسان بأبشع صور الاعتداء.. فتنزع أجزاء جسم إنسان وهو حى.. وتهين الكهنة بصورة مشينة.. هل هذه هى حقوق الإنسان التى تتزعم أمريكا الدعوة إليها..؟

وهل هذه هى العدالة الأمريكية..؟

وهذه أيضا قضية أخرى!

القدس والمستقبل العربى

من حقنا أن نشعر بالقلق الشديد مما يجرى فى القدس وما يتعلق بها من إجراءات وقرارات سواء فى إسرائيل أو فى الولايات المتحدة فإن ما تشهده الساحة الآن بالذات. يزيد الريبة، ويضاعف الشكوك فى النوايا ويملى على العرب أن يفكروا الآن وبسرعة، وبإحساس بأن الخطر لم يعد خطرا محتملا ولكنه يتجسد الآن، ويوشك أن يصبح حقيقة واقعة، بعدها لن ينفع الندم.

فلقد أصدر مجلس النواب الأمريكى قرارا بإعتبار مدينة القدس العربية عاصمة لإسرائيل، وكنا نتصور أن صدور هذا القرار مستحيل فى ضوء ما نتمسك به دائما من الشرعية والقانون الدولى ومبادئ حقوق الإنسان، وكان فى تقديرنا أن مثل هذه الخطوة الأمريكية بعيدة عن التصور، لأنها ـ كما قال بيان صدر عن الحكومة المصرية ـ

تتناقض مع الخطوط الأساسية الرسمية لسياسة الولايات المتحدة فيما يتعلق بوضع مدينة القدس التى أكد جميع الرؤساء الأمريكيين بأنهم لن يسمحوا بالمساس به كما كنا نتصور أيضا أن ما لدينا من رصيد هائل من قرارات الأمم المتحدة يكفينا لنطمئن، فالقرارات وأهمها قرار مجلس الأمن الشهير ٢٤٢ تعتبر القدس جزءا لا يتجزأ من الأراضى العربية المحتلة، وما زلنا نتمسك بقوة بمبادئ الشرعية الدولية، ولكن إسرائيل لا تريد أن تفوت فرصة دون أن تعلن فيها عدم إحترامها لهذه المبادئ وتتخد من الإجراءات ما يعتبر تحديا حقيقيا لنا ولمجتمع الدول وللضمير الإنسانى. وأصبحنا الآن فى موقف ملئ بعلامات الإستفهام والتعجب.

لا أظن أن أحدا يستطيع أن يقلل من خطورة القرار الذى أصدره مجلس النواب الأمريكى بأن يقول لنا دعوا مجلس النواب فى واد فإن الإدارة الأمريكية التى مازال القرار فى يدها فى واد آخر، لأن موقف مجلس النواب مؤشر بالغ الأهمية لمدى التغير الذى يجرى داخل المؤسسات الأمريكية، بدليل أن مثل هذا القرار لم يكن من الممكن صدوره منذ سنوات، فماذا حدث حتى أصبح صدوره ممكنا، وماذا يمكن أن يترتب عليه ويتلوه، فى المستقبل.

يضاف إلى ذلك كله أن الجو الذى صدر فيه القرار يعطيه خطورة إضافية.

فقوات البوليس الإسرائيلية إعتدت بالضرب على بطريرك الأقباط

الأرثوذكس فى الجزء الشرقى من القدس. وقبلها إستولى اليهود على الدير التابع لكنيسته، ويتزامن مع ذلك إجراءات لتغيير ملامح المدينة الثقافية والديموجرافية وطابعها الدينى والتاريخى، قامت بها سلطات الإحتلال الإسرائيلى والمستوطنون اليهود و «جهات دولية أخرى» على حد تعبير الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات.

فإذا أدركنا مدى خطورة ما يجرى من إقامة مستوطنات جديدة فى الجزء الشرقى من المدينة، وتوطين إعداد كبيرة من اليهود السوفيت المهاجرين إلى إسرائيل فى هذا الجزء العربى فسوف نجد أمامنا تجسيدًا للخطر الماثل فى المستقبل القريب.

كل هذا يجرى وهناك قرار معروف جدا لمجلس الأمن برقم ٤٦٥ صدر فى أول مارس عام ١٩٨٠ بأن «جميع الإجراءات التى إتخذتها إسرائيل لتغيير الصفة المادية، أو التركيبة الديموجرافية، أو البنية، أو وضع المؤسسات فى الأراضى التى تم إحتلالها منذ عام ١٩٦٧، تلك الإجراءات تعتبر غير ذات قيمة قانونية» فكيف غاب هذا القرار وهو بكل هذا الوضوح والصراحة، عن مجلسى الكونجرس الأمريكى، وهل هناك علاقة ما بما سبق أن إقترحته الإدارة الأمريكية من حذف التعبير التقليدى «بما فى ذلك مدينة القدس» التى ترد فى كل قرار دولى فيه إشارة إلى الأراضى العربية المحتلة؟

يتوافق مع كل هذه الأحداث تقرير خطير نشرته صحيفة «ها آرتس» الإسرائيلية عن خطة أعدها عدد من العسكريين والسياسيين

الإسرائيليين لإقامة «القدس الكبرى» تتضمن إبتلاع القطاع العربى من المدينة وفرض الأمر الواقع على العرب وعلى العالم، وفى هذه الخطة وضعت حدود جديدة للمدينة، وضمت الأراضى التى يملكها العرب، وتتحدث الخطة عن حصار السكان الفلسطينيين فى أضيق نطاق ممكن، بحيث يستحيل عمليا إعادة تقسيم المدينة كما كانت قبل ٦٧ فى حالة التوصل إلى إتفاق للسلام.

على الجانب الآخر جاءت الرسالة الأخيرة التى بعث بها الرئيس حسنى مبارك إلى چورچ بوش حين كان رئيسا حول التطورات الأخيرة فى القدس وتأثيرها على الأوضاع فيها، وجاء البيان الرسمى للخارجية المصرية الذى أعربت فيه عن قلق مصر البالغ لهذه التطورات، وجاء أيضا حديث الملك حسين للتليفزيون الأمريكى الذى قال فيه للأمريكيين علانية وبصراحة: أن القدس جزء من الأراضى العربية المحتلة، وهى جوهر السلام ولا يجوز التعامل فى موضوعها كلعبة سياسية، إلى أن حذر الملك حسين فى حديثه المباشر من أن هناك يأسا يتنامى فى المنطقة، وإذا وصل اليأس إلى حد يسبب الإنفجار فقد يحدث شئ ما فى هذه المنطقة، وفى رسالة إلى جميع الأطراف قال: من جانبنا كعرب قمنا وقامت منظمة التحرير الفلسطينية بكل ما يمكن لتأكيد التزامنا بقضية السلام.

مع كل ذلك فإن إسرائيل تمضى فى تنفيذ «الخطة» بكل دقة، إلى حد مهاجمة قوات البوليس للطلبة الفلسطينيين فى مدارسهم وفتح

نيران الأسلحة وقنابل الغاز عليهم، وإعتقال أطفال فلسطينيين عمرهم أقل من العاشرة للضغط على أهلهم، وإغلاق المدارس وقبل ذلك أصدر الكنيست الإسرائيلى قرارا - بناء على اقتراح أحد نواب حزب العمل - برفض التفاوض أو التخلى عن القطاع الشرقى من القدس، ونص هذا القرار على أن ذلك «مستحيل» بإعتبار أن هذه الأراضى «جزء لا يتجزأ من إسرائيل»، ودعا القرار المهاجرين اليهود إلى الإقامة «فى كل مكان فى المدينة» ولو أضفنا هذا القرار إلى القانون الذى أصدره الكنيست فى عام ١٩٨٠ الذى يوسع سيادة إسرائيل على القدس الشرقية، فسوف ندرك إلى أين تتجه الأحداث، وماذا ستكون عليه صورة المستقبل القريب.

فى ذلك الوقت بدأ المجلس القومى للكنائس الأمريكية فى توزيع منشور بعنوان «صلاة من القدس» ينطوى على الحقيقة كما يمليها الضمير الإنسانى يقول المنشور: «أن الفلسطينيين العرب محرومون من مجرد الحق فى الحياة، وأن ذلك يعنى أن هدف إسرائيل هو التصفية الجسدية للجماعة الفلسطينية».

ولكن ماذا يمكن أن يفيد منشور، وبماذا تجدى الإبتهالات وحدها أمام الذين يستخدمون الرصاص والنار. وهل نسينا يوم ٢١ أغسطس ١٩٦٩ يوم نشب حريق المسجد الأقصى فى الصباح الباكر، وإرتفعت أعمدة الدخان مئات الأقدام فوق المدينة المقدسة لتعلن للعالم بالسنة النيران حقيقة نوايا إسرائيل، وإستمر الحريق أربع ساعات كاملة،

وإنهار جانب من سطح المسجد الأقصى، وتولى رجال الإطفاء الإسرائيليون بأنفسهم تحطيم نوافذ وأبواب المسجد بحجة إطفاء الحريق، وتركوا النار إلى إن إلتهمت الجناح الجنوبى الشرقى من المسجد. .؟ حتى مذكرات هرتزل الداعية الأول للصهيونية وواضع أسسها قال فيها: «عندما أتذكرك فى الأيام المقبلة يا أورشيلم، لن يكون ذلك بسرور. . أن الرواسب العفنة لألفى سنة من اللاإنسانية، وعدم التسامح، والقذارة، تقبع فى الأزقة ذات الرائحة الكريهة (يقصد رواسب المسيحية والإسلام معا) والرجل الوحيد الذى ظل موجودا فيك طوال ذلك الوقت، ذلك المحبوب الحالم الذى ولد فى الناصرة لم يساهم إلا فى تزايد البغضاء (يقصد السيد المسيح!) وإذا حصلنا يوما على القدس وكنت لا أزال قادرا على القيام بأى شئ. . سوف أزيل كل شئ ليس مقدسا (أى ليس يهوديا) وأحرق الآثار التى مرت عليها القرون (يقصد الآثار الإسلامية والمسيحية) وأنقل الأسواق إلى مكان آخر (حتى لا يتردد العرب فى هذه المنطقة!).

هذه هى كلمات تيودور هرتزل نبى الصهيونية وصاحب الحلم الصهيونى الذى كانت كلماته صانعة الحلم اليهودى كله.

وقد شرحت دائرة المعارف اليهودية (جويش انسيكلوبيديا) معنى الصهيونية فقالت: «إن اليهود يبغون أن يجمعوا أمرهم، وأن يأتوا للقدس، ويتغلبوا على قوة الأعداء، وأن يعيدوا العبادة إلى الهيكل مكان المسجد الأقصى. . بل أن دائرة المعارف البريطانية ذاتها

(اسيكلوبيديا بريتكانيكا) أشارت فى معنى الصهيونية فى طبعتها لعام ١٩٢٦ (مجلد ٢٧ و ٢٨ ص ٩٨٦ ـ ٩٨٧ : «أن اليهود يتطلعون إلى إسترجاع فلسطين، وإجتماع الشعب وإستعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء الهيكل، وإقامة عرش داود فى القدس ثانية وعليه أمير من نسل داود» (!).

ليست المسألةإذن قرارا يصدره الكونجرس الأمريكى، أو قانون يصدره الكنيست الإسرائيلى، ولكن المسألة أن ثمة مؤامرة متكاملة قديمة جدا لهدم المسجد الأقصى.. لتحقيق الحلم الصهيونى ببناء هيكل سليمان مكانه، بعد أن تكون القدس عاصمة موحدة لإسرائيل، ومن أجل ذلك نلمس بإصرار الرفض الإسرائيلى لقرارات الأمم المتحدة ولمواقف الرؤساء الأمريكيين.

ما العمل..؟

هناك لجنة عليا برياسة ملك المغرب لإنقاذ القدس.

مصر تكشف المخطط الإسرائيلى دوليا وكيف أن إسرائيل تنتهك إتفاقية جنيف التى تمنع نقل المواطنين بقوة سلطات الإحتلال إلى خارج وطنهم وتوطين مهاجرين آخرين فى أراضيهم، وتبين للعالم أن تصرفات إسرائيل تثير الشك فى نواياها وتؤثر سلبا فى بناء الثقة بين الطرفين الإسرائيلى والفلسطينى مما يعوق عملية السلام.

المغرب إقترحت تشكيل لجان بإسم لجان القدس تتوجه إلى دول

العالم لتوضيح موقف الدول الإسلامية من قضية القدس والمحاولات الجارية لتثبيت سيطرة إسرائيل عليها.

ومنظمة التحرير الفلسطينية تجرى إتصالات لعقد إجتماع دولى إسلامى مسيحى لوضع حد للممارسات العنصرية الإرهابية الإسرائيلية..

ومنظمة المؤتمر الإسلامى شجبت الأعمال

أما أمريكا فقد جاءنا منها ثلاثة أصوات فى وقت واحد: الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت چورچ بوش يستنكر ما تفعله إسرائيل.. والكونجرس - بمجلسيه - يؤيد إسرائيل.. والكنائس الأمريكية تقدم صلاة من أجل القدس.. ولا نعرف بالضبط أى هذه الخطوط الثلاثة ستكون لها الغلبة غدا..

ولابد أن يتفق قادة العرب والمسلمين على عمل شئ ما لينقذوا القدس.

جريمة مستمرة..!

أصدرت المحكمة العليا الإسرائيلية فى يوم ٢٣سبتمبر١٩٩٣ قراراً بإعتبار موقع الحرم القدسى الشريف جزءاً من أرض إسرائيل، وإخضاع جميع الإجراءات التى تتعلق بترميمه وصيانته لقانون التخطيط والآثار الإسرائيلى.. وجاء القرار فى وقت يزداد فيه الحديث المتفائل عن الإنفراج العربى الإسرائيلى وبدء عصر جديد من السلام بعد توقيع إتفاق إعلان المبادئ الفلسطينى الإسرائيلى، وزيارة رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى للمغرب ولقائه مع العاهل المغربى الملك محمد الخامس، ولقاء وزير الخارجية الإسرائيلى شيمون بيريز لكل من ولى عهد الأردن ـ الأمير الحسن ـ ووزير خارجية دولة قطر، وشهادة وزير الخارجية الأمريكى وارين كريستوفر فى يوم ٤ نوفمبر١٩٩٣ أمام الكونجرس والتى كشف فيها أن بعض الدول

العربية أوقفت مقاطعتها لإسرائيل «بالممارسة وليس بالبيانات الرسمية، وأن إجتماعات مكتب المقاطعة العربية لإسرائيل تأجلت وكان مقررا عقدها فى دمشق أواخر أكتوبر وعلق على هذا التأجيل بأنه «تطور مثير للإهتمام» لأن التأجيل - كما قال - بسبب رفض بعض الدول العربية المشاركة فيه.

أى أنه فى الوقت الذى بدأ العالم العربى يتهيأ لتصديق ما يقال عن أن عصرا جديدا من العدالة والسلام يوشك أن يشرق فى المنطقة، ويمهد لقيام السوق الشرق أوسطية التى هى فى حقيقتها إدماج إسرائيل إقتصاديا وسياسيا فى المنطقة مع الدول العربية دون تصفية حقيقية وجذرية لحساسيات وآلام ومظالم الماضى..

وفى هذا الوقت الذى تطالب فيه الولايات المتحدة الدول العربية بالمسارعة ببناء جسور الثقة بينها وبين إسرائيل جاء القرار ليعطى الشرعية لسلطات الإحتلال الإسرائيلى للتدخل الفعلى والمباشر فى شئون المسجد الأقصى وعمليات ترميمه وإعماره. والحقيقة أن سلطات الإحتلال لم تكن فى حاجة إلى هذا القرار لأنها كانت تفعل ذلك منذ سنوات طويلة وتتحدى الشرعية بكل أنواعها، بل إنها هى التى خططت وأشرفت على تدمير المسجد الأقصى وفقا لسياسة «الخطوة - خطوة»، وهى التى أفسحت المجال أمام الفئات اليهودية المتطرفة للتواجد فى ساحات المسجد الأقصى وإقامة شعائرها الدينية اليهودية فيها، وأدخلت المسلمين فى المدينة المقدسة (القدس) وفى

العالم فى صراعات مادية ومعنوية . . ولقضية إنتهاك حرمة المسجد الأقصى الشريف ملف ضخم عمره سنوت طويلة جدا يضم تاريخا طويلا من العدوان الصارخ.

إن جريمة العدوان الإسرائيلي على المسجد الأقصى مستمرة، لم تبدأ مع إحتلال القدس عام ١٩٦٧، ولكنها بدأت قبلها بكثير، ولم تنته بمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٧ ولا بإتفاق المبادئ الفلسطيني الإسرائيلي عام ٩٩٣، فالمخطط لهدم المسجد الأقصى الشريف، ماض فى طريقه لا يعبأ بإتفاقات سلام، ولا بالقانون الدولى، ولا بالأمم المتحدة ومجلس الأمن وقراراتهما، ولا بالضمير العالمى، ولابمنظمات حقوق الإنسان التى تفضح الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان فى كل مكان فى العالم فيما عدا اسرائيل رغم أنها أكبر دولة تمارس العدوان بأبشع صورة على كل حقوق الإنسان.

يلفت النظر خبر صغير نشرته بعض الصحف يوم ٥ نوفمبر عام ١٩٩٠ قالت فيه أن مجلس الوزراء الإسرائيلى قرر فى إجتماعه الأسبوعى تشكيل لجنة وزارية خاصة لشئون الحرم القدسى الشريف يرأسها رئيس الوزراء فى ذلك الوقت (اسحق شامير) وتضم وزراء الداخلية والعدل والشئون الدينية. ولم يعلن شئ عن إختصاصات وأهداف هذه اللجنة. . هل هى تعبير عن إهتمام الحكومة الإسرائيلية برعاية المقدسات الإسلامية، ومراعاة مشاعر ألف وأربعمائة مليون مسلم فى إنحاء العالم. . وبالتالى فإن اللجنة ستكون مهمتها إعمار

المسجد الأقصى وحمايته وترميمه وإصلاح التلف والدمار الذى أصابه نتيجة الحريق الذى إضرم فيه عمدا عام ١٩٧٦، ثم ما أضيف إليه من تصدع يهدده بالخطر نتيجة الحفائر التى تقوم بها سلطات الإحتلال الإسرائيلى..؟ أم أن مهمة هذه اللجنة السياسية العليا الإشراف على وضع مخطط تدمير المسجد الأقصى موضع التنفيذ بإشراف أعلى مستويات السلطة..؟

مثل هذا التساؤل تجيب عليه الأحداث أكثر مما تجيب عليه تصريحات السياسيين. فقبل هذا القرار مباشرة كانت مدينة القدس تغلى، ومشاعر المسلمين فى العالم فى حالة فوران لأن جماعة يهودية متطرفة تطلق على نفسها إسم «أمناء جبل الهيكل» قد أعلنت أنها سوف تنفذ مشروع إعادة بناء هيكل سليمان المزعوم على أنقاض الحرم القدسى. وهذه الجماعة تحظى بدعم خاص من حزب الليكود الذى كان حاكما وقتها، ويتزعمها (جرشون سلمون) وهو معروف بأنه ليس متدينا، وسبق له أن تولى عدة مناصب فى حزب «حيروت» كما أنه كان أحد مؤسسى حزب «هتحيا» وهو حزب متطرف، وتحرك على رأس جماعته يوم ٨ أكتوبر ١٩٩٠ بتجهيز لإقتحام المسجد الأقصى، وعندما تصدى لهم المصلون تدخلت قوات الإحتلال الإسرائيلى وإقتحمت المسجد وأطلقت النار والقنابل المسيلة للدموع وقتلت ٢٢ من المصلين فى ساحة المسجد.

ولم تستطع إسرائيل أن تضلل العالم كما إعتادت، وكما برعت،

فى إستخدام الإعلام القوى المنحاز لها والجاهز دائما للدفاع عن كل ما ترتكبه، فقد عرض الموضوع على مجلس الأمن، وكانت مفاجأة غير متوقعة أن طلب مندوب فلسطين من رئيس المجلس السماح بعرض فيلم فيديو إلتقطه سائح غربى تصادف وجوده فى فندق مجاور للحرم، ولأول مرة فى تاريخ مجلس الأمن جلس مندوبو الدول صامتين يتابعون أحداث ما أسمته الصحف الأمريكية ذاتها «المجزرة» فى داخل المسجد. وكان مندوب إسرائيل قد إدعى فى كلمته أن القوات الإسرائيلية كانت تدافع عن نفسها لأن مؤذن المسجد كان يصيح فى الميكروفون عقب الآذان يدعو المصلين إلى «الجهاد» ضد اليهود خارج المسجد.. وهذا ما دفع قوات الإحتلال إلى إطلاق النار عندما تحرك المصلون للإعتداء على أفراد القوات الإسرائيلية، لكن وقائع الفيلم كانت تكذب ذلك كله بالصوت والصورة، فقد ظهر المصلون وهم يتفرقون بسرعة بغير نظام، وطلقات الرصاص الإسرائيلية تطاردهم، وصوت المؤذن يدعو إلى الصلاة ثم يوجه صرخاته إلى الجنود الإسرائيليين قائلا: «إننا لم نهاجم أحدا.. أنتم الذين بدأتم الهجوم.. لقد إستخدمتم الغاز المسيل للدموع والرصاص.. وحتى لو ذبحتمونا جميعا فإن المسلمين لن يغادروا المسجد..»

وأصدر مجلس الأمن ـ كالعادة ـ قرارا بإدانة إسرائيل يضاف إلى ركام القرارات المماثلة التى لا يعرف أحد ما قيمتها، وماذا تجدى والدماء العربية تسيل بالرصاص الإسرائيلى، والمسجد الأقصى تزداد

حالته سوءا نتيجة التدمير المتعمد. وربما لم يكن فى القرار ما يلفت النظر إلا أن الولايات المتحدة ـ لأول مرة ـ اعطت صوتها لقرار الإدانة، ولم تستخدم «الفيتو» كالعادة، ولم تمتنع عن التصويت، ربما لأن ذلك كان سيجعل موقفها فى تحدى الرأى العام الدولى والإسلامى أكثر مما ينبغى.

قبل هذه «المجزرة» نظمت جماعة «جوش أمونيم» مسيرة لإقتحام المسجد الأقصى شارك فيها آلاف من اليهود، وكان ذلك يوم ٢٨ ابريل عام ١٩٨٩. وهذه الجماعة المتطرفه مشهورة بإرتكاب جرائم يومية ضد العرب والمسلمين وممتلكاتهم وضد المسجد الأقصى بصفة خاصة، وكانت المناسبة فى ذلك اليوم هى ما يسمونه «يوم القدس». وكان الهدف المعلن تنفيذ شعارهم بأن تكون السيادة اليهودية كاملة على الحرم القدسى (الهيكل) وتحويله إلى معبد يقيم فيه اليهود شعائرهم الدينية. وفى هذا اليوم أطلق مفتى القدس ـ الشيخ سعد الدين العلمى ـ نداء من فوق المنابر والمآذن فى المدينة المقدسة يدعو المسلمين فى المدينة، وفى العالم، للدفاع عن الحرم، فاندفع آلاف من أبناء القدس إلى المسجد، وافترشوا ساحاته، وأغلقوا الطرق المؤدية إليه، وحدث تصادم، ولم تحقق جيوش أمونيم هدفها، لكنها لم تتوقف أبدا عن نشاطها المتطرف، ولم تكن وحدها، ولكن كانت هناك دائما منظمات عديدة تفوق الحصر تعمل فى نفس الإتجاه، منها ـ على سبيل المثال ـ منظمة تسمى (تى. إن. تى) يدعمها الحاخام الإسرائيلى مردخاى الياهو، بعد أن أعلن أنه يطالب الحكومة

الإسرائيلية رسميا ببناء هيكل سليمان فى ساحة المسجد الأقصى دون إبطاء بما تدعيه من إنتظار «الظروف المواتية».

لن نستطيع أن نقدم السجل كاملا، فالإعتداءات اليهودية على المسجد الأقصى لا حصر لها، وبعض نماذج منها تكفى.

- فى عام ١٩٧٦ حاول ٤٠ يهوديا إقتحام الحرم القدسى الشريف وأداء صلاتهم داخله.

- فى ٢٧ يناير عام ١٩٧٧ هاجمت مجموعة يهودية المسجد الأقصى وكانت مسلحة بكميات غير عادية من المتفجرات والقنابل التى يستخدمها الجيش الإسرائيلى، وقالت صحيفة «ها ارتس» الإسرائيلية أن هذه المجموعة كان معها ١٠ كيلو جرامات من أشد المواد المتفجرة و ١٨ قنبلة، وكلها من النوع الذى يستخدمه الجيش الإسرائيلى، ونشرت الصحف عن مصادر إسرائيلية إعترافها بأن هناك عناصر من الجيش إشتركت مباشرة فى تنفيذ هذه العملية وإن هدفها كان تفجير المسجد الأقصى ليكون أمرا واقعا أمام المسلمين فى كل مكان. وسبق الهجوم بيان أذاعته «تى. إن. تى» قالت فيه إن هدفها هو المسجد الأقصى، وأعلن الحاخام مردخاى الياهو عن إرتباطه بهذه المنظمة وقال للصحف والإذاعة الإسرائيلية أنه يطالب الحكومة ببناء معبد يهودى فى ساحة المسجد الأقصى.

- فى عام ١٩٨٠ وضع الإرهابى الحاخام مائير كاهانا أكثر من طن

متفجرات داخل المسجد، وقدم إلى محكمة إسرائيلية حكمت عليه هو ومساعده باروخ جرين بالحبس ستة أشهر.

ـ وفى عام ١٩٨٣ (فى يوم ١٠ مارس) قامت مجموعة مكونة من ٤٥ يهوديا بينهم عشرة من جنود جيش الدفاع الإسرائيلى بإقتحام المسجد الأقصى من خلال ثغرة نشأت نتيجة للحفريات التى تجريها السلطات الإسرائيلية تحت أساسات المسجد، وكانت المجموعة مسلحة بكميات كبيرة من المتفجرات، ومعها آلات الحفر. وكان على رأسها الحاخام مائير كاهانا، ومعه سارائيل ارائيل رئيس مجلس المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية، وكانوا من ثلاث منظمات إرهابية: جوش أمونيم، وكاخ، وأمناء جبل البيت.

ـ وفى الثانى من ابريل من نفس العام تجمع المتطرفون اليهود أمام باب المغاربة لإقتحام المسجد الأقصى وإقامة شعائرهم فيه، وتحرشوا بالمصلين وإعتدوا عليهم، ونقلت وكالات الأنباء صورا لهذا الحادث تهز الضمائر.

ـ وفى الحادى عشر من مايو من نفس العام قامت مجموعة من اليهود بإقتحام المسجد وحاولوا أداء الصلوات اليهودية فى «الهيكل» داخل الحرم القدسى.

ـ وفى عام ١٩٨٦ قامت مجموعة من أعضاء لجنة الشئون الداخلية بالكنيست (البرلمان) الإسرائيلى وهم قيادات سياسية منتخبة

تمثل كل الإتجاهات والأحزاب . . بإقتحام المسجد الأقصى، والعبث بمحتوياته، وعندما تصدى لهم المصلون اضطروا لمغادرة الحرم.

ـ وفى نفس العام إقتحم ثلاثون يهوديا ينتمون لحركة جوش أمونيم المسجد الأقصى بعد أن أقاموا إحتفالا دينيا بجوار حائط المبكى . .

وقائع كثيرة سجلتها الصحف فى كل أنحاء العالم، بما فيها الصحف الإسرائيلية، بل إن الصحف الإسرائيلية أفاضت فى النشر ربما لكى تحرض اليهود على الإستمرار والتصعيد. بل إن صحيفة (ها آرتس) الإسرائيلية هى التى نشرت قائمة ببعض المنظمات شديدة التطرف التى تهدف إلى تدمير المسجد الأقصى، وفى هذه القائمة:

١ ـ جماعة «أمناء جبل البيت» يتزعمها جرشون سلومون وهو من أشد المتطرفين، وهدفها المعلن السيطرة على المسجد الأقصى بالقوة.

٢ ـ «رابطة جبل البيت» يتجمع أعضاؤها فى جماعات تقتحم المسجد الأقصى ليقوموا بجولات فى ساحة الحرم القدسى لتحدى مشاعر المسلمين واستفزازهم مرددين صلوات وأدعية وآيات من التوراه.

٣ ـ «الرابطة إلى جبل البيت» تقول صحيفة ها آرتس أنها تأسست عام ١٩٧١ وتضم أنشط العناصر بين رجال الدين من المدارس الدينية مثل (حركة زهراب) و «(عطرات كعهنيم) ومدرسة (بنى عكيفا) و (دوريات صهيون) وغيرها.

٤ ـ حركة «نظرية جبل البيت» تعمل وفق فكر دينى متزمت ومفاهيم يهودية متطرفة، وتنظم هجوما على المسجد الأقصى من حين لآخر.

٥ ـ «هيئة العمل من أجل البيت» تسعى إلى توحيد المنظمات العاملة فى موضوع إقامة «البيت» أى هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى.

٦ ـ «معهد المقدسات» وهو معهد لإعداد أجيال من المتطرفين الدينيين اليهود يرأسه الحاخام أرينا ومعه الحاخام موشيه نيمان الرجل الثانى فى حركة «كاخ» التى أنشأها الحاخام مائير ماكاهانا، الذى لقى مصرعه فى حادث إغتيال فى نيويورك.

ونشاط هذا المعهد يشمل إجراء البحوث ونشر الأفكار والدراسات الدينية والأكاديمية لكل ما يتعلق «بالهيكل» وتقديم المبررات العلمية التاريخية على إزالة المسجد الأقصى وبقية مساجد القدس.

٧ ـ «عطرات كوهنيم» ـ مدرسة دينية لإعداد رجال الدين أسسها الحاخام شلومو ابنيار ويعمل خريجوها فى مجال الإستيلاء على الأراضى والبيوت العربية فى القدس القديمة.

٨ ـ «كوليك هكوهنيم لدراسة المقدسات» أسسها الحاخام رسويسكى ويرتدى أتباع هذه الحركة القبعات الطويلة جدا ولا يطيقون رؤية إنسان أو مكان ينتمى إلى الإسلام.

٩ ـ «الحركة من أجل إقامة الهيكل» هدفها نشر الفكر المتعلق بأمن إسرائيل وفقا لنظريتهم بالإستيلاء على الأراضى وقتل وتدمير أصحاب الأرض العرب ثم إقامة «الهيكل».

١٠ ـ «دوريات جبل البيت» وهى حركة يقوم أعضاؤها بالتحرش بالمصلين فى المسجد الأقصى بقيامهم بجولات منتظمة فى داخله يصحبون معهم فيها السياح اليهود الذين يزورون القدس.

ليس هذا حصرا كاملا للمنظمات والهيئات التى تسعى إلى هدم المسجد الأقصى، ولكنها نماذج، وهناك أعداد كبيرة من كبار رجال الدين اليهودى تعمل مستقلة خارج إطار هذه المنظمات مثل الحاخام جورن، والحاخام الياهو ليثور، وغيرهما، وكل منهم له أتباع يأتمرون بأمره، ومن الممكن أن نلمس خيوطا غير مرئية تربط بين هذه المنظمات المختلفة فيما بينها فى الظاهر، ونشعر بأن ثمة ما يربطها بالحكومة الإسرائيلية، وقد نفهم الحكمة فى تشكيل اللجنة الوزارية الإسرائيلية لشئون المسجد الأقصى فى عام ١٩٩٠ إذا وضعنا ذلك فى إعتبارنا، كما يمكن إدراك شبكة أخرى من الخيوط تربط بين هذه المنظمات التى تعمل داخل إسرائيل وجهات يهودية وغير يهودية خارج إسرائيل، وكلها تسعى إلى تحقيق الحلم الكاذب بإعتبار «جبل البيت» أى المسجد الأقصى الشريف هو المكان الدينى والروحى والمركز لشعب إسرائيل وأرضها. وتسعى لذلك إلى بناء «جبل البيت» بإقامة هيكل سليمان من جديد على أنقاض المسجد الأقصى، لكى

تتحقق النبوءة ويعود «شعب إسرائيل» إلى الهيكل المقدس.. والنبوءة تقول أن من يحكم «جبل البيت» يحكم القدس، ومن يحكم القدس يحكم «أرض إسرائيل» ومن يحكم أرض إسرائيل يحكم العالم (!).

كانت مجزرة ١٩٩٠ إذن حلقة فى المسلسل الدامى، سبقتها وأعقبتها حلقات لا تقل عنها بشاعة، وإن كنا نعطى لهذا الحادث أهمية فلأننا نراه أولا «تجسيدا» للفكرة الإسرائيلية، وللمأساة التى يعيشها المسلمون لا أكثر، ولأن تأثيره - ثانيا - كان بالغا فى العالم الإسلامى وتجاوبت معه دول الغرب الكبرى، حتى الولايات المتحدة، ولأن إسرائيل - أخيرا - لم تستطع أن تضلل أو تبرر أو تخفى حقيقة ما حدث وجثث ٢٢ مسلما ملقاة فى ساحة المسجد نقلتها وكالات الأنباء، ونشرتها صحافة العالم، والفيلم التلفزيونى سجل الأحداث حية متحركة لحظة بلحظة وعرض فى إجتماع لمجلس الأمن.

لكن القصة بدأت قبل ذلك بكثير. حتى من قبل إنشاء إسرائيل. فعندما عقد المؤتمر الصهيونى العالمى الشهير فى بال بسويسرا عام ١٨٩٧ برئاسة هرتزل - الأب الروحى لإسرائيل - ووضعت فيه مخططات إنشاء الدولة اليهودية قال هرتزل: «إذا حصلنا على القدس، وكنت حيا، فسوف أحرق الآثار التى مرت عليها قرون وأزيل كل ما ليس مقدسا فيها (يقصد كل ما ليس يهوديا!).

بعد ذلك بسنوات قال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى فى حديث لصحيفة دافار الإسرائيلية بتاريخ ١٩٧١/٨/٢ «يجب العمل

على كشف وإعادة ترميم كل ما يتعلق بالهيكل. وأفضل أن أرى السور كما كان فى عهد الهيكل، ويمكن تصوير الآثار الأخرى وإزالتها لأنها تمنع عنا رؤية الصورة كاملة كما كانت..».

وقبل ديان قال بن جوريون مؤسس إسرائيل: «لا معنى لإسرائيل بدون القدس، ولا معنى للقدس بدون «الهيكل».

وفى ضوء هذا «التصميم» نفهم ما حدث وما يحدث.!

ولقد بدأت السلطات الإسرائيلية الحفريات عقب إحتلال القدس عام ١٩٦٧. وشملت الجهة الجنوبية الملاصقة لحائط المسجد الأقصى، وحائط ومبانى جامع النساء والمتحف الإسلامى والمئذنة، وإمتدت حتى وصلت إلى الزاوية الجنوبية الغربية من حائط الحرم الشريف، وبلغت بعض الحفريات عمق ١٤ مترا وأثرت على هذه المبانى وتهددها بالإنهيار.. ثم وصلت الحفريات إلى أسفل أبواب الحرم القدسى من الجهة الغربية وتحت مركز الإمام الشافعى ومسجده وحفروا تحت ١٤ عقارا من الأوقاف الإسلامية حتى تصدعت وجرفتها الجرافات الإسرائيلية يوم ١٤ يونيو ١٩٦٩.. وإنتقلوا إلى الحفر أسفل المحكمة الشرعية القديمة وتعتبر من أقدم الآثار الإسلامية فى القدس، ثم أسفل خمسة أبواب فى المنطقة الشمالية من المسجد الشريف وهى: الباب الرئيسى للحرم (باب السلسلة) وباب المطهرة، وباب القطانية، وباب الحديد، وباب الحبس ويسمى أيضا باب علاء الدين البصرى أو باب المجلس الإسلامى الأعلى،

وإمتد الحفر بعد ذلك إلى أربعة مساجد ومئذنة قايتباى وسوق القطاينة وهو أقدم وأكبر سوق أثرى إسلامى فى القدس، وعددا من المدارس الأثرية. .

ونتيجة لكل هذه الحفريات المستمرة أصبح المسجد الأقصى فى خطر.

وهذا ما يفسر التوتر الشديد الذى عاشته المدينة بعد أن وصل استفزاز المسلمين أقصى درجة. . صدور المسلمين تحمى المسجد الأقصى، ورصاص القوات الإسرائيلية ينطلق فى الصدور دون تمييز. . ويسقط الشهداء، وتنقل وكالات الأنباء صورا معبرة. . بعض الشهداء استطاعوا قبل أن يلقوا ربهم أن يغمسوا أيديهم فى دمائهم التى تنزف ويطبعوا بصماتها على جدران المسجد الأقصى رمزا لتضحياتهم. وليذكروا إخوانهم بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. وقد نشرت الصحف الأمريكية صور بصمات الأكف بالدم.

والأمور تزداد خطورة مع الأيام. . ففى ١١ مارس ١٩٩٢ حذرت الهيئة الإسلامية العليا وهيئة الأوقاف الإسلامية بمدينة القدس المحتلة من خطورة ما تقوم به سلطات الإحتلال الإسرائيلى من شق نفق فى الركن الشمالى الغربى للحرم القدسى الشريف يؤدى إلى حائط البراق الذى يطلق عليه اليهود حائط المبكى، وذكر بيان كل من الهيئتين أن هذا النفق يهدد جدران الركن الشمالى الغربى من الحرم، وإلى تصدعات خطيرة للمبانى الإسلامية الأثرية المجاورة. . وفى ١٣

مارس قررت الهيئتان اللجوء إلى محكمة العدل الدولية فى لاهاى ضد الإعتداء المتواصل على المسجد الأقصى وإستمرار الحفر تحت جدرانه مما أدى إلى تهديدها بالإنهيار. . وقد وصل عمق بعضر الحفريات إلى ٢٥ مترا داخل المسجد! (ولا ننسى طبعا جريمة إحراق المسجد الأقصى فى ٢١ أغسطس ١٩٦٩).

ووجهت منظمة اليونسكو نداء إلى العالم لإنقاذ قبة الصخرة بعد أن أصبحت مهددة، وهو ليس النداء الأول وقد لا يكون الأخير! وأصدر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بيانا بتحمل المملكة السعودية نفقات ترميمها، وقبة الصخرة أقيمت فى وسط الحرم الشريف عند الموضع الذى وقف فيه إبراهيم الخليل ليضحى بإبنه إسماعيل عليهما السلام، وقام ببنائها الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م)، وهى أقدم وأعظم الآثار الإسلامية فى القدس، والمشهد المهيب للمسجد الأقصى تزينه أربع قباب: قبة السلسلة، وقبة المعراج، وقبة النبى، وفى الوسط قبة الصخرة التى ليس لها مثيل فى جمالها وجلالها.

هل نحتاج إلى القول بأن المسجد الأقصى من أعظم المقدسات الإسلامية، وأنه أولى القبلتين، وثالث الحرمين التى تشد إليها الرحال. وتهفو إليها قلوب ألف وأربعمائة مليون مسلم فى العالم، حيث تجسدت فيه رحلة المعراج، نقطة إرتباط السماء بالأرض. . وحيث صلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصلى خلفه الأنبياء،

وخلد الله سبحانه وتعالى هذا الموضع من الأرض، وبارك حوله فى محكم آياته «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله. .»

وهل نحتاج إلى القول بأن قضية القدس هى قضية سياسية، ولكنها قبل ذلك قضية دينية وروحية، ولذلك فهى قضية لايستطيع فرد أو حكومة أو دولة أن تتصرف فيها بالبيع أو بأى صورة أخرى من صور التصرف لأن مثل هذا التصرف سيكون باطلاً، ومنعدماً، ولايلزم الأجيال القادمة. ولا هى مسألة مما يجوز فيها التنازل أو الحلول الوسط أو التسويات. . أما المسجد الأقصى فهو فوق كل الساسة، وكل السياسة، ليس فقط لأنه تاريخ وكرامة الإسلام والمسلمين فى العالم كله، بل لأنه بالإضافة إلى ذلك كله مكان تبلغ قداسته إلى درجة أن ترخص أمامه أرواح ألف وأربعمائة مليون مسلم.

وتخطئ إسرائيل خطأ سوف تندم عليه ولو بعد عمر طويل إذا حكمت على المسلمين بحاضرهم، ولم تعمل حساب مستقبلهم. . فقد يكون المسلمون فى حاضرهم فى موقع ضعف، وتحت ضغوط أمريكية، ومضطرين لقبول الظلم على مضض، ولكن سوف تأتى قطعا أجيال رضعت مرارة الظلم والهزيمة، لتبيع أرواحها من أجل إستعادة الحق. .

واذكروا فى التاريخ صلاح الدين.

واعلموا أن أمثاله فى رحم الغيب سوف يأتون.

وتعلموا أن مقدسات المسلمين ليست للبيع مهما يكن الثمن..

وهل يحتاج ذلك إلى كلام..؟

دير السلطان .. جزء من تاريخنا

مع أن إسرائيل تروج فكرة أنها عليمة بكل ما فى أعماق المجتمع العربى، إلا أن سلوكها يكشف عن عكس ذلك فى كثير من الأحيان. يبدو ذلك فى مثالين غاية فى الحساسية ومع ذلك فهى لا تدل بأعمالها على أنها تدرك ذلك، وأقصد المسجد الأقصى، ودير السلطان.

فإسرائيل تسمح بالحفر تحت أساس المسجد الأقصى تحت دعاوى البحث عن هيكل سليمان القديم والإدعاء بأن المسجد الأقصى أقيم فوقه (!) وتمهد بذلك لهدمه إن أمكن إن لم يكن اليوم فغدا، وهى فى ذلك تستهين بمكانة المسجد الأقصى فى نفوس المسلمين عامة والمصريين بصفة خاصة. ولا تدرك آثار ما تفعل على المدى الطويل مهما طال الزمان.

أما دير السلطان فله قصة تفيد فى معرفة كيفية إعتداء إسرائيل

على التاريخ وإساءتها إلى أماكن لها منزلة خاصة فى الوجدان المصرى، وتدل بما فعلته على أنها لا تعرف حقيقة قديمة جدا ومستقرة وهى أن المصريين مسلمين وأقباط، ولذلك فإن الأقباط فى مصر تهتز ضمائرهم لما يحدث من تخريب وهدم لبعض جدران المسجد الأقصى، والمسلمون منهم ينفعلون ويتفاعلون مع إخوانهم الأقباط بالنسبة لقضية دير السلطان.

وبداية القضية ـ كى تكون مفهومة ـ أن دير السلطان هو أحد الأديرة القبطية الهامة بالقدس، يقع بين بطريركيه الأقباط وكنيسة القيامة، وهو متصل بكل منهما، وتبلغ مساحته ١٨٠٠ متر مربع، ويضم كنيستين قبطيتين أثريتين، وبالدير بعض الغرف يستضيف فيها الأقباط بعض الرهبان الأحباش، كما يقيم فى أحداها أحد الرهبان الأقباط هو رئيس هذا الدير، وفيه أيضا غرفتين يستعملهما الضيوف من الرهبان الأحباش كنيسة يقيمون فيهما شعائرهم الدينية.

المهم فى الموضوع أن دير السلطان دير مصرى، منذ القدم، وكان بعض رسل وعمال السلطان بمصر حين يمرون بالقدس، يقيمون فيه، ويسجل تاريخ الدير من هؤلاء: ابا اليمن قزمان بين مينا الذى كان ناظرا لكافور الأخشيدى فى مصر سنة ٩٦٥ م، ومنصور التلبانى الذى كان عامل القدس من قبل الغز (الأتراك السلاجقة) ولعل توافد رسل وعمال سلطان مصر على هذا الدير هو السبب فى تسمية الدير «دير السلطان» وهى تسمية إسلامية الصبغة ـ كما جاء فى دراسة الدكتور الأنبا باسيليوس مطران القدس (الذى عينه البابا شنوده

بطريرك الأقباط الكاثوليك فى مصر) لأن المألوف تسمية الأديرة بأسماء القديسين، أو برسم البلد أو المكان الذى أقيم فيه، ولعل التسمية ترجع أيضا إلى إعادة هذا الدير إلى الأقباط عن طريق السلاطين الأيوبيين، بعد أن إغتصبه الصليبيون (!).

وهذه الحقيقة التاريخية تلفت النظر، أن الأوروبيين المسيحيين الذين جاءوا لغزو المنطقة رافعين علم الصليب إغتصبوا الدير القبطى، وأن السلاطين الأيوبيين المسلمين هم الذين أعادوها إلى أصحابه الأقباط. ومعروف أن الصليبيين عندما دخلوا القدس عام ١٠٩٩م أبعدوا بعض رجال الكنائس الشرقية، ومنهم الأقباط، وإستولوا على كثير من مقدساتهم، ولما إنتصر صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين، وإستعاد بيت المقدس، كان الأقباط المصريين ضمن حملته، وكانوا مخلصين لوطنهم فى أداء واجباتهم، فرد إليهم الأملاك، والكنائس، والأديرة التى إغتبت منهم.

ودير السلطان ـ فى كل المراجع التى أشارت إليه دير قبطى، يخص الأقباط المصريين، ولا علاقة لرهبان الحبشة به، وكل ما يربطهم به أنهم أقاموا فيه ضيوفا عندما أغلقت أمامهم السبل. . فقد كان لهم دير، هو دير «مار إبراهيم» وبعض الأماكن الأخرى فى القدس، ولكنهم فقدوا هذه الأماكن سنة ١٦٥٤ م عندما عجزوا عن دفع الضرائب المفروضة عليهم، وقد أثبت ذلك «ريتشموند» مدير دائرة الآثار الفلسطينية سنة ١٩٣٥ م فى المقدمة التى وضعها لكتاب المؤرخ هارفى عن ترميم كنيسة القيامة.

وتدل الوثائق المحفوظة فى بطريركية القدس أن الأقباط المصريين كانوا يهتمون بتعمير دير السلطان فى كل العصور ومنها حجة إثبات الترميم للأقباط المصريين الصادرة من محكمة القدس فى ٢٢ أغسطس ١٦٨٦ م وفيها يسمى الدير «دير طائفة نصارى القبط بمحمية القدس الشريف المعروف قديما بدير السلطان، وكشف صادر من القاضى الشرعى فى ١٠ ديسمبر عام ١٨٢م (٤ ربيع الأول ١٢٣٦هـ) موضحا فيه الأماكن اللازم ترميمها ومراسيم أخرى كثيرة فيها ترخيص بالإصلاح والترميم ومذكور فيها ملكية الدير للمصريين. ولم يكن هناك مشكلة حول الملكية على مدى التاريخ.

ولكن بدأت المشكلة تاريخيا عندما بدأ الرهبان الأحباش يستعينون ببعض الأجانب مثل الأسقف الإنجليكانى جوبات Gobat الذى أشار عليهم بخطف مفتاح كنيسة الدير من الأقباط وكذلك أشار عليهم القنصل البريطانى فين Finn[١] وفى سنة ١٢٧٨ هـ قام ميخائيل الحبشى بخطف مفتاح الكنيسة ثانية، فبادر الأنبا باسيليوس مطران القدس فى ذلك الوقت إلى تقديم شكوى نظرت أمام المجلس الكبير جاء فيها أنه «حسب الواقع المفاتيح المرقومة هى من قديم الزمان بين الأقباط (المصريين) وإغتصاب الأحباش هو تعدى صرف، وإذا بقوا معتدين «فيصير رفع القفولة» ـ أى الأقفال ـ الموجودة الآن ووضع «قفولة» خلافها، وإعطاء مفاتيحها للأقباط، وهكذا أعيدت المفاتيح للأقباط كما أعيدت فى المرة السابقة.

---

(١) الوقائع والوثائق مذكورة تفصيلا فى دراسة مطران القدس الدكتور الأنبا باسيليوس وهى دراسة غير مشورة.

وكل ذلك مدون في وثائق.

وعندما شرع مطران القدس فى توسيع باب دير السلطان بموجب رخصة من المجلس البلدى مؤرخة فى عام ١٣٠٦ هـ بدأ الأحباش يتعرضون للأقباط لمنعهم من ذلك، فعرض الأمر على مجلس متصرفية القدس فقررت «أن الدير المذكور هو بتصرف القبط بصورة مستقلة» وأتم الأقباط العمل.

وسعى الأحباش إلى الضغط على الباب العالى بمناصرة روسيا للحصول على حقوق جديدة فى دير السلطان وأرسلوا الوفود إلى الأستانة، ولكن صدرت «الإرادة السلطانية» فى عام ١٣٢٣ هـ وأبلغت بواسطة أكرم باشا متصرف القدس بأنه «لا يمكن قبول مطالب الأحباش، لمخالفتها للإستاتيسكو»..،

قصة طويلة.. كل حلقة منها تنتهى بوثيقة تؤكد حق الأقباط المصريين فى هذا الدير الذى يمثل بالنسبة لهم قيمة كبرى وتاريخا لا يمكن التنازل عنه أو بيعه مهما كان الثمن.. وعندما جاء الإنتداب البريطانى على فلسطين إحترم ملكية الأقباط المصريين للدير، وعندما جاء الحكم الأردنى للمدينة سارت الحكومة الأردنية على مبدأ المحافظة على أوضاع الأماكن المقدسة ومنها هذا الدير، إلى أن ساءت ثم إنقطعت العلاقات بين مصر والأردن فى الخمسينيات فإنتهز أسقف الأحباش فى القدس الفرصة وطلب من الحكومة الأردنية عام ١٩٥٩م إسترجاع ما أدعاه «من حقوق كانت للأحباش فى السابق» ورغم ذلك بقي الدير مملوكا للأقباط وفى يدهم. وفى عام ١٩٦٠

ساءت العلاقة ثانية بين مصر والأردن وحاول محافظ القدس الأردنى - تملقا لسلطاته - أن يسئ إلى العلاقات أكثر بإعادة بحث ملكية الدير لكن البابا بولس السادس - بطريرك الأقباط فى مصر بعث برقية لرئيس الوزراء الأردنى قال فيها أن الوضع الراهن بدير السلطان كغيره من الأماكن المقدسة كفلته معاهدة برلين وإلتزمت الحكومات المتعاقبة بفلسطين - ومنها حكومة الأردن - بالمحافظة عليه كما هو، ولا يمكن أن يكون موضوع ملكية الأقباط المصريين للدير محل نظر أية سلطة محلية وأى قرار فيه يكون باطلا. ولابد من إحترام الحقوق التاريخية للكنيسة القبطية منعا لشبهة تدخل التأثيرات السياسية فى المسائل الدينية، ولكن فى ٢٢ فبراير ١٩٦١ دعا إحسان هاشم محافظ القدس وفتئذ، مطران الأقباط على عجل، وفاجأه بقرار وزارى بالإستيلاء على الدير وتسليمه للأحباش، وطبعا رفض مطران الأقباط قبول القرار وطلب مهلة للإتصال بالجهات العليا، لكن المحافظ رفض، وأصدر أمره بكسر أبواب الدير، والإستيلاء عليه، وتغيير الأقفال ووضع غيرها، ونفذ ذلك فورا، وأقامت كتيبة مسلحة من الجنود فى الدير، وأبعدوا رئيس الدير المصرى، ولم يمكنوه من الإتصال تليفونيا بالمقر البابوى بالقاهرة، وإجتمع المجمع المقدس للكنيسة المصرية وقرر إلغاء الحج، وإتخاذ الخطوات لإسترداد الدير، ونتيجة الإتصالات من الكنيسة المصرية بالمستويات العليا فى الأردن صدر قرار فى أول ابريل ١٩٦١ بتجميد قرار مجلس الوزراء الأردنى وإعادة الدير ومفاتيحه إلى الأقباط المصريين، وشكلت لجنة من محافظ القدس (أنور نسيبة) ونجيب الرشدان (عضو محكمة التمييز)

وشكرى المهتدى (المستشار القانونى لرئاسة مجلس الوزراء) وإستمعت إلى أقوال الطرفين (القبطى والحبشى) ثم أصدرت قرارها بأن الحكومة الأردنية قد تجاوزت صلاحياتها حين أصدرت قرار الإستيلاء بالقوة على الدير، ولذلك فإن القرار يعتبر باطلا.

وسارت الأمور مستقرة فى الدير إلى أن جاءت حرب يونيه ١٩٦٧، وإحتلت إسرائيل القدس وبدأت سلطات الإحتلال الإسرائيلى فى الضغط على الأقباط المصريين الذين يعتبرون أنفسهم فى حالة حرب وعداء معهم، وبدأت الضغوط الإسرائيلية على الرهبان الأقباط، وفى ليلة عيد القيامة عام ١٩٦٩ حشدت السلطات الإسرائيلية قوات من البوليس قامت بالإعتداء على رجال الدين الأقباط فأصيب ثلاثة منهم وعطلت إقامة الشعائر الدينية فى البطريركية ليلة العيد. وقبيل عيد القيامة المجيد لعام ١٩٧٠ إحتل مئات من رجال البوليس الإسرائيلى المسلحين البطريركية والدير، وإنتهزوا فرصة ذهاب الأقباط جميعا إلى كنيسة القيامة لتأدية صلاة العيد فقاموا فى منتصف الليل بتغيير أقفال أبواب الكنيستين بالقوة وسلماهما إلى الرهبان الأحباش، ومنعوا الرهبان الأقباط من الدخول وصوبوا بنادقهم ومدافعهم الرشاشة إلى صدور المطران والكهنة وإقتادوهم واضعين الأسلحة فى ظهورهم فى شوارع المدينة، وإعتدوا على بعضهم بالضرب إلى أن أوصلوهم إلى البطريركية القبطية.

ورفع مطران القدس دعوى أمام محكمة العدل العليا الإسرائيلية

بالقدس، فأصدرت قرارها بتاريخ ١٦/٣/١٩٧١ بإدانة الشرطة وسجل الحكم القضائى الإسرائيلى إن ما حدث تعدى ضد الأمن والنظام العام، وطلبت المحكمة من رئيس الشرطة إعادة الأملاك القبطية المغتصبة قبل يوم ٦/٤/١٩٧١. وبدلا من أن تستجيب الحكومة الإسرائيلية لقرار المحكمة أصدرت قرارا ضد الأقباط بإبقاء الإعتداء على دير السلطان إلى أن تقوم لجنة شكلتها من وزراء العدل والخارجية والشرطة والأديان لإعادة النظر فى الأمر، وتقديم توصياتها لمجلس الوزراء، وعقدت هذه اللجنة عدة جلسات، ولم تتخذ قراراً أو اجراء فقد كان الهدف منها تسويف الموضوع. وإضطر المطران إلى العودة مرة أخرى إلى المحكمة العليا بالقدس عام ١٩٧٧، وأعلن المدعى العام الإسرائيلى الذى يترافع عن حكومته أمام المحكمة أن حكومته تعمل ضد الأقباط المصريين سياسيا وطلب من المحكمة عدم الضغط على الحكومة لإنهاء هذه القضية فى فترة زمنية محددة، لأنها قضية ذات أبعاد سياسية.

وإختلف القضاة الخمسة للمحكمة الإسرائيلية العليا ولكنهم أجمعوا فى قرارهم بتاريخ ٩/١/١٩٧٩ على إنتقاد الحكومة ولومها على تصرفاتها التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الأماكن المقدسة، ولكن لم تجد محاولات المطران لتنفيذ قرار المحكمة، ولا مئات المذكرات والبرقيات التى بعث بها إلى السلطات الإسرائيلية لرفع التعدى عن دير السلطان وإعادته إلى أصحابه ـ وفى كل مناسبة دولية تصدر قرارات تؤكد أن الإجراءات التى إتخذتها الحكومة الإسرائيلية

بإغتصاب دير السلطان إجراءات باطلة، كما قرر ذلك أيضا السكرتير العام للأمم المتحدة (دى كويلار) وأجرى إتصالات مع حكومة إسرائيل. . دون جدوى.

وحتى الآن مازال العدوان الإسرائيلى قائما، بإغتصاب الدير. ونتيجة لذلك تعطلت العبادات والصلوات، وإضطرت بطريركية الأقباط إلى إلغاء الإحتفالات الدينية، وحتى بعد توقيع معاهدة السلام قام المطران المصرى بكتابة مذكرات يطلب فيها من سلطات الإحتلال الإسرائيلى تنفيذ قرارى المحكمة العليا الإسرائيلية وإعادة المقدسات القبطية المغتصبة إلى أصحابها. . ومازال الإعتداء مستمرا. .

أما البابا شنوده فكان موقفه واضحا منذ البداية، أعلن أولا أن حقوق المصريين فى دير السلطان مؤكدة بالوثائق التاريخية وبقرارين من المحكمة العليا فى إسرائيل، وانه لابد من إستعادة الدير، وإزالة العدوان عليه، وتنفيذ قرارى المحكمة العليا الإسرائيلية، وأعلن البابا شنوده أكثر من مرة أن أمور التنفيذ متروكة للإتصالات الدبلوماسية، وإن وزارة الخارجية المصرية تتخذ الإجراءات لتنفيذ القرارين. . فى نفس الوقت منع البابا شنوده الأقباط المصريين من زيارة القدس وأداء الحج، وأعلن: لن ندخل القدس إلا مع أخوتنا الفلسطينيين وسائر العرب. . ولن ندخل القدس ودير السلطان مغتصبا.

هذا فصل من تاريخ إسرائيل لا ينفع فيه التزييف ولا التزوير. . مهما تفنن خبراؤها فى فن ترويج الأكاذيب، وتزوير التاريخ.

المحتويـات

القسم الثانى

القسم الثالث

القسم الرابع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٨٤٩ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5886 - 0